جامعة وهران

معهد اللغة والأدب العربي

الأرض في الرواية العربية الجزائرية

(1971 - 1982)

رسالة معدة لنيل شهادة الماجستير

إعداد الطالب:

لحسن كزوني

إشراف: الأستاذ الدكتور

عبد المالك مرتاض

جامعة وهران

معهد اللغة والأدب العربي

الأرض في الرواية الجزائرية

(1971 - 1982)

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير

إعداد الطالب:
لحسن كرومي

إشراف: الأستاذ الدكتور
عبد المالك مرتاض

ان موضوع الارض من أهم الموضوعات التى استقطبت اهتمام الروائيين الجزائريين، فقد ظهر هذا منذ أول رواية جزائرية باللغة العربية "ريح الجنوب" لعبد الحميد بن هدوقة سنة 1971، واستمر الاهتمام بموضوع الارض في أعمال روائية أخرى تلتها كـ "الزلزال" "ونهاية الامس" و "دماء ودموع" و "الشمس تشرق على الجميع" و "الاكواخ تحترق" و "نجمة الساحل" وغيرها.

ان هذه الظاهرة استرعت اهتمامي وكانت الدافع الأول الذى حدا بي الى اختيار موضوع:

"الارض في الرواية الجزائرية 1971 - 1982"

واذا كانت الرواية الجزائرية قد كونت لنفسها خاصية تتمثل فى الاهتمام بالارض والفلاح، فان هذه الظاهرة لم تنل مايجب ان تكون له أهلا من الدراسة والبحث في الادب الجزائرى المعاصر فلم يسبق لأحد من النقاد أن تناول "موضوع الارض" في الرواية الجزائرية بالتحليل العلمي، محددا بدايته وتطوره، مبينا الاتجاهات التى سلكها الروائيون في معالجتهم هذا الموضوع، الامر الذى دفعني الى اختياره اساسا لمادة بحثي هذا.

أما الدافع الثاني أن الرواية بما تتوافر عليه من خصائص فنية وموضوعية تجعلها مؤهلة لنقل عالم حيوى - كعالم الارض - متيحة لي فرصة المعالجة العميقة والمستأنية، لانها اقدر الاجناس الادبية على استعاب الظواهر الاجتماعية وتمثلها بعمق وبرؤية أكثر شمولا.

واذا كان لموضوع الأرض مكانة كبيرة في الرواية الجزائرية فان اختلاف الرؤية الفكرية والخلفية الثقافية للروائيين ، وتباين المظاهر التي عنوا بها في نتاجاتهم الابداعية قد أعطت الموضوع نفسه أبعادا مختلفة ورؤى متباينة. وتبقى النقطة الهامة والمميزة لكل ما كتب من روايات في هذا المجال تتمثل في مدى قدرة الروائيين على تقديم نتاجات أدبية تكشف عن رؤية متكاملة وشاملة لواقع الأرض والفلاح ، ثم في مدى تمكنهم من تقديم هذه الرؤى دون تشويش أو اضطراب ، أم عدم تمكنهم من ذلك. وهل تعرض المبدعون لوجهة نظر فئة الفلاحين في الحياة ، بقيمها وهمومها ؟ أو تعرضوا لها من خلال وجهة نظر الاقطاعيين وفق منظور ايديولوجي معين تمليه ذات الأديب على موضوعه ؟ وهل مكنتهم أدواتهم الفنية من التعبير عن المضامين التي عالجوها بكل وضوح ؟، أي هل استطاعوا بلوغ مستوى التعبير عن قضية الأرض في مختلف نتاجاتهم ؟ ، أو انهم بقوا بعيدين عن العمق الذي بلغته القضية على مستوى الواقع الاجتماعي ؟، وبالتالي جاءت كتاباتهم سطحية تدلّ على قصور في الرؤية الفكرية والجمالية في آن واحد ؟

أما سر اختيارنا للمرحلة الزمنية الواقعة فيما بين سنتين 1971 - 1982 فلم يكن مصادفة. فقد شهدت سنة 1971 ميلاد أول رواية جزائرية فنية جادة وهي " ريح الجنوب " . وفي هذه السنة صدر ميثاق الثورة الزراعية ، هذه الثورة التي مست الأرض التي تعدّ شريان الحياة في الريف ، وأعادت الاعتبار للفلاح لتعلن اندماجه في المجهود الكبير من أجل تنمية البلاد. لقد ألقت بظلالها على كامل الأدب الجزائري - كباقي الثورات الوطنية - شعره ونثره ، مما دفع بالأدباء - بمن فيهم الروائيون - الى التعبير عن

هذا التحول الثوري في عالم الريف ، مع تفاوت في التناول حسب القدرة الفنية لكل كاتب ودرجة استيعابه معطيات الظروف السياسية المستجدة وتمثلها فنيا .

أما لماذا توقفت لدى سنة 1982 بالذات ، فلأنني - أولا وقبل كل شيء - لما شرعت في هذا البحث في هذه السنة ما كان لي لأتوقف قبلها ، وذلك لقلة الآثار الروائية التي تعالج موضوع الأرض ، فكان من النشاز أن أتوقف لدى روايات وأترك روايات أخرى تناولت هذا الموضوع .

ولا أخفي أن الاقدام على مثل هذه الدراسة قد يعدّ مغامرة علمية لا تخلو من صعاب ، وأهمها قدرة الدراسات التي تناولت الرواية العربية في الجزائر بصفة عامة ، وموضوع الأرض بصفة أخص - تناولا علميا جادا ، خلا بعض المحاولات النقدية التي لا تعدو أن تكون انطباعية ، أو عارضة مبعثرة في الصحف والمجلات الوطنية هنا وهناك . ومع ذلك فقد حاولت جهدي أن أستفيد من بعض تلك البحوث التي أنجزها باحثون جزائريون - وان كانت قد تناولت موضوع الأرض بصورة جزئية وعرضية - ومن بين هذه الدراسات التي استفدت منها :

أ) - القصة في الشمال الافريقي : تونس - الجزائر - مراكش[1]

---

[1] وهي رسالة تقدم بها الطالب عبد الله بن حلّي لنيل درجة الماجستير بجامعة عين شمس كلية الآداب بالقاهرة سنة 1974م .

وقد درس هذا البحث القصة بصفة عامة - القصة القصيرة والطويلة - في الأقطار الثلاثة المذكورة أعلاه . وقد تناول الباحث في حدود ما يسمح به بحثه روايتين تدخلان في مجال بحثي وهما " ريح الجنوب " و " نهاية الأمس "

ب)- صورة الجزائري في القصة العربية الجزائرية:

وهي أيضا رسالة تقدم بها الطالب حزورلي عبد الحفيظ لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي بجامعة القاهرة كلية الآداب سنة 1982م.
وقد درس هذا البحث مختلف أنواع الشخصيات - بمن فيها شخصية الفلاح والاقطاعي - في مجتمع القصة الجزائرية - القصة القصيرة والطويلة - ويتخذ هذا البحث سنة 1962 بداية له، وسنة 1976 نهاية له.
وقد عالجت هذه الدراسة ثلاث روايات لها علاقة بقضية الأرض، وهي " ريح الجنوب " و " نهاية الأمس " و " الزلزال ".

ج)- اتجاهات الرواية العربية في الجزائر:

رسالة أنجزها الطالب الأعرج واسيني للحصول على شهادة الماجستير بجامعة دمشق سنة 1982م. وقد حاول الباحث تصنيف الرواية الجزائرية الى الاتجاهات الأدبية المعروفة من رومانسية وواقعية نقدية وواقعية اشتراكية. والحقيقة أن هذه الدراسة لم تشر الى موضوع الأرض الا اشارات جزئية وسريعة جاءت في معرض حديثها عن المواضيع التي عالجتها الرواية العربية في الجزائر بصفة عامة.

د)- تطور النثر الجزائري الحديث (1830م - 1974م):

فقد تناول صاحبه الدكتور عبد الركيبي القصة ضمن دراسة عامة للفنون النثرية تعرض فيها للأشكال النثرية التقليدية من خطب ورسائل وأدب رحلات ومقامات ومناظرات وقصص شعبية، كما تعرض للأشكال النثرية الجديدة من مقال أدبي وقصة قصيرة ومسرحية، ولم يدرس الأستاذ الركيبي في هذا الكتاب الا رواية واحدة هي " ريح الجنوب "

هـ)- الرواية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام: للدكتور محمد مصايف.

حاول الكاتب أن يعالج في هذا المؤلف مجمل القضايا التي تناولتها الروايات الجزائرية. ويبدو أن المؤلف تبنى المنهج الوصفي في هذه الدراسة، فكان يتعرض للمضامين التي طرقتها الرواية ثم يشير بعد ذلك الى الأساليب الفنية التي استعملها الروائيون للتعبير عن هذه المضامين، دون أن يغفل المزايا المتوافرة في كل عمل روائي، كما لم يفته ذكر المزالق الفنية والمضمونية التي تخللت بعض هذه الأعمال الروائية.

والجدير بالذكر أن هذه الدراسة قد أشارت الى موضوع الأرض في بعض الروايات ضمن دراسة عامة لمختلف المواضيع التي عالجتها الرواية في الجزائر دون أن تشكل قضية الأرض فيها محورا قائما بذاته.

تلك هي الدراسات التي عالجت الرواية العربية في الجزائر والتي حاولت - قدر المستطاع - الافادة منها في هذا البحث، كما أنني حاولت جهدي الاستفادة من بعض الدراسات العربية التي تبدو قريبة من موضوع رسالتي هذه.

أما من ناحية المنهج فسوف يلاحظ في هذا البحث انني ركزت على الجانبين الاجتماعي والفني في دراسة موضوعي.

وقد جاء البحث في مقدمة وخمسة فصول، وقدمت لها بتمهيد، كما أنني أتبعتها بقائمة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث.

تحدثت في الفصل الأول عن بواعث الاهتمام بالأرض، حاولت الاجابة فيه عن أهم الأسباب الموضوعية والذاتية التي دفعت الروائيين الى العناية بموضوع الأرض.

وأما الفصل الثاني فقد تحدثت فيه عن الرواية وواقع الأرض من خلال ثلاثة نماذج هي " ريح الجنوب " ، " نهاية الأمس " و " نجمة الساحل" والسبب في ذلك يعود الى اشتراك هذه الروايات الثلاثة في تناول موضوع واحد هو معالجة واقع الريف في السنوات الأولى من الاستقلال . ثم جئت الى الفصل الثالث فتبين لي أن أخصصه لمظاهر الفكر الاقطاعي في الرواية . وقد عالجت هذه القضية انطلاقا من رواية واحدة هي رواية " الزلزال " لأنها تكاد تكون الوحيدة التي حاولت رصد مظاهر الفكر الاقطاعي في الجزائر عبر منظور واقعي .

أما الفصل الرابع فقد أفردته للحديث عن الثورة الزراعية في الرواية ، كما أنني خصصت الفصل الخامس والأخير للبناء الفني ، وقد تعرضت فيه لدراسة التقنيات التي استعملها الروائيون في التعبير عن موضوع الأرض . ولعل تركيزي على هذين الجانبين - الاجتماعي والفني - لم يكن مصادفة ولا اعتباطا ، وانما أملته ضرورة البحث ، اذ نجد الرواية تحوي بين جنباتها الوعي الاجتماعي ممثلا في مضمونها الذي تعالجه ، مضافا اليه الخلق الفني الذي يعطي المضمون صورته المشرقة والمقنعة في آن واحد للقراء .

وبناء على ما تقدم يكون الاعتماد على منهج واحد دون سواه في دراسة هذا الجنس الأدبي - كالمنهج الاجتماعي مثلا - عقيما ، اذ انه يولي الجانب المضموني اهتماما متزايدا ، ويركز على الظروف والملابسات التي أفرزت هذا العمل الأدبي ، والأبعاد التي يرمي اليها الروائي من ورائه ، وغالبا ما تكون العناية بجانب المضمون على حساب الجانب الفني - على أهميته في العملية الابداعية -

ان دراسة كهذه تدفع الباحث الى الشطط في الأحكام النقدية وتسلب العمل الروائي أهم خاصية يجب أن تتوافر فيه وهي المتعة الفنية التي تسمو به عن التقريرية المقيتة. كما أن تبني المنهج الفني الصرف في البحث يخل بالدراسة أيما خلل حيث انه يفرغ الرواية من محتواها الحقيقي المتمثل في التعبير عن هموم المجتمع وواقع الانسان، ويحصرها في المجال الفني الذي قد يكون الاقتصار عليه مما لا يرضى جميع الدارسين.

من هذا المنظور حاولت أن يكون المنهج المتبع في الدراسة منهجا يتعامل مع الرواية على أساس العلاقة الجدلية القائمة بين معنى الرواية ومبناها.

وأخيرا لا يفوتني أن أشكر أستاذي الدكتور عبد المالك مرتاض الذي لم يألُ جهدا عن مساعدتي بكل الوسائل على الرغم من كثرة مشاغله، والذي لولا مساعداته الصادقة ما كان لهذا البحث أن يظهر في صورته الحالية، فدينيٌ لا تفي به يد العرفان.

والله ولي التوفيق

تمهيد

الروايـــة والواقـــع الاجتماعـــي

لعلّ معظم الدراسات العلمية الجادّة لا يمكنها أن تجهل أو تتجاهل العلاقة الحميمة التي تربط ما بين الفن والواقع الاجتماعي . ولا يملك أحد الجرأة على معاكسة تلك الحقيقة التابثة لعقلانيتها ولثبـــوت صحتها في النتائج التي توصل اليها الباحثون في حقل العلوم الانسانية من نقاد ومنظري الفن . والفن لا يتكون خارج رحم المجتمع ، لأنه ـ في الحقيقـة ـ " الأداة اللازمة لاتمام الاندماج بين الفرد والمجموع، فهـو يمثل قدرة الانسان غير المحدودة على الالتقاء بالآخرين وتبادل الـــرأي معهم" (1). ان الفنان كائن بشري بطبعه ، لا يستطيع العيش بمعـــزل عن الآخرين ، فهو يخضع لحركة المجتمع الذي يعيش فيه ويتبادل التأثـر والتأثير مع مجموع الناس الذين ينتمي اليهم ، وهناك بالضرورة علاقـــة حتمية تربط عمله الفني بالواقع الذي يعيش فيه ، وتسمه بميسمه .

والرواية ـ من حيث هي عمل فني ـ تعدّ أكثر الأجناس الأدبية ارتباطـــا بالمجتمع، فهي تعد تشكيلا منمذجا لمجمل الأنشطة التي تقوم بها الفئات الاجتماعية في قوالب فنية محكمة البناء ، تكسب الرواية قيمة جماليـــة تنأى بها عن مستوى المظاهر اليومية ، الى آفاق انسانية أوسع وأشمـــل . إن الروائي يختار من محيطه الأحداث ذات الدلالات الاجتماعية الهامّـــة ويغوص في أعماقها ليكشف لنا السرّ الكامن من ورائها ، ثم يعيد خلقها من جديد في قالب فني يجعل القارئ يقتنع فنيا بحقيقة ما يكتـــب الروائي من خلال شخصياته الرواية وحركاتها المادية وعلاقاتها الانسانية وصراعاتها في سيـاق تنامي الحدث وتشابـك نسيجه الروائـي .

---

1 ـ ارنيست فيشر : الاشتراكية والفن . ترجمة أسعد سليم ـ دار العلـــم للملايين ـ بيروت 1973 ـ ص : 16

والروائي يحلل معطيات الواقع الاجتماعي التي انتقاها ، ويفسرها ويعللها ويربط بين أجزائها لكي تتحول الى حياة جديدة ، تتطور فيها الأشياء بموجب قانونها الخاص ، وتعبر عن نفسها دون عائق . وانطلاقا من هذه الحياة الجديدة التي تشبه الى حد كبير الحياة الأولى - أي المجتمع - وتختلف عنها في الوقت ذاته ، " يوجّه الكاتب طاقاته الفنية ويوزّعها ضمن بناء متكامل " (1) هو واقع الرواية الجديد . ومن هذا المنظور يعدّ واقع الرواية الجديد امتلاكا معرفيا لمجمل القضايا التي تساهم في حركة المجتمع ، والتي لا تتراءى الا للفنان ذي البصيرة النافذة والنظرة الثاقبة ." والرواية كجنس أدبي وكأسلوب كتابة تصبح ضمن هذا الفهم ، امتلاكا معرفيا للوضع الاجتماعي الجديد في مستوى أول هو امتلاك الراهن ، كما تصبح في مستوى آخر امتلاكا جماليا للوضع الانساني الشامل " (2). ان امتلاك الراهن في الرواية هو تمثل معطيات الواقع الاجتماعي تمثّلاً فنيّاً ، وبعبارة أخرى تغدو الرواية هي المجتمع من خلال عدسة الفنان ، تتحرك فيه الشخصيات وفقاً للظروف الزّمكانية التي خلقتها ارادته ، والتي تحمل في الوقت ذاته رؤية هذا الروائي وموقفه من المعطيات الظرفية التي أسهمت بقسط أوفر في افراز الرواية . فضمن هذا السياق تصبح الرواية معادلاً موضوعيّاً للواقع . يرى " بيرسي لبوك " أن " الرواية هي صورة من الحياة والحياة مألوفة بالنسبة لنا ، لذلك دعونا قبل كل شيء ندرك الرواية باستعمال أذواقنا ، دعونا نحكم عليها فيما اذا كانت صادقة مفعمة بالحياة كما هي الحياة " (3).

---

1 - بيرسي لبوك : صنعة الرواية . ت عبد القادر جواد . دار الرشيد للنشر بغداد 1980 - ص : 21

2 - محمد كامل الخطيب : الرواية والواقع . دار الحداثة . بيروت . ط1 سنة :1981 - ص : 16

3 - - بيرسي لبوك : المرجع نفسه : ص : 29/28

من هذه الوجهة لا يمكن للرواية أن تتكون خارج رحم المجتمع، فهي بقدر ما تكون مقنعة ولها مبرراتها الفنية، بقدر ما تقترب من الحياة الانسانية. من أجل ذلك لا يوجد فرق بين الحياتين - الحياة في الفن، والحياة الواقعية - حتى وان كان لكل منها خصوصيتها الدقيقة التي تميز الواحدة عن الأخرى. ومن هنا يمكن القول: "إن الفن الروائي يؤكد أنه اختيار من الواقع، لا تقليد له، كما أنه في نفس الوقت ليس نفياً له." (1).

ولعلّ من المفيد أن نشير الى مفهوم الرواية عند عدد من منظري هذا الجنس الأدبي، والمهتمين به، عسانا أن نصل الى مفهوم واضح للفن الروائي، وعلاقته بالواقع الاجتماعي، أي الى أي مدى يمكن للرواية أن تعكس قضايا المجتمع الذي يتعامل معه الفنان الروائي.

فبونامي دوبري يرى أن الرواية هي ذلك الشكل الفني الذي يقوم مقام مرآة المجتمع. مادتها: انسان في المجتمع. أحداثها نتيجة لصراع الفرد - مدفوعا برغباته ومثله - صراعه ضد الآخرين وربما مثلهم أيضا. وينتج عن صراع الانسان هذا للملاءمة بينه وبين مجتمعه، أن يخرج القارئ بفلسفة ما، أو رؤيا عن الانسانية. (2)

ولعلّ الفكرة المحوريّة التي يقوم عليها هذا التعريف، هي أن الرواية وثيقة الصلة بالواقع، لما تملك من قدرة كبيرة على احتضان جوانب كثيرة من صراع الانسان في هذا المجتمع أو ذاك، "لأنها تعتبر" الآلة التي تقيس حرارة المجتمع، لأنها تتطرق الى كافة التيارات الفكرية، وتتكيف مع كل الأحوال والمواقف، وتتبع جميع المغريات التي تثيرها الظروف، ثم انها توضح الأساليب العامة للفكر والشعور والتصرف ازاء

---

1 - ينظر عبد المحسن طه بدر: الروائي والأرض. الهيئة المصرية للتأليف والنشر - سنة: 1971 - ص: 24

2 - فاطمة موسى: بين أدبين. مكتبة الأنجلو - مصرية 1965 - ص: 12

حادثة ما، انها تشكل المادة التي يستخدمها الفيلسوف والمؤرخ والباحث الاجتماعي." (1). ومهما يكن من أمر اختلاف النقاد والدارسين حول كيفية تصوير الواقع الاجتماعي الذي هو موضوع الرواية كعمل أدبي، ودرجة هذه العلاقة التي تربطه بالواقع، والشكل الذي تصاغ فيه المادة الحياتية أو الواقعية، ومدى مطابقته للموضوع في حدّ ذاته داخل اطار فني معين، فانهم يتفقون على أن الرواية هي الشكل الأدبي الأكثر تصويرا للمجتمع وعلى أن لها شكلا، هو الشكل الذي نراه في الحياة، شكل التطور الزمني للشخصية أو الحدث. (2)

إن الروائي - كما سبق القيل - لا يخلق فنه من العدم، بل انه يخضع لتأثيرات البيئة والطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها، فهو يعبّر عن حياتها وخصوصية فكرها - بوصفه عنصرًا منها - ومنه، فانه لا يمكن للروائي أن ينفلت من قبضة الواقع، ذلك لأن الصلة بينه وبين المجتمع قويّة، فلا سبيل للفرار منها أو الهروب من تأثيراتها.

ولعلّ الرواية تتميز عن بقية الأشكال الأخرى بقدرتها على استيعاب جوانب كثيرة من حياة الانسان، لأنها تسمح للروائي - بفضل اطارها المتسع - فرصة المعالجة العميقة والشاملة لكل المعطيات الاجتماعية المحيطة به. ويرى حليم بركات بأن " الرواية تمتاز بالدقة والاستيعاب والعمق على اكتناه أقانيم الحياة وأبعادها وأسرارها. انها تتناول الانسان بعمق وبأبعاده جميعا." (3). والسبب في ذلك يعود الى أن تجربة الروائي موضوعية

---

1 - نادو موريس: الرواية الحديثة. ترجمة فؤاد كاظم. مجلة الأقلام. العدد الأول - سنة 1976 - ص: 17

2 - ينظر: سيد حامد النساج: أدب التحدي السياسي في المغرب العربي دار الرأي - بيروت - (د.ت) - ص: 170

3 - حليم بركات: مجلة الطريق. ع 43 آب - أغسطس 1981 السنة 40 بيروت - لبنان. ص: 191

بطبيعتها ، فهو يعاني التجربة ويعيد خلقها خلقا جديدا يبدعه ، بحيث تبدو لنا مقنعة ولها مبرراتها الفنية. يقول فرانك اكنور في معرض حديثه عن القصة القصيرة والرواية ، " ان الرواية أكثر حياة من القصة القصيرة ... ان كاتبها يمتاز بنظرة أكثر شمولا... ان فنان الرواية فيه شيء من الباحث الاجتماعي أو من المؤرخ أو من هؤلاء جميعا." (1). بل ان م. ر. البريس يتنبأ بأن الرواية ستحل محل جميع الفنون الأدبية في الغرب ، وذلك لما تتوافر عليه من خصائص فنية وموضوعية تجعلها مؤهلة لاحتضان هذه الفنون . " ... ان الانسان الغربي يجد في الرواية كل شيء... ان الرواية لتقوم بدور الكاهن المعرف والمشرف السياسي وخادمة الأطفال وصحفي الوقائع اليومية والرائد ، ومعلم الفلسفة السرية ، وهي تقوم بهذه الأدوار كلها في فن عالمي يهدف أن يحل محل الفنون الأدبية جميعا ، ويمكن أن يكون في أيامنا شكلا معتمداً للثقافة." (2) .

والحقيقة أننا لا نودّ مناقشة هذا الرأي ، بله هذا التنبؤ ، وانما الذي يهمنا هو التأكيد على أن الرواية شديدة الصلة بقضايا المجتمع الذي يساهم في افرازها وظهورها الى حيز الوجود. وخلاصة القول إن العلاقة بين الرواية والواقع الاجتماعي حميمة ، ولا يمكن الفصل بينهما ، " ويجب أن ينظر الى الأدب بصفة عامة في علاقته غير

---

1 ـ ينظر : سيد حامد النساج : المرجع السابق . ص : 70

2 ـ ر.م. البريس : تاريخ الرواية الحديثة. ترجمة جورج سالم . عويدات ـ بيروت ـ لبنان . سنة : 1967 ص : 6/5

المنفصلة عن حياة المجتمع، وفي خلفية العناصر التاريخية والاجتماعية التي تؤثر في الأدب." (1)

ان فكرة فصل الرواية عن الواقع والنظر اليها نظرة جمالية خالصة هي نظرة مغلوطة من أساسها، حتى الموجة الجديدة للرواية في أوروبا في محاولتها تغييب الواقع الاجتماعي بالغاء فاعلية الانسان أو الغاء الواقع في الرواية تتخذ حجّة لدى أنصار الواقعية الاشتراكية كدلالة على الفوضى والعقم الذي بدأ يسود المجتمعات الرأسمالية التي غابت فيها فاعلية الانسان. (2)

ومن خلال عرضنا لهذه الآراء يتبين لنا أن العلاقة وطيدة بين الرواية والواقع الاجتماعي، وهما يتبادلان التأثر والتأثير. وأخيرا اننا لو حاولنا الاجابة عن مفهوم الفن الروائي ووظيفته عند الروائيين الجزائريين لوجدناه لا يخرج عن الاطار العام للمفاهيم التي ذكرناها، مما يجعلنا نعتقد أن هؤلاء الروائيين قد أدركوا وظيفة الفن الروائي ودوره المهم في المجتمع، وما يمتاز به من خصائص فنية وموضوعية عن بقية الأشكال الأدبية الأخرى. ففي هذا المجال يرى وطار "ان العملية الابداعية هي عملية امتلاء وافراغ. امتلاء بأجواء الواقع المباشر سواء للوقائع المنحرفة أو غيرها بما يعادلها، والكل في جوّ من حساسية ووعي تام للواقع وادراك تام للمشاكل" (3) التي تصطرع في رحم المجتمع. ان ما يطرحه المبدع الذي لا يقتصر في حقيقته على موقف فردي، بل هو يقوم أساسا على رؤية أكثر عمقا وشمولية لجوهر الصراع المحتدم في الواقع الاجتماعي المعاش، ذلك أنه هو المادة الخام في عملية الابداع، بمعنى

1- روبير ايسكاربيت: سوسيولوجيا الأدب. ت آمال عرموني. عويدات. بيروت ط 1 سنة: 1978 ص: 31

2- شكري عزيز ماضي: انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ط1 ـ حزيران (يونيو) 1978. ص: 142

3- سعيد علواش: الرواية والايديولوجية في المغرب العربي. دار الكلمة للنشر. بيروت. ط1 - 1981 ص: 142

أن المجتمع هو المعين الذي لا ينضب ، فمنه يغرف المبدع ويستقي مكوناته الابداعية ، بحيث يغدو العمل الروائي معادلا موضوعيا للواقع الذي أفرز هذا النتاج الأدبي . من هذا المنظور يصبح عمل الروائي عند عبد الحميد ابن هدوقة هو الدّفاع عن قضية معينة ، " وبالطبع فان أسلوب الروائي في الدفاع يختلف عنه عن أسلوب الصحافي أو المحامي ، ذلك أن الروائي يطرح مشاكل يراها بالنسبة لمجتمعه من الأهمية بمكان " ((1)). فالروائي بالنسبة اليه ، «ليس شاهد عصره ـ كما يقولون ـ بل يجب أن يكون في نفس الوقت الداعي لمثل عليا للمجتمع الذي يعيش فيه طبعا . ان انسانية الأدب وعالميته لا يمكن أن تكون إلاّ من خلال واقع الكاتب ، أي مجتمع الكاتب» (2) وهذا التمثل الاجتماعي والانساني في وقت واحد هو قمّة الالتقاء واستيعاب السّعة الاجتماعية كما هي مطروحة في الظرف الذي يعيش فيه الفنان الروائي. إن درجة المكونات التي بلغتها هذه السّعة تمثّل في منظور ابن هدوقة الدعوة إلى المثل العليا التي تكون النظرة الشمولية المبنية على تحليل الواقع واعادة بنائه في قالب فني يكسب رضى المتلقّي. والمجتمع هو المجال الأرحب لحركة الأديب كما يراها ابن هدوقة ، حيث يقول : " ان المجتمع هو محلّ نشاط الأديب الذي يعيش فيه." (3).

لقد أقبل الروائيون الجزائريون اذن على كتابة الرواية بوعي تام بعدما توافرت لديهم الشروط الموضوعية والذاتية ، فعالجوا قضية الأرض من هذا المنظور ، مع تفاوت في القدرة الابداعية والفنية لكل واحد منهم.

1ـ سعيد علواش : المرجع السابق : ص: 142

2ـ سعيد علواش : م. س. ص: 142

3ـ سعيد علواش : م. س. ص: 143

عوامل تأخر ميلاد الرواية العربية في الجزائر

لعلّ دارس الأدب العربي الحديث في الجزائر يلاحظ تأخر ميلاد الرواية العربية تأخرا يبعث على الحيرة والتساؤل. ولقد أجملنا عوامل هذا التأخر فيما يلي :

1 - الكبت الاستعماري :

إن الأوضاع السياسية التي عاشتها الجزائر المستعمرة هي التي تفسر وتبرز هذا التأخر. فإلى جانب الاستغلال الاقتصادي لموارد البلاد، وإلى جانب حرب الابادة التي شنّتها ضدّ الشعب الجزائري، عملت فرنسا على حرمان هذا الشعب من ثقافته ولغته. فقد أخذ الاستعمار يحارب الثقافة العربية محاولا بذلك محو تاريخ الأمة الجزائرية الذي تكوّن منذ أجيال طويلة. لقد عمدت فرنسا - وبكل الوسائل - الى تحقيق أملها في أن تصبح الجزائر قطعة من فرنسا، وجزءا لا يتجزأ منها، نحو ما جاء في احدى التعليمات الصادرة إلى حاكم الجزائر غداة الاحتلال : " إن ايالة الجزائر لن تصبح حقيقة - مملكة فرنسية - إلا عندما تصبح لغتنا هناك قومية، والعمل الذي يترتب علينا انجازه هو السعي وراء نشر اللّغة الفرنسية بين الأهالي إلى أن تقوم مقام اللّغة الدارجة بينهم" (1). ويؤكد جاك سوستيل - الحاكم الفرنسي العام في الجزائر في 23 فيفري 1955 - الزعم نفسه بقوله: " ان فرنسا هنا في ديارها، أو على الأصح فان الجزائر

---

1 - أحمد توفيق المدني : جغرافية القطر الجزائري. مكتبة النهضة. الطبعة الثانية - ص: 138

وجميع سكانها جزء لفرنسا، كما أنها جزء لا يتجزأ منها ... ان مصير الجزائر فرنسي . وهو اختيار قررته فرنسا . وهذا الاختيار هو الاندماج " (1) .

لقد أدّى وجود الاستعمار في الجزائر الى اختلال الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وما استتبع ذلك من جمود في الحياة الفكرية والثقافية . فلم يكن من الطبيعي أن يتنفس أديب في هذا الجوّ هواء الحرية، وما كان للأدب العربي أن يزدهر في مناخ اضطهدت فيه اللغة العربية اضطهادا كبيرا على يد الاستعمار الذي عمل على القضاء عليها، واحلال اللغة الفرنسية مكانها تمهيدا لعمليّة الامتصاص والاحتواء لدمج الشعب الجزائري وربط مصيره بفرنسا إلى الأبد . لقد أصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية للبلاد كأوّل خطوة في عملية الاحتواء بموجب قرار سنة 1848 . (2) .

وفي ظل هذه الظروف الشاذة التي فرضتها فرنسا على الجزائر بمحاربتها اللغة العربية، أصيب الأدب العربي من جرائها، وأصيب التعليم بصفة عامة بضربة قاصمة .

---

1 ـ النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني (1954 ـ 1962) . وزارة الاعلام والثقافة . الجزائر 1979 ـ ص : 159

2 ـ ينظر : أحمد بن نعمان : التعريب بين المبدأ والتطبيق . ش . و . ن . ت . الجزائر سنة 1981 ـ ص : 156

" ان لغتنا هي الحاكمة . فان قضاءنا المدني والعقابي يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللغة ؛ وهذه اللغة يجب أن تكتب بها العقود، وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا . فان أهم الأمور التي ينبغي أن يعنى بها قبل كل شيء هو السعي وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالتهم لنا وادماجهم فينا وجعلهم فرنسيين . "

على ضوء هذه المعطيات التاريخية يضع الباحث يده على سرّ تأخّر الرواية العربية في الجزائر، وفي الوقت ذاته يقف أمام العوامل الموضوعية التي ساعدت الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي على الظهور، والتي يمكن اجمالها في النقاط التالية:

أ ـ تشبع المبدع بثقافة فرضت نفسها عليه فرضاً. ولعلّ الروائيين الجزائريين الذين كتبوا رواياتهم باللغة الفرنسية، قد وجدوا أنفسهم مضطرين الى ذلك اضطرارا، وأنهم بحكم الواقع الاستعماري قد أقبلوا على تعلم اللغة الفرنسية وجعلها وسيلة للتعبير عما كان يعانيه شعبهم من فقر وقهر وظلم متسلط عليه من قبل المستعمر. (1)

ب ـ لا شك أن وفرة المطابع ودور النشر قد ساعدت بدورها على اشاعة ورواج النتاجات الأدبية بمختلف أنواعها. كما أن عامل النشر يعدّ من أهم العوامل التي ساعدت الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي على الظهور الى حيز الوجود.

ج ـ تشجيع السلطات الاستعمارية كلّ ما يكتب بلغتها، وكانت تعدّ ذلك نجاحا لسياستها وتمكينا لثقافتها المفروضة عنوة.

---

1 ـ ينظر: نور سلمان: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير. دار العلم للملايين. بيروت. ط 1 ـ 1981 ـ ص: 271

يرى مراد بوربون " أن هذا الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ليس من أدب المستعمر ولا استمرارا له، فهو أدب متحرر. ويؤكد مالك حداد: أن الأدباء الجزائريين ـ وان عبروا بالفرنسية فهم يترجمون أفكارا جزائرية. ويذكر كاتب ياسين: " أن الفرنسيين يقولون انني لا أكتب بفرنسيتهم لأنني أعيش مناخا يختص بنا نحن ـ مناخ المرارة والثورة والرفض."

د- توافر مناخ ثقافي مزدهر، وانتعاش حركة النقد الأدبي مع ظهور ما يسمى بمدرسة شمال افريقيا.

لقد تضافرت هذه العوامل وتآزرت لتعلن عن ميلاد الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي (1)، وكانت في الوقت نفسه من أهم العوائق التي حالت دون ظهور الرواية العربية في الجزائر.

ان الرواية العربية في الجزائر لم يكتب لها الظهور في تلك الفترة، لأن التخلف الثقافي من جهة، والكبت الاستعماري من جهة، لم يكونا ليتيحا للثقافة العربية أن تزدهر، مما جعل فنون القول متأخرة في الظهور، والتي تحتاج الى زخم فكري متطور والى اتقان الأدوات الفنية التعبيرية وامتلاك رؤية واعية ومتأنية.

2 - النظرة المحافظة الى الأدب:

لقد عرف الأدب العربي في الجزائر نهضة أدبية مع ظهور الصحافة الوطنية في مطلع القرن العشرين. والحقيقة أن صحف الاتجاه الاصلاحي قد أدت دورا أساسيا في ارساء دعائم هذه النهضة، و "خدمت الأدب والنقد بقدر ما خدمت الاصلاح والتعريب" (2). ومن أهم هذه الصحف التي أولت الاهتمام للنهضة الأدبية والثقافية في الجزائر: المنتقد[3]، الشهاب[4] والبصائر[5].

1- يمكن ارجاع ميلاد الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي الى بداية سنة 1950. وان كانت هناك بعض المحاولات قد ظهرت قبل التاريخ المذكور 1920- 1925. الا أنها لم تكن ذات مستوى فني رفيع، كما أنها - في عموميتها - لم تكن تعبر عن روح المجتمع الجزائري آنئذ.

2 - محمد مصايف: النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي. ش و ن ت - الجزائر 1979م ص: 5

(3، 4)- ينظر: محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية (1847- 1993) ش و ن ت الجزائر 1980م

5 - ينظر عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي في الجزائر. ش و ن ت - الجزائر: ط 2 - 1982

لقد عوضت هذه الصحافة دور الكتب لندرة المطابع، ولضعف حركة النشر في الجزائر- آنئذ- فكانت منبر الشاعر والمعلق السياسي والمعلم الديني والاجتماعي، وكان لها الفضل في نشر اللغة العربية واثرائها والحفاظ عليها أداة للتداول والتعبير. ومما يلاحظ أن الصحافة العربية في الجزائر قد اهتمت بأدب السلف اهتماما متزايدا وبخاصة الشعر، " فلا يكاد يخلو عدد منها من قصيدة تقدم أو تنتقد." (1)

والملاحظ في صحافة الاتجاه الاصلاحي أنها أدخلت " الأدب العربي القديم الى متناول القراء، بينما تركت مجالا هامشيا للانتاج الخلاق المبدع. وفي هذا الاتجاه احتل النثر مكانة ضئيلة، وقد طغى الشعر عليه" (2).

ويبدو أن هذا الرأي صحيح إلى حدّ بعيد ما، لأن النظرة إلى الأدب في بداية النهضة الأدبية كانت نظرة محافظة حالت دون ظهور أجناس أدبية متطورة وبخاصة الرواية. لقد كان مفهوم الأدب هو الشعر، " وقد استمرت هذه النظرة اللاأدب حتى أثناء الثورة حيث كانت البصائر تخصص باباً ... تحت عنوان : لمحات عن الأدب الجزائري " لا تنشر فيه الا الشعر وبعض الدراسات عن الشعراء... " (3)

ان شمولية الشعر على باقي الفنون الأدبية - في بداية النهضة- لها ما يفسّرها، أو بمعنى آخر، إن النظرة المحافظة إلى الأدب لها ما يبرّرها، وهو

1- محمد مصايف : المرجع السابق - ص: 5

2- ينظر: عايدة أديب بامية: تطوّر الأدب القصصي في الجزائر (1925-1967) د.م.ج - الجزائر، ص: 301

3- عبد الله ركيبي : القصة الجزائرية القصيرة- الدار العربية للكتاب ليبيا- تونس. ط 3 - 1973 ص: 27

أن الاتجاه الاصلاحي المتمثل في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931م المنشط الفكري والعقائدي الذي انبثق في الجزائر لاحياء الحياة الثقافية وبعث المقومات الاجتماعية، اتجه أكثر الى العمل على نشر الثقافة العربية من جذورها الأصلية وبعث المقومات الاجتماعية من صلب الحياة العربية الاسلامية وفرض سيادتها تحت شعار" لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها "(1) لقد جاء موقف الحركة الاصلاحية بمثابة ردّ قوي وعنيف أمام التحدّي الحضاري الأوروبي الذي استهدف طمس معالم الشخصية الجزائرية عن طريق سياسة التغريب " التي بدأت تأتي ببعض النتائج ابتداء من الثلاثينات من القرن الحالي، وتتمثل أولى هذه النتائج في خلق نخبة من الجزائريين أصبحت تدعو إلى تعلم اللغة الفرنسية ونشرها كلغة علم ومدنيّة متأثرين بالثقافة الغربية، معرضين عن كل ما هو عربي اسلامي "(2).

ودرءاً لهذا الخطر الزّاحف الذي ما فتئ يهدّد الشخصية الوطنية، دعت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى الالتفات إلى الذات العربية الاسلامية الأصيلة، لأن أية أمة عندما تواجه تحدّيات مصيرية تردّ على التحدّي عن طريق الالحاح على مكوناتها الأساسية ومقوماتها العريقة. وهكذا فان الردّ على التحدّي الغربي - ممثّلاً في الغزو الفرنسي - استوجب الالحاح على

---

1 - أصل هذا الشعار: كلمة لمالك بن أنس، وكان ابن باديس يوشح بها غلاف كل عدد من مجلة الشهاب.

2- أحمد بن نعمان: التعريب بين المبدأ والتطبيق. ش ون ت - الجزائر 1981 - ص: 185

العنصرين الأساسيين في الثقافة العربية وهما : الدين الاسلامي واللغة العربية، وما استتبع ذلك من تغلغل روح المحافظة والدعوة الى كل ما هو تراثي أصيل . من هنا جاءت النظرة المحافظة الى الأدب تبوأ الشعر فيها مكانة عالية، لما يتوافر عليه من مقومات تراثية أصيلة. أضف الى ذلك الى أن الموروث الثقافي كان لا يبرح يفرض نفسه على الذوق العربي العام. والأذن العربية ـ آنئذ ـ لا تستأنس الا القصيدة العربية التي تستوفي شروط عمود الشعر كما حدّه القدماء. وفي ظل هيمنة المفهوم التقليدي للأدب لم يكن ليهيء لظهور مناخ روائي مزدهر، بل إن النظرة الى الفن القصصي ـ بصفة عامة ـ كانت مشوبة بالحذر في بداية الأمر، لأنها تعدّ من روافد الثقافة الغازية. كما أن هذا الفن يعتمد على الحكاية، والحكاية خلقت أساسا لتزجية الفراغ ـ في نظر البعض ـ ومجتمعنا في غنى عنها، بل هو في حاجة الى الشعر الذي يصونه ماضي عريق، ولأنه يثير شكيمة العربي عند الضرورة ولكونه أكثر مساساً وصلةً بحس المتلقي من النثر. ولعلّ ما نهبنا اليه يؤكده محمد بن العابد الجلالي في قوله: " من ذا الذي ينكر على الرواية أو القصة فضلهما في تأصيل اللغة العربية وتنمية روحهما وحسن أثرهما في الثقافة" (1). ثم يضيف قائلا: " ان الأدب ليس وعظا وارشادا في المساجد وعلى المنابر، وليس أمرًا ونهيًا، فهذا موضوع القوانين، وانما الأدب يجب أن يكون شيئا آخر لم نطرقه بعد" (2). ولعل رأي محمد بن العابد الجلالي يحمل في طياته تبرم

---

1 ـ محمد بن العابد الجلالي : مجلة الشهاب ـ يناير 1934

2 ـ محمد بن العابد الجلالي : مجلة الشهاب ـ فبراير 1936

القاص وضيقه من هذه الرؤية المحافظة الى الأدب ووظيفته، والتي أسهمت بقسط وافر في تأخير ميلاد الرواية العربية في الجزائر.

3 - غياب حرية التعبير:

لقد عانت الصحافة العربية الجزائرية - كما سبقت الاشارة - مشاكل جمّة مستعصية على يد السلطات الاستعمارية، و " كان القانون الفرنسي يخول للحاكم العام على السلطة المطلقة في غلق أية جريدة عربية بواسطة قرار بسيط " (1). وعلى الرغم من هذه الممارسات القمعية التي أرهقت الصحافة في الجزائر، فان القصيدة الشعرية والمقالة والقصة القصيرة قد وجدت فيها متنفسا - وبخاصة في البصائر - نظرا لاقبال القراء عليها، ونظرا للحيز المكاني الضئيل الذي كانت تشغله هذه الأجناس الأدبية من الصحف أيضا. أما الرواية فظلت مشلولة بسبب العوامل التي فصلنا القول فيها، ولأن حجمها لا يسمح للصحف بنشرها حتى على شكل حلقات، لأن هذه الصحف كانت تتعرض للاغلاق والمصادرة لأتفه الأسباب (2). كما أن تأخرها - أي الرواية - "يرجع الى أن هذا الفن صعب يحتاج الى تأمل طويل والى صبر وأناة، ثم يتطلب ظروفا ملائمة تساعد على تطوره وعناية الأدباء به" (3). هذا بالنسبة للمبدع، أما بالنسبة للمتلقي فهي قد تستغرق وقتا لاذكاء حميته واثارة وعيه. هذا اذا احتملنا وجودها في الصحف ووجود متلقي ينعم بالاستقرار في ظل الاستعمار، وهذا بطبيعة الحال الحال ما لا يمكن الحصول عليه وتوافره.

---

1 - تركي رابح : الشيخ عبد الحميد بن باديس: شؤون ت الجزائر ط3. 1981. ص: 118

2 - عبد الملك مرتاض : فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954) د.م.ج الجزائر 1983 - ص: 85

3 - عبد الله ركيبي : تطور النثر الجزائري الحديث. الدار العربية للكتاب. ليبيا - تونس 1978 - ص: 200

تأخر ظهور الرواية في الأدب العربي :

لعل الرواية لم تجد تراثا روائيا زاخرا يمكن أن يستفيد منه الروائيون ويعبون من دنانه، بعكس الشعر الذي يبقى أكثر الألوان الأدبية انتشارا لاعتباره ديوان العرب الذي يمدّه رافد ثرثار، ولأن الرواية باعتبارها جنسا أدبيًّا لم يعرفها الأدب العربي الا في وقت متأخر بالنسبة للآداب العالمية، وحتى الرواية في المشرق لم يكن قد تحقق لها النضج الكافي القادر على التأثير، لأن أول رواية عربية جادة- نسبيا - وذات سمات فنية مقبولة كانت رواية " زينب " للدكتور محمد حسين هيكل والتي ظهرت قبيل الحرب العالمية الأولى ببضع سنوات.

عوامل ظهور الرواية العربية في الجزائر:

لا شك أن زوال بعض أسباب تأخر ميلاد الرواية العربية في الجزائر هو من عوامل النشأة ، ومن أهمها : أفول نجم الاستعمار الفرنسي في 5 جويلية 1962م وما استتبع ذلك من محاولة بناء الشخصية الوطنية، التي عمل الاستعمار على طمسها طيلة وجوده بالجزائر، وما تبعها من منجزات في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. غير أن هناك أمورًا كان لها النصيب الأوفر في نشأة الرواية العربية في الجزائر ومنها :

1 - ديمقراطية التعليم:

ان اهتمام الدولة الجزائرية المستقلة بميدان التعليم واعطاءه ما يستحق من العناية قد أسهم بقسط وافر في ابعاد شبح الأمية والجهل - الذي عمل الاستعمار على بثه - وتنوير عقول الناشئة وتعريبهم.

2 - الصحافة الوطنية:

تعدّ الصحافة مدرسة الشعب، فمن خلالها يطلع على أفكار الآخرين وعلى صفحاتها يعبّر عن اهتماماته الحاضرة والمستقبلية. ولقد حققت الجزائر نجاحا كبيرا في ميدان تعريب الاعلام، وبرزت عدة صحف ومجلات أدت دورًا أساسيًا في اثراء حركة التعريب وتثقيف الجماهير الشعبية. ولعلّ من أهمها: صحيفة الشعب اليومية وملحقها الثقافي الأسبوعي، المجاهد الأسبوعية، مجلة الثقافة، الأصالة، آمال، جريدة النصر، وغيرها من الصحف والمجلات الوطنية. فبحكم ضرورة رواج هذه الصحافة واكتساحها أجواء وقطاعات عديدة متباينة من القراء، وجد النثر نفسه يسير في طريق أسلوب يسير قريبًا من أذهان الناس، هادفا الى نقل بذور التغيير والوعي الفكري وتبليغ الجماهير الشعبية - التي بدأت تتنفس هواء الحرية - كل جديد مستحدث على الساحة الوطنية - لقد مهدت هذه الصحف الطريق أمام الكتاب والمبدعين الذين حاولوا التّخول الى عالم المغامرة الروائية. وذلك بتوفير مناخ ثقافي وخلق القارئ المتذوق الذي يعدّ - في حقيقة الأمر - طرفاً مهمّاً في العملية الابداعية، وبه تبلغ الكتابة غايتها ومنتهاها، سواء أكانت ابداعية أم نقدية.

3 - دور النشر:

لا شك أن النشر يؤدي دورا بالغ الأهمية في بعث أية نهضة أدبية وثقافية، لأن النشر يجعل وسائل التثقيف في متناول جميع الفئات الاجتماعية وأهمها في رأيي - الكتاب، لأن " كل حدث أدبي يفترض وجود مؤلفين وقراء وكتب، أو بقول أعم يقتضي وجود مبدعين وجمهور وآثار" (1)

---

1 - روبير ايسكاربيت: سوسيولوجيا الأدب. ترجمة آمال أنطوان عرموني - منشورات عويدات. بيروت. باريس - جوان 1978 - ط 1 - ص: 26

ولقد اضطلعت الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بهذا الدور الطلائعي فأسهمت في نشر العديد من الكتب الابداعية والنقدية والبحوث العلمية التي لها علاقة بميدان الأدب. كما أدت مطبعة البعث بقسنطينة دورًا لا يستهان به في هذا المجال.

4- عودة المهاجرين الجزائريين المثقفين :

لقد أدى المهاجرون الجزائريون العائدون من الأقطار العربية- غداة الاستقلال- دورا بالغ الأهمية في اغناء الصحف والمجلات الجزائرية بكتاباتهم الابداعية والنقدية وفي اثراء عملية التعريب بحكم خلفياتهم الثقافية العربية.

5 - وجود أرضية قصصية:

لقد مهدت القصة الجزائرية القصيرة لظهور مناخ روائي أعطى ثماره في بداية السنوات السبعين من هذا القرن. ذلك أن الروائيين الجزائريين الذين دخلوا عالم المغامرة الروائية قد سبق لهم أن مارسوا كتابة القصة القصيرة ومن هذه الزاوية تعدّ القصة القصيرة من العوامل الفنية التي أسهمت في ميلاد الرواية العربية في الجزائر.

بواعث الإهتمام بالأرض

تعرضت الرواية العربية في الجزائر لقضية الأرض مركزة اهتمامها الخاص على بواعثها التاريخية، مستخدمة الأسلوب التحليلي في تفسير التناقضات التي كانت تسود علاقات الانتاج في الزراعة.
كما أنها عبّرت عن كافة التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي ما فتئ يشهدها عالم الريف الجزائري بعد الاستقلال.

ولقد تفتحت أحاسيس الروائيين الجزائريين على واقع الأرض بصورة أكثر شمولاً مع بداية السنوات السبعين، عندما بدأت رياح التغير والتطور تجتاح الريف الجزائري وقتئذ. فحاولوا - جهدهم - مواجهة الواقع المستجد والتعبير عنه، كلٌّ من منظوره الخاص.

والجدير بالملاحظة أن الاتجاه الواقعي قد سيطر على النتاج الروائي الذي تناول الأرض بخاصة، مما يؤكد أن الأدباء الجزائريين قد أدركوا الجدلية القائمة بين الأدب والحياة، وأنهم تمكنوا من تحديد وظيفة الفن الروائي الهادفة الى " الكشف بأفضل الوسائل الممكنة، وباستخدام أقصى طاقات أدوات التعبير وتطويرها، عن رؤية الفنان لواقعه، ويمثل هذا الكشف في نفس الوقت دعوة ملحّة للآخرين الى المشاركة فيه، بل تبني موقف الفنان نظرته الى الواقع. " (1)

1- عبد المحسن طه بدر: الروائي والأرض.
الهيئة المصرية للتأليف والنشر. (د. ط) سنة: 1971 - ص: 29 - 30

وقد تناول الروائيون في أعمالهم الأرض وملكيتها ، وأسلوب العمل فيها . ومن ثم طبيعة العلاقات الاجتماعية التي كانت تربط مجتمع الفلاحين وثقافتهم المتمثلة في الموروث الثقافي الشعبي . وكانت الأرض في منظور الروائيين وسيلة انتاج جماعية لا ملكا خالصا لشخص أو جماعة ما ، وهو الشيء الذي يفسّر موقفهم المشترك الرافض للملكية الاقطاعية القائمة - أساسا - على استغلال الانسان للانسان . كما أن الرواية الجزائرية أماطت اللثام عن ماضي الارستقراطية العقارية " ... التي كانت تربأ بنفسها عن أن تكون في مستوى الشعب الفلاح الذي كان يخدمها . وتحت ظلام الخزي والعار مثلت بعض الأدوار المخجلة" (1). ومن أهم هذه الأدوار - على سبيل المثال لا الحصر - التحالف مع الاستعمار الفرنسي ضد القوى الشعبية المناهضة للتغلغل الأجنبي في الجزائر.

لقد عالجت الرواية الجزائرية قضية الأرض وارتباط الفلاح بها ، وما قدّمه من تضحيات منذ كان الصراع قائما بينه وبين أعدائه من أجلها ، وصورت بيئة الريف المشبعة برائحة الأرض وعرق الفلاحين وأوجه الاستغلال التي كانوا يتعرضون لها . وعبّرت أيضا عن مظاهر التغير التي بدأت تطرأ على حياة عمال الأرض اليومية في ظل الاستقلال .

لهذا فان الرواية العربيّة في الجزائر جاءت تحمل خصوصية الريف الجزائري وجاءت شخصياتها نابعة

---

1 - محمد قنانش : الحركة الاستقلالية في الجزائر بين الحربين (1919 - 1939) ش.و.ن.ت. الجزائر. (د . ط) . 1982 ص : 22

أساسا من مجتمع الريف الجزائري، وهذا ما جعلها - أي الرواية - تستميز " بأسلوبها الواقعي الذي يتضمن لقطات من الحياة الاجتماعية بكل سلبياتها وايجابياتها . وقد كان وراء هذه الكتابات الوعي الاجتماعي والوطني الناقد" (1). لكن نقطة الاختلاف بين الروائيين الجزائريين الذين تناولوا الأرض في ابداعاتهم الأدبية، تكمن في مدى قدرة كل كاتب على استيعاب ظواهر الواقع الاجتماعي وتمثلها تمثلا فنيا، وتقديمها الى جمهور القراء في قوالب مقنعة لها مبرراتها الفنية.

والحقيقة أن من يتأمل الروايات الجزائرية التي عالجت موضوع الأرض يجدها لا تقف جميعها على قدم المساواة في رؤيتها للواقع، وفي احكام بنائها الفني . وهذا يرجع بالطبع الى قدرة كل روائي الابداعية وخلفيته الثقافية، وكذا الى انتمائه الايديولوجي .

وقبل الولوج الى عالم النصوص الروائية ومناقشة اشكالية طرح قضية الأرض في الرواية العربية في الجزائر ، بدا لنا من الضروري الاشارة الى العوامل الموضوعية والذاتية التي تقف وراء اهتمام الروائيين بهذا الموضوع ، لأننا في دراستنا لأية ظاهرة أدبية أو موضوع أدبي لا بد أن نضع في تصورنا النظم الموجودة في المجتمع والعلاقات الاجتماعية القائمة ، والجو الثقافي السائد، وما الى ذلك مما يكون البيئة أو المحيط أو بما يسمى بحركة المجتمع الواقعية

1- مطفى بلمشري : مجلة الثقافة. السنة العاشرة. عدد: 71
سبتمبر- أكتوبر- 982 1ص 75 - وزارة الثقافة والاعلام بالجزائر.

والتي لا ينكر أحد أثرها الفعال على الفن بصفة عامة والأدب بصفة أخص. وبتعبير آخر لا بد في أية دراسة جادة من الاشارة الى الظروف الاجتماعية والملابسات التي تقف وراء ميلاد النص الأدبي " لأن الأديب محصلة لعلاقاته الاجتماعية التي لا يمكنه الفرار منها أو الانعزال عن تأثيراتها " (1)

ولقد أجملنا بواعث اهتمام الرواية العربية في الجزائر بموضوع الأرض في العناصر التالية:

أ ـ دور الفلاحين التاريخي.

ب ـ الاصلاح الزراعي.

ج ـ انتماء الروائيين الى أصول فلاحية في النشأة الأولى.

---

1 ـ أحمد أبو مطر: الرواية في الأدب الفلسطيني (1950 ـ 1975)
المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ـ لبنان. ط 1 ـ 1980
ص: 205

1 ـ دور الفلاحيـــــن التاريخـــي :

ان علاقة الفلاح بأرضه حميمة وهي بالنسبة اليه التجارة التي لا تعرف الكساد، والعملة الرابحة التي تؤمن الخبز وتضمن له العيش الكريم، وبمعنى آخر " ان الأرض تمكّن الفلاح من حاجياته الاستهلاكية داخل أسرته في الوقت الذي تمنحه استقلالا نسبيا عن المنتجين الآخرين ، ومن شأن هذا الموقف أن يضمن له استقرارا في حياته اليومية " (1). أما الفلاح الجزائري فقد كانت الأرض عنده بالغة الأهمية، فكانت تضمن له أسباب عيشه. كما أنها كانت تشكل بالنسبة اليه أيضا عامل وحدة في مجتمع كان قائما الى حد بعيد على أساس النظام القبلي العشائري قبل الاستعمار الفرنسي.

وعندما احتلت فرنسا الجزائر، وبعد " توقيع معاهدة الاستسلام بين حسين باشا والكونت دوبيرمون De Bourmont (5 يوليو عام 1830) وانتهاء المقاومة الرسمية، بدأت المقاومة الشعبية... ولما كان أهل المدينة قد فضّلوا السلام على الحرب وقرروا عدم الوقوف في وجه الاستعمار الفرنسي ، فان عرب البادية من فلاحين وعمال

1ـ محمد الجوهري وآخرون : دراسات في علم الاجتماع الريفي والحضري دار الكتاب للتوزيع . القاهرة. ط3 ـ 1979 ـ ص : 189

الأرض ورؤساء القبائل قد قرّروا المقاومة ومنع تقدم الجيش الفرنسي خارج المدينة" (1)

وكانت مساهمة الفلاحين في مقابلة الدخيل وحلفائه - من بعض الاقطاعيين - عنيفة بقيادة الأمير عبد القادر، وقد أظهروا روحا قتالية عظيمة نابعة من حبهم للأرض، هذا الحب الذي تحوّل فيما بعد الى حماس وطني فياض. ولقد كان كفاح سكان الأرياف للغزو الفرنسي عنيفا، وبنفس العنف رفض وقاوم عملية انتزاع الأراضي منذ بداية الاستعمار. وقد انطلق في مقاومة شعبية رائعة شعارها: "مناهضة التغلغل الأجنبي الدخيل".

وعندما علم قادة الاستعمار الفرنسي الدور الذي تلعبه الأرض في حياة الفلاحين الجزائريين عملوا - جاهدين - على فصم عرى الروابط التي تربط الفلاح بأرضه حتى تسهل السيطرة عليه، وذلك بحرمانه منها، واعطائها المعمرين الأوروبيين الوافدين الى الجزائر في ركاب الاستعمار. "فلم تكن سياسة الاستعمار في الحقيقة لتكتفي بمجرد اغتصاب الأراضي، بل كانت ترمي من وراء ذلك الى سحق المقاومة للمحتل الغاصب بواسطة هدم الأسس التي يقوم عليها المجتمع الجزائري، فتحقيق ذلك لا يتم الا بتقويض قاعدة هذا الشعب الاقتصادية" (2) والمتمثلة في الأرض. فكانت الأرض اذن

1- أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث. ش و ن ت. الجزائر. ط 3 - 1982 - ص: 85

2- ينظر ميثاق الثورة الزراعية. الطباعة الشعبية للجيش. الجزائر. سنة: 1975 ص: 11

هي السبب الأول والباعث الجوهري في عنف مقاومة الفلاحين الذين رفضوا التغلغل الفرنسي في البلاد .

لقد كانت سياسة فرنسا هي مصادرة الأراضي الزراعية، واتخذت عدة أشكال : مرة مصادرة أراضي الأوقاف الاسلامي زيادة على أراضي الحكومة، ومرة أخرى أراضي القبائل عقابا لأصحابها على ثورتهم عليها . وقد صدر سنة 1832 قرارا يقضي بملكية الدولة على كل أرض لا يستطيع صاحبها أن يستظهر عقد امتلاك لها[1]. وما دام الاستثمار كان جماعيا - كما سبق القيل - فلا يمكن لأي فلاح ساعتئذ أن يستظهر بعقد . فأمكن للدولة الفرنسية الاستيلاء عليها بموجب هذا القانون المجحف . وعندما استلم الماريشال بيجو BUGEAU (1840 - 1847) قيادة جيش الاحتلال الفرنسي اعتمد سياسة لا انسانية تجاه الجزائريين وممتلكاتهم الزراعية، فحرمهم من موارد عيشهم ووزعها على المستوطنين الأوروبيين (*) .

(*) - ينظر: أحمد توفيق المدني : هذه هي الجزائر. النهضة المصرية. القاهرة 1956 - ص: 110

" كان بوجو يريد أن يغرس ويبيئ في الجزائر فلاحة أوروبية على قطع صغيرة المساحة، ثم يقوم بعد ذلك بتبييئ المعمرين على مساحات أرض متوسطة مع العمل على تجميع القطع الصغيرة. وكان المعمرون من جهتهم أيضا يقومون بانشاء شركات عائلية لاستغلال مساحات كبيرة."

[1] - ينظر حسين بدلول : القطاع التقليدي والتنافذات الهيكلية في الزراعة الجزائرية. ش.و.ن.ت، الجزائر 1976. ص 129.

لقد اقترن اسم بيجو بسياسة الأرض المجروقة وابادة الفلاحين العرب.
قال مرة في خطبة لجنوده: "ان مهمتكم ليس العَدْو وراء العرب، وهذا أمر لا جدوى فيه، انما هي في منع العرب في منطقتكم من أن يزرعوا ويحصدوا ويرعوا مواشيهم ويتمتعوا بحقولهم..." (1)
وقال أيضا: "... يجب أن يرفرف العلم الفرنسي فوق هذه الأرض. انني لم أجد لاخضاع الجزائر وسيلة فعالة خيرا من مصادرة الأملاك الزراعية" (2).
هذ فضلا عن قوله- أي بيجو- في مجلس النواب الفرنسي بتاريخ 14 ماي 1840 انه: "حيث وجدت مياه غزيرة وأراضي خصبة يجب أن يقيم المعمرون دون الاهتمام بالسؤال عن أصحاب الأرض" (3).
وطبقا لهذه السياسة التي أعلن عنها الماريشال بيجو، تمّ بالفعل الاستيلاء على أراضي الأوقاف الاسلامي وأراضي الحكومة، وضمّت الى أملاك الدولة الفرنسية اعتبارا من سنة 1843م. لقد وضعت الدولة الفرنسية نصب عينيها عملية انتزاع الأراضي من الفلاحين الجزائريين ومنحها الأوروبيين من مختلف الجنسيات، كما اعترف بذلك أناتول فرانس بقوله: "اننا منذ سبعين سنة قد حرمنا العرب من أراضيهم وطردناهم كي نجعل من الايطاليين والأسبانيين سكان الجزائر" (4)

---

1 ـ نور سلمان: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير.
دار العلم للملايين. بيروت. ط 1 ـ 1981 ص: 34
2 ـ المرجع نفسه: ص: 34.
3 ـ تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس.
4 ـ نور سلمان: المرجع السابق: ص: 43

وكان على الفلاحين آنذاك أن يخوضوا لوحدهم نضالاً ضد اغتصاب المعمرين أراضيهم، وكانت العقوبة التي تفرض على المقاومين هي انتزاع الأرض منهم. وهكذا عندما هزم الاستعمار الفرنسي المقراني والشيخ الحداد بشرق البلاد في سنة 1871م، أعلن عن مصادرة الأراضي التي كان يملكها الثائرون ضده.(1)

وكان من أثر هذه العمليات المختلفة الأساليب أن اضطر الفلاحون الجزائريون الى مغادرة المناطق الخصيبة التي كانوا يفلحونها سابقا، الى الجبال والمناطق القاحلة في الجنوب الجزائري، واضطروا بعدها الى ممارسة الفلاحة في الأراضي الفقيرة الوعرة وبوسائل بدائية جدا لا تسمن ولا تغني من جوع.

ان الأراضي الفلاحية الخصيبة قد قدمت للأوروبيين تشجيعا لهم على البقاء في أرض لا عهد لهم بها. ولقد توافد على الجزائر كثير من الغربيين من مختلف الجنسيات تحت عامل الاغراء والتشجيع الكبيرين. ففي سنة 1848م وحدها وفد على الجزائر حوالي 13500 معمّر فرنسي. وعندما ودّع رئيس الحكومة الفرنسية الفوج الأول منهم قال لهم: "ان المستقبل لكم، هناك ستجدون مناخا صحيا، وسهولا شاسعة وأراضي خاما وخصبة ملكا لكم، وليست لأحد غيركم وستحرثونها وترتقون الى حياة مزدهرة وشريفة" (2)

1- ينظر بسام العسلي: محمد المقراني وثورة 1871 الجزائرية. دار النفائس. بيروت- لبنان. ط 2 - 1983 ص: 189 و 191

2- نور سلمان: المرجع السابق: ص: 37 و 38

ان الباحث يلاحظ أن هذا التصريح يتجاهل حقيقة الشعب الجزائري، صاحب الأرض أصلا، والذي لم يتوان لحظة واحدة في الدفاع عنها. وقد أصبحت مصادرة أراضيه الوسيلة الوحيدة التي استعملها قادة الاستعمار لاخماد روح المقاومة الشعبية- كما سبق الذكر- وقد نجح الماريشال بيجو - بشكل خاص- في هذه السياسة، والتي تعدّ من ضمن العوامل الجوهرية التي أسهمت بقسط وافر في اضعاف مقاومة الفلاحين للدخيل وسقوط دولة الأمير عبد القادر.(1)

وخلال فترة وجيزة لغزو الجزائر صدرت عدة قرارات فرنسية جائرة تمّ بمقتضاها مصادرة عدة أراضي، وبخاصة الجماعية منها.(*)

وكانت هذه العمليات الكبرى في اغتصاب أجود الأراضي الزراعية عنْوة من الفلاحين الجزائريين ومنها: "الكولون"، وسن تشريعات عقارية، مثل قانوني: (Warnier 1873- 1887) - شاذة عن المجتمع الجزائري، من أهم العوامل التي خلقت ارتباكا كبيرا

- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية(1900 - 1930) ج 2 - ش ون ت الجزائر. ط 3 - 1983 ص: 44 و 45

(*)- صدر قرار 1832 تم بمقتضاه مصادرة أراضي العرش.

- قرار 1844 القاضي بمصادرة أراضي الأوقاف الاسلامي.

- مراسيم 4 1843، 1846 الخاصة بمصادرة الأراضي التي تغيرها السلطات الفرنسية غير الزراعية.

- قرارات 1846، 1871 الخاصة بمصادرة أراضي الأشخاص الذين ساهموا في ثورة المقراني والحداد.

في بنية الريف ، " ذلك لأن القضاء على الأراضي الجماعية والتشتيت الوحشي للجماعات الريفية كان لا بد أن يؤديا الى تفكيك الهياكل الزراعية في المجتمع الريفي بكليته ." (1)

ان هذه العمليات ، وان كانت آثارها الاقتصادية والاجتماعية بالغة الخطورة على المجتمع وما ترتب عنها - في الريف - من فقر وجوع وأمية وغيرها من الآثار السيئة ، الا أنها لم تفلح في اخماد الطاقة الكامنة في الجماهير الفلاحية التي بقيت علاقتها الأبية بالأرض حميمة وقوية بشكل أنهل الاستعمار ، على نحو ما جاء في قول " روبيون دو تروبوني " - وهو مهندس فرنسي معمّر - في نهاية 1871م يهاجم أصحاب الأرض الشرعيين :

" ان هذا الجنس المتوحش يتمسك بالأرض بشكل يدلّ على الاحتجاج ضد احتلالنا " (2) .

وعلى الرغم من هذه العمليات القمعية التي تعرض لها الفلاحون والمتمثلة في حرمانهم من الأرض ، مورد رزقهم الأساسي ، فان نضالهم لم يتوقف لحظة واحدة حتى في غياب قادتهم العظام ، مثل الأمير عبد القادر والمقراني والشيخ الحداد ، وبومرزاق ، وبومعزة وبوعمامة

---

1 - ميثاق الثورة الزراعية : ص : 11

2 - ينظر : مصباح سعدي : الثورة الزراعية وخلفيتها التاريخية . جامعة وهران . معهد العلوم الاجتماعية . ص : 25

وغيرهم كثير، بل ان انتفاضات عمال الأرض قد تواصلت بطرق متعددة، " وظهرت حينئذ أشكال أخرى من المقاومة الفلاحية أكثر سرية لكنها ليست أقل واقعية: منها رفض دفع الضريبة ورفض الطب والثقافة العصرية المنتشرة من قبل الاستعمار" (1).

والحقيقة أن هذا الرفض يمثل صمود الفلاحين المعنوي أمام محاولات التغريب التي كان يقوم بها الاستعمار الفرنسي قصد التسرب الى نفسية الجماهير الفلاحية، وامتصاص ثورتها والقضاء عليها في المهد. ان الطبقة الفلاحية قد بقيت ضمن محيطها القيمي وانغلقت عليه بشكل أفشل كل محاولات الاستيلاب التي حاول الاستعمار بثّها في الأوساط الريفية، لدرجة أن اللغة الفرنسية نفسها رفضت على أساس أنها لغة الكفار (*).

---

1 ـ عبد القادر جغلول: تاريخ الجزائر الحديث. ترجمة فيصل عباس دار الحداثة. بيروت ـ لبنان. ط 1 ـ 1981 ـ ص: 129

(*) ـ لقد نجح الاستعمار الفرنسي ـ نسبيا ـ في تكوين نخبة من الجزائريين مثقفة ثقافة فرنسية في الأوساط الحضرية. بدأت تطالب بتعلم اللغة الفرنسية كمرحلة أولى لادماج الشعب الجزائري في الكيان الفرنسي في حين لم تنجح سياسة التغريب في الأوساط الريفية نظرا لتمسك الفلاحين بالقيم العربية الاسلامية وعزوفهم عن كل معطيات الحضارة الغربية الغازية.

والحقيقة أن الفلاحين " بثوراتهم المستمرة، وحبّهم للأرض وكرههم للأجانب قد حافظوا على الضمير الوطني حيّاً، ومثلوا استمرار الكيان الجزائري الذي حاول الاستعمار القضاء عليه " (1)

لقد أسهم عامل مصادرة الأراضي الزراعية - اضافة الى عوامل أخرى - في جعل الفلاحين أكثر الفئات الاجتماعية استعدادا للثورة (2) وفي هذا المجال يرى مصطفى الأشرف " ان الوطنية الريفية هي الوطنية الحقّة، باعتبارها السباقة للنضال. انها بمقاومتها الجديدة للدخيل أقوى من ايديولوجيات الحركة الوطنية في المدن، بل انه بعد مدّة من حروب الفلاحين المريرة بدأت تظهر الأحزاب الوطنية في المدن في أوساط العمال والذين ينحدرون من أصول فلاحية " (3)، فتحولوا الى عمال أجراء - لا يملكون سوى جهدهم العضلي - بعدما سلبهم المستعمر مصدر رزقهم المتمثل في الأرض. فهاجروا تحت وطأة الجوع وسياط المعمرين الى البحث عن عمل، بعيدا عن الأرياف. ولكي نقتنع بالدور النضالي للفلاحين الجزائريين، يكفي أن نذكر كيف تكوّن الحزب الوطني الأول - نجم شمال افريقيا - لقد تكون في العاصمة الفرنسية - باريس - سنة 1927م، وكان أعضاؤه من العمال الذين هاجروا الى فرنسا نتيجة الاستيلاء على أراضيهم. (4) وقد طالب الحزب بالاستقلال التام للجزائر. كما أن مسألة الاصلاح الزراعي احتلت

---

1 - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق: ص: 58

2 - ينظر: محمد الميلي: فرانز فانون والثورة الجزائرية. ش ون ت الجزائر 1973 - ص: 46، 50

3 - ينظر: عايدة أديب بامية: المرجع السابق: ص:

4 - ينظر: عبد القادر جغلول: المرجع السابق. ص: 130

مكانا هاما للغاية في برنامج هذا الحزب الذي طالب في هذا المجال " بحجز الأملاك الفلاحية التي استولى عليها الاقطاعيون - عملاء الامبريالية - والمعمرون ، والجمعيات الرأسمالية الخاصة، وارجاع الأراضي المحجوزة الى الفلاحين الذين سلبت منهم" (1).

واذا كانت الأحزاب الوطنية، مثل حزب نجم شمال افريقيا ، وحزب الشعب ، وحزب أحباب البيان ، وغيرها قد ظهرت في المدن ، ولم تظهر في الأوساط الفلاحية في الريف ، فان هذا لا يدلّ بالضرورة على أن نضال الفلاحين قد استنفذ كل طاقاته ، وقبول الفلاحين بالأمر الواقع المفروض عليهم ورضوخهم ، بل ان الطبقة الفلاحية المضطهدة كانت هي الدعامة المعوّل عليها في الثورة ، وأن برنامج الأحزاب الوطنية كانت تلقى كل التأييد من قبل الفلاحين في الأرياف الجزائرية.

لقد واصلت الطبقة الفلاحية النضال مع الأحزاب الوطنية والحركات العمالية التي تكونت في المدن ، واستطاع هذا التحالف بين مختلف القوى الوطنية في الجزائر أن يخرج البلاد من ليل الاستعمار الذي أنهك كاهل الشعب الجزائري ، " ... وكان لا بد للكفاح المرير والمزمن من أن يكيل ضربته الحاسمة ، فجاءت غرة نوفمبر 1954م ، لتلبي الأماني لجماهير الفلاحين في الأرياف ، وتدفقت جماهير الفلاحين على

1- محمد قنانش : الحركة الاستقلالية في الجزائر بين الحربين : (1919 - 1939) . ص: 44

جيش التحرير الوطني لتنخرط في صفوفه ، فكانت أغلبية ذلك الجيش من أبناء أريافنا ." (1)

في هذه السيرورة للحرب أعطيت الأولوية للكفاح المسلح في الأرياف التي لعب فيه سكان الأرياف الدور الأساسي على المستوى العسكري فقدموا القسم الكبير من الفرق العسكرية لجيش التحرير الوطني ، " ففي عام 1959م كتب مسؤول الولاية الثانية التقرير التالي : " كثير من جنودنا هم من الفلاحين ، اننا نحصي ستة من الفلاحين لواحد من المدنيين في أعدادنا ، فهناك عمّال زراعيون ، وفلاحون وصغار الملاكين ، ومناضلو المدن . كل هذا المزيج تمّ بسرعة" (2)

لقد كان الريف الجزائري المعين الذي لا ينضب ، يمدّ الثورة بالرجال والمال والمؤونة. فكان بحق مخزنا لا غنى عنه لتموين جنود جيش التحرير لمواصلة الكفاح ، وكان الفلاحون يعتقدون اعتقادا راسخا أن الثورة هي مخرجهم الوحيد من حالة البؤس التي عاشوا مرارتها أحقابا ، ولقد لازمهم هذا الاعتقاد حتى فجر الاستقلال ، على نحو ما يظهر في الحوار التالي من رواية: " دماء ودموع " :

" ـ قال الفلاح : الفرنسيون لم يتركوا فينا عضوا الا أصابوه بالجراح ، انهم قتلوا شعبنا بدون تمييز ،ثم جاءوا الى أرزاقنا وأراضينا

1ـ ميثاق الثورة الزراعية: ص: 11

2ـ عبد القادر جغلول : المرجع السابق : ص: 136

جيش التحرير الوطني لتنخرط في صفوفه ، فكانت أغلبية ذلك الجيش من أبناء أريافنا ." (1)

في هذه السيرورة للحرب أعطيت الأولوية للكفاح المسلح في الأرياف التي لعب فيه سكان الأرياف الدور الأساسي على المستوى العسكري فقدموا القسم الكبير من الفرق العسكرية لجيش التحرير الوطني ، " ففي عام 1959م كتب مسؤول الولاية الثانية التقرير التالي : " كثير من جنودنا هم من الفلاحين ، اننا نحصي ستة من الفلاحين لواحد من المدنيين في أعدادنا ، فهناك عمّال زراعيون ، وفلاحون وصغار الملاكين ، ومناضلو المدن . كل هذا المزيج تمّ بسرعة" (2)

لقد كان الريف الجزائري المعين الذي لا ينضب ، يمدّ الثورة بالرجال والمال والمؤونة. فكان بحق مخزنا لا غنى عنه لتموين جنود جيش التحرير لمواصلة الكفاح ، وكان الفلاحون يعتقدون اعتقادا راسخا أن الثورة هي مخرجهم الوحيد من حالة البؤس التي عاشوا مرارتها أحقابا ، ولقد لازمهم هذا الاعتقاد حتى فجر الاستقلال ، على نحو ما يظهر في الحوار التالي من رواية: " دماء ودموع " :

" ـ قال الفلاح : الفرنسيون لم يتركوا فينا عضوا الا أصابوه بالجراح ، انهم قتلوا شعبنا بدون تمييز ،ثم جاءوا الى أرزاقنا وأراضينا

1ـ ميثاق الثورة الزراعية: ص: 11

2ـ عبد القادر جغلول : المرجع السابق : ص: 136

فأخذوها منا بالقوة والغصب، ولم يرضوا بذلك وحده، بل أثقلوا ظهورنا بالضرائب التي لا نقدر على دفعها. هم والله ظالمون غاشمون.

ثم أخرج الفلاح مختار ورقة مرضة يدل شكلها على أنها مكثت بجيبه أياما، وقدمها الى تابوت قائلا:

"- اقرأ. انظر ما يعمل الفرنسيون! انظر! ماذا ترى يا أخي؟

"- أرى أنك مطالب... بأداء ستين ألف فرنك... ضريبة... ايه هي ضريبة!

"- ضريبة! الضريبة لا تكون هكذا، بل هو غبن وظلم!

"- هو ظلم فعلا. ومن أجل هذا الظلم، ومن أجل الفلاحين قامت الثورة.

"- ربي يحفظ الثورة وينصرها. فبأي شيء تشير علي يا تابوت؟

" - تدفع الضريبة. قل لخلوفي يعطيك ستين ألف فرنك لتدفعها الى الظالمين.

"- الله لا يبارك لهم فيها.

"- تدفع لهم لأن الثورة تحرص على أن تبقى دارك مركزا سريا لها" (1)

ان الباحث يستنتج من هذا الحوار حقائق جمّة منها:

أ- ان فئة الفلاحين كانت أكثر الفئات الاجتماعية تضررا من الغزو الاستعماري في الجزائر، فهي التي حرمت من أراضيها، وهي التي تعرضت لاستغلال المعمرين الذين استنزفوا طاقاتها، وتركوها حطاما هشا.

1- عبد الملك مرتاض: رواية: دماء ودموع. ص: 92

ب- ان الفلاحين الجزائريين الذين مارسوا الفلاحة في مناطق وعرة في الجبال والأحراش لم يكونوا بمنجى عن ظلم المستعمر الذي أثقل كاهلهم بالضرائب التي لم يكونوا قادرين على دفعها.

جـ- ونتيجة لهذه الممارسات القمعيّة أصبح الفلاح أكثر الناس في الوطن استعدادا للثورة. ولعلّ أشد الناس حبا بالوطن أكثرهم تعلقا بالكفاح من أجله (1). لذلك كان الفلاحون الجزائريون أكثر الناس اقبالا على الموت لنصرة الوطن وتحرير الأرض المغتصبة.

د- والحقيقة الرابعة التي نستنتجها من هذا الحوار هي أن الريف الجزائري كان المعين الذي لا ينضب يمدّ الثورة بكل ما تحتاج من دعم، كما قال المجاهد للفلاح: "ان الثورة تحرص على أن تبقى دارك مركزا سريا لها" (2)، كذلك كان الريف الجزائري برمّته مركزا سريا للثورة وقاعدة نضالية ينطلق منها المجاهدون لمحاربة المستعمر.

ان الرواية العربية في الجزائر لم تتجاهل حب الفلاح لأرضه. هذا الحب الذي وقف ويقف وراء تضحياته الجسيمة من أجلها. وأن نضالات الفلاحين الجزائريين كانت نابعة من وعيهم العميق وايمانهم المطلق بالمستقبل المشرق الذي بفضله استعادوا الأرض التي حرموا منها طوال فترة الاستعمار، كما جاء في رواية نجمة الساحل: "الأرض التي راق عليها الدم في تاريخكم عادت... عادت... يا فرحتكم...

1- عن فرانز فانون: المجاهد الأسبوعي. 9 نوفمبر 1979 عدد: 105 ص: 46

2- عبد الملك مرتاض: المرجع السابق: ص 91

عادت تنتج بأيدي الفلاحين الغارسين ... هم وما أدراك من هم ... أتتهم الطعنة من الخلف ومن الأمام ... ازدادت حدة وعيكم الحاد ... فصاحب استمرارية وجودكم ... وانتصرتم على مدى الخط لأنكم القوة ذات الوزن الحقيقي في كل الأحوال :
... كنتم تسيرون ... تسيرون لملاقاة الموت ..." (1)

ان أهمية الأرض في حياة الشعب الجزائري ، والفلاح بخاصة هي التي جعلت كتاب القصة بنوعيها الطويلة والقصيرة يولونها ـ أي الأرض ـ اهتماما متزايدا ، لأنها الهوية والانتماء ورمز البقاء ، ومبرر الوجود. لقد ذهبت في سبيلها الآلاف من قوافل الشهداء ، على نحو ما يظهر في الفقرة التالية من رواية " نهاية الأمس " :

" ايه ، أيتها الأرض
حدثني من يمر من الأجيال
ان الثمن كان أباهظا ،
وأن وجهك الطيب .
كان ذات يوم أحمر قانيا
بدماء الأبرياء .
حدثي من يأتي من الأجيال المقبلة .
أنك شربت من دماء أبنائك البررة

1ـ عبد العزيز بوشفيرات : رواية : نجمة الساحل .
شؤون ت الجزائر 1981 ص : 6

ما لا يدع العطش يمتد الى عروقك ،
أبد الآبدين ." (1)

وخلاصة القول ان اهتمام الرواية الجزائرية بموضوع الأرض لم يكن من قبيل المصادفة ، ولا وليد اتجاه من الاتجاهات الأدبية التي تظهر ثم تختفي ، عندما تقوم على أنقاضها تيارات أدبية جديدة ، بل ان الاهتمام بهذه القضية فرضته نضالات الفلاحين المستمرة ضد قوى الاحتلال الأجنبي . وأن الدور التاريخي للفلاحين قد ألقى ظلاله على كافة الأدب الجزائري بعامة ، والرواية بخاصة ، لأنها أكثر الأجناس الأدبية ارتباطا بالمجتمع ، ولأنها تتيح للكاتب - باطارها المتسع - فرصة المعالجة العميقة والشاملة لمجمل القضايا الانسانية . كما أن عناية الرواية الجزائرية بهذا الموضوع قد وضعها في مسارها الصحيح ، وساعد الروائيين أنفسهم على التعامل مع واقعهم الاجتماعي بصدق فني هادف وجاد نأى بكتاباتهم عن التهويمات الرومانسية السلبية التي لا طائل من ورائها .

1- عبد الحميد بن هدوقة : نهاية الأمس .
ش و ن ت الجزائر - ط 2 - 1978 - ص : 114

2- الاصـــــــلاح الـــزراعـــي :

ان الفلاح الجـــزائري - كما سبقت الاشارة- عاش حـــياة مأساوية، فكان يـــرزح تحت نير الاستعمار الفرنسي ووطـــأة الاستعباد الاقطاعي الذي امتنزف طاقاتـــه واستغل جهـــــوده. في ظلّ هـــذه الظـــروف الشـــاذة المفروضة علـــى الفـــلاح الجـــزائري فرضا، فلم يتمكن من الحفاظ على وجـــــوده الا بصعوبة بالغـــة. وكان الأمـــل الـــذي يتعلّـــل به هـــذا الفـــلاح دومـــا هـــو الحصـــول على أرضه التي اغتصبت منه اغتصـــابـــا، الاّ أن ذلك كـــان أمـــلا مستحيـــلا في خـــضم تلك الظـــــروف القائمـــة أساسا علـــى الاستـــغلال والقمـــع، والتـــي أجبـــرتـــه علـــى مغـــادرة أراضـــيه الخصيبـــة لصالح الأقـــاقين الأوروبيين، فكـــانت الثـــورة المســـلحة خـــلاصـــه الوحيـــد وأمله المنشـــود فلبّـــى نـــداءها. ولقـــد تحـــقق الاســـتقلال نتيجـــة لقتـــــال الفـــلاحيـــن المستميت، والذي مافتـــئ يغـــــذيه حبهـــــم الدائـــم لـــلأرض.

وكـــــان الاســـتقـــلال محـــط آمـــال الجمهـــور الفـــلاحيـــــن الذيـــن يشـــكلـــون الأغلبيـــة الســـاحقة في الأمـــة، والذين كانـــوا القـــاعدة العـــاملـــة خـــلال حـــرب التحـــرير، وقد حمـــلوا العـــبء الثقيـــل منها، ومن شـــأن الاستجابة لمصـــالحهم المـــــاديـــة

والثقافية وتحقيقها ... اعادة الاستقرار للأرياف التي دمرتها آلة الحرب الاستعمارية ." (1)

وفي 17 جوان من سنة 1971م ، توجت نضالات الفلاحين بصدور ميثاق الثورة الزراعية تحت شعار: " الأرض لمن يخدمها " . وتعدّ هذه الثورة " ضرورة اقتضتها حالة عدم المساواة في توزيع الأراضي . ولا يخفى أن هذا هو السبب الرئيسي في انخفاض مستوى المعيشة للجماهير الشعبية الريفية وعدم قدرتها على تحويل الأساليب الزراعية ومشاركتها في التنمية الاقتصادية للبلاد ." (2)

ومما لا شك فيه أن الاصلاح الزراعي قد زاد الى حدّ كبير من الحماس السياسي لدى عمال الأرض في نضالهم من أجل بناء دولة مستقلة عن كل تبعية أجنبية ، وأثرى نضالهم وحقق غايتهم ولبّى مطالبهم في القضاء على الاقطاع بصفة جديّة إلى الأبد . لأن فئة الفلاحين في الجزائر كانت تمثل الأغلبية في المجتمع وتحتلّ قاع السلم الاجتماعي فيه . وهو الشيء الذي استوجب " القيام بتوزيع عادل وفعال لوسائل الانتاج . وأولى هذه

1ـ ميثاق الثورة الزراعية . الطباعة الشعبية للجيش . الجزائر 1975م ـ ص :

2ـ المرجع نفسه : ص : 13

الوسائل الأرض ، وازلة العراقيل الموروثة عن حياة العهد الاستعماري البائد وتطبيق سياسة حقيقية لتجديد الريف " (1)

ومما لا شك فيه أن هذا الحدث السياسي قد ألقى ظلاله على الساحة الأدبية ، فحاول الأدباء استثمار ذلك التغيير الذي ما فتئ يتحقق في أعقاب الثورة المسلحة ، وحاولوا - جهدهم - التعبير عن المرحلة الجديدة برؤية بناءة جعلت بعضهم يسهم بجرأة في رسم ملامح المجتمع الريفي المتجدد بايجابياته وسلبياته ، ويشارك في عملية البناء الشاملة من خلال نتاجاته الابداعية ، " لأن الفنان لا يرسم الواقع كما هو مستقلا عنه ، وبلا مشاركة منه ، لأنه غير مكلف فقط بتقديم تقرير عن نتيجة المعركة ، بل انه واحد من المناضلين ، له نصيبه من المبادرة والمسؤولية ، وهو مطالب ككل انسان آخر ، لا بالاكتفاء بتفسير العالم ، ولكن بالمشاركة في تغييره " (2).

ان عالم الريف قد اهتزّ بثورة زراعية لا تقلّ أهمية عن ثورة التحرير ، بل انها تعدّ الامتداد الطبيعي لها ؛ وهو الشيء الذي دفع العديد من الروائيين الى التعبير عن ذلك التحول في بنية

---

1 - المرجع السابق : ص : 7

2 - ينظر : ابراهيم العافين : تطور الرواية العربية في بلاد الشام (1870 1967) - دار الرشيد للنشر . العراق 1980 - ص : 377

المجتمع الريفي في الجزائر، باغناء موضوعاتهم، سواء من تناولوا فترات سابقة للثورة الزراعية، مصوّرين شقاء الفلاح وأوجه الاستغلال التي كانت تمارس ضده، أم فترات لاحقة لها في ظل سيادة العمل التعاوني المنظم. ولعل الباحث يتساءل عن مدى قدرة الروائيين عن التعبير عن الواقع الجديد، أي هل ان نتاجاتهم التي تناولت الثورة الزراعية كانت في مستوى هذا الحدث، أو انها بقيت دون ذلك ولم تتمكن من استيعاب هذه المعطيات الظرفية الجديدة وتمثلها تمثلا فنيا، مقبولا ومقنعا؟

في فتـــرتي ، والتي قبلها باللغة العربية.
حوحو، الزاهري، الركيبي، ابن هدوقة، دودو، ونيسي، السعوي الخ ...
اننا كلنا من منبت ريفي، أو من قرى صغيرة تئن تحت ضغط الرؤيـــة الريفية للحياة. والى الآن - وعلى ما أعرف - فان انتاجنا لا يعكـــس سوى الانسان الريفي في صراعه مع الحياة، في انتصـــــــاره، أو في انهـــزامه..." (1)
ان ما ذهب اليه الطاهر وطار صحيح الى حد كبير، وهو يؤكد صحة رأينا. " ان الروائي - كما يرى ميشال يوكور - يبني أشخاصه، شاء أم أبـــى، علم ذلك أم جهله، انطلاقا من عناصر مأخوذة من حياته الخاصة..." (2)
لقد اتخذت الرواية العربية في الجزائر من أرض الواقع جذورها الخصبة فكانت عناية الروائيين بقضية الأرض نتيجة طبيعية للمعايشة الخاصة لها. وفي رأينا، هذا شيء طبيعي، " لأن البيئة التي يحيا فيها الفنان لها تأثيرها على نوع النتاج " (3) الفني الذي يقدمه ويبدعه.

---

1 - ينظر: مرزاق بقطاش: طيور في الظهيرة. ش.و.ن.ت الجزائر 1981 ص: 8
" كتب مقدمة هذه الرواية الطاهر وطار ومنها أخذنا النص المذكور أعلاه.
2 - ميشال يوكور: بحوث في الرواية الجديدة. ترجمة فريد أنطونيوس. منشورات عويدات. بيروت - لبنان. ط 1 - 1971 - ص: 64
3 - نبيل الحسني: منابع الرؤية في الفن. المركز العربي للثقافـــة والعلوم. بيروت - لبنان. 1981 - ص: 6

3 انتمـــاء الروائيين الى أصول فلاحية في النشأة الأولى :

لقد استند الاهتمام بموضوع الأرض في الرواية الجزائرية الى عامل ذاتي - اضافة الى العاملين السابقين - ويتمثل هذا العامل في انتماء الروائيين الى أصول فلاحية في النشأة الأولى ، أي انهم عايشوا حياة الريف ، ومن ثم استمروا في الارتباط به ، متناولين في رواياتهم عالم الأرض والفلاح ، تقودهم الى ذلك خلفية الانتماء الى هذا العالم الذي نقشته في ذاكرتهم السنون الخوالي التي قضوها في أحضانه ، فهم بذلك يكونون أقدر على التعبير عن هذه البيئة الريفية أكثر من غيرها من البيئات الأخرى - كالمدينة مثلا - لأن الكتّاب كما يرى جورج لوكاتش " أميل الى عرض صورة أمينة من الداخل للطبقة الاجتماعية التي ارتكزت فيها تجاربهم الخاصة " (1)

من هذا المنظور فان عامل انتماء الروائيين الجزائريين الى الريف في النشأة الأولى قد أدى دورا أساسيا في توجيه اهتمامهم الى قضية الأرض ، على نحو ما يظهر في قول الطاهر وطار: " ... وعدت أستحضر كل ما كتب ، من سن الطفولة الى اليوم ، وأيضا مشاريعي للمستقبل ، كما رحت أستعرض ممن كتبوا

1- ينظر ممدوح ايناس : مجلة المستقبل العربي . السنة الخامسة . عدد : 48 فبراير 1983 بيروت - لبنان . ص: 96

الرّواية وواقع الأرض

- صورة القرية في " ريح الجنوب " : (1)

ان الحديث عن الأرض في رواية " ريح الجنوب " يقتضي الحديث عن القرية. لقد حاول الكاتب أن يصور القرية بكلّ زواياها المادية التي تشغل جانبا من اهتماماته، فهي تكاد تمثل شخصية بأبعادها ودورها وتأثيرها في أحداث الرواية. فقد عمد الكاتب من خلالها الى رسم صورة أمينة واضحة لأنموذج القرية الجزائرية بعد الاستقلال، من خلال تصويره لشخصيات هذه القرية التي تعيش حياة مغلقة بعيدة عن كلّ تقدم وتطور، فالفقر هو النّغم الانساني الأكثر بروزا في هذه القرية، اذ جهدت الرواية في تصويره وبيان آثاره السيئة وأدانتها، والمتمثلة أساسا في سوء توزيع الملكية الزراعية، وهيمنة الاقطاع، وقساوة الطبيعة.

ان دارس رواية " ريح الجنوب " لا يجد في بيئتها ذلك الجمال الطبيعي الذي تغنّت به الرواية الرومانسية، ولا ذلك الهدوء الذي يثير الرؤى والأحلام الجميلة، بل إنها " كئيبة تغطي سماءها زوابع الغبار، وتتصايح في جنباتها رياح هوج، فاذا هي شهباء لهباء يستعر فيها الحر استعارا." (2)

لقد ساهمت هذه الطبيعة القاسية في اعطاء القرية جوّا جنائزيا كئيبا بتلك الريح التي يطلق عليها الفلاحون

---

1 - عبد الحميد بن هدوقة: ريح الجنوب. ش.(و. ن ت. الجزائر (د. ت). الطبعة الرابعة.

2 - المصدر نفسه: ص: 190

الجزائريون : (القبلي)، والتي تشكل نغما ثابتا في الرواية، وهو ما تؤكده الفقرة التالية:

" اذا تحركت ريح الجنوب، وكان الفصل صيفا، فان القرية المركزية تمثل للزائر الأجنبي مشهدا حزينا، يؤلم النفس والنظر، تشبه القرى التي تصورها عدسات المصورين بعد النكبات الحربية والكوارث الطبيعية." (1)

والملاحظ في هذه الرواية، أن الكاتب لم يكن ذلك الزائر الغريب عن القرية، ولا المتفرج المحايد ينظر الى الواقع من عل، بل انه ينتمي الى القرية. انه لا يقف من الظواهر الاجتماعية موقفا سطحيا، بل يغوص في أعماقها ليكشف لنا السر الكامن وراءها، والخلفيات التي تتحكم في سيرورة الحياة لهذا الواقع القروي الكئيب. بمعنى أنه عالج واقع القرية بأسلوب واقعي فيه كثير من الصدق الفني أكسب عمله هذا نغما انسانيا دافئا لصيقا بالقلوب، جعل مهمته الانسانية تطغى على بعض الثغرات الفنية التي سنأتي على ذكرها في القسم الخاص بالجانب الفني من هذه الدراسة.

لقد اتخذ الكاتب من هذه القرية الجزائرية مسرحا لأحداث روايته، وقد مهدت لهذا المكان ظروف العزلة والفقر، فهي قرية منعزلة عن التمدن وأشكال التفتح الفكري، وعن نمط العيش الرغيد.

1- م . س . ص: 75

ويؤكد السياق الروائي أن هذه " القرية فقيرة، سواء اتفق الناس أو (كذا) * اختلفوا، وأنها منعزلة عن كلّ شيء، سواء تفرقت بيوتها هنا وهناك، أو اجتمعت. ثم هناك ميزة أخرى لها، وهي أن معظم شبابها يعملون في فرنسا. أما مثقفوها فلا يكادون يعدون أصابع اليد، وهم بحكم عملهم لا يعيشون في القرية." (1)

والحقيقة أن هذه البيئة لعبت دورا هاما في تطوير الأحداث، وفي حياة الشخصيات وصراعها ضد القيم المختلفة لهذه البيئة، والظروف التي تمليها عليهم، كما سنرى.

لقد صور الروائي القرية بكلّ بنياتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والذي ظاهره على هذا التصوير هو اختيار فترة تاريخية محددة بالسنوات الأولى للاستقلال (2)، وهو عامل فعال ومؤثر في أحداث الرواية. فالقرية كانت قريبة العهد بالاحتلال الفرنسي كبقية أرجاء الوطن فهي ما تزال تئن تحت وطأة الجهل والفقر والاقطاع الذي كان لا يبرح، محافظا على كلّ امتيازاته المتمثلة أساسا في الأرض، من حيث هي وسيلة للعطاء الكريم.

ان الكاتب اتخذ الاتجاه الواقعي اطارا تدور فيه أحداث روايته، مما كان له أبعد الأثر في رسم معالم هذه الأرض اليباب، الظمأى الى اصلاح جذري يمسح عنها دموع الفاقة والحرمان.

---

* - الأصح أن تكون : (أم)

1 - الرواية : ص: 42

2- زمن الحدث الروائي يقع في سنة 1964

تبدأ الرواية بدايتها الفعلية بظهور الفتاة " نفيسة " - ابنة الاقطاعي - على مسرح الأحداث ، بعد عودتها من الجزائر العاصمة ، حيث كانت تدرس في جامعتها ، فتشعبت بقيم حضارية ، كالتنقل بحرية الى الجامعة ، أو دور الثقافة وغيرها ، تقابل من شاءت ومتى شاءت دون حواجز تمنعها من القيام بهذا السلوك أو ذاك ، والذي أصبح من البديهيات التي لا تناقش . أما في القرية فتنعدم حرية المرأة عمليا ونظريا . فقد تعارف الناس فيها منذ القدم ، على أن المرأة أو الفتاة البالغة لا يحق لها الخروج من البيت ومغادرته الا في مناسبات محدودة جدّا ، كالأعياد والزواج وزيارة المقبرة رفقة أنيس يحميها ، أي أن الفلاحين شديدو المحافظة على التقاليد الموروثة ، وعلى ضوئها يسيرون ، وهذا ما لم تستطع نفيسة أن تتقبله ، وراحت تثب الى ذهنها عدة تساؤلات : " لماذا الخروج هنا عيب وهناك لا ؟ أهنا مسلمون وهناك ملحدون ؟ أم ان المرأة تتبدّل حقيقتها من مكان الى مكان . " (1)

فكم كانت المفارقة مؤلمة لهذه الفتاة المثقفة عندما راحت تقارن بين الحياة في قريتها ، وبين المدينة التي غذّتها بقيم ثقافية متطورة . ان هذا العالم المتفتح - عالم المدينة - يصبّه الروائي في عالم ضيق هو عالم القرية ، ومن هنا تبدأ

---

1 - م . س : ص : 38

بوادر الصراع تعتمل في نفيسة - الشخصية المحورية - صراع البالي الرث، والجديد المستحدث، صراع الريف والمدينة بقيمها وظروف الدراسة المثيرة لدواعي الحيوية والتفتح المتجسدة في البطلة.

يبدأ الكاتب روايته حين يرمي ببطلته، وهي بهذا الشكل المشتعل في أحضان القرية الجامدة، مما يثير في نفسها هواجس القلق والاضطراب الناجم عن رفضها للثابت، أي حياة القرية الفقيرة وتطلعها الى المتحرك، عالم المدينة الزاخر بالحيوية والنشاط، وهذا ما يعبّر عنه قولها:

" لا أستطيع أن أنام، ليتني نمت حتى تنقضي هذه الشهور... كلّ شيء يحرم الخروج، حتى الشمس! ... لكن أي فائدة من الخروج الى الخراب؟ أظن أن القنابل الذريّة التي يتحدثون عنها لا يمكن أن تجعل مكانا أشد خرابا من هذه القرية... الصمت، الصمت، أكاد أجن من الصمت. قد تكون يقظة الموتى في أجداثهم تشبه يقظتي هذه. " (1)

عبرت نفيسة من خلال هذا المونولوج الداخلي عن همومها الذاتية، مطلقة أنات محمومة لتكشف عن واقعها السيء بهذه القرية التي شعرت فيها بأنها مسلوبة الارادة والرأي، كما أنها ضاقت ذرعا بمصادرة حريتها في قرية أقلّ ما يقال فيها انها تعيش خارج حدود الزمن. ان هذا الارتطام الذي وقع داخل نفيسة - البطلة - بين نمط الثقافة المكتسب في

1- م. س : ص: 8

المدينة، والموروث الشعبي الذي يسيطر على سكان القرية، هو مصدر القلق والاغتراب اللذين تعيشهما البطلة وتعاني من وطأتيهما. ان وعيها هو جحيمها، وهو الذي تتجدد على ضوئه سلوكاتها في الرواية. فهي تدرك دورها في المجتمع، ومع ذلك لا تقوى على التحرك، لأنها ارادة مشلولة وطاقة معطلة، بسبب الكتل الضخمة من التقاليد التي تعترض طريقها. فهي عندما تتمرد، يأتي تمردها فرديا وذاتيا لا يتعدّى في كثير من الأحوال أن يكون رومانسيا لا طائل تحته. ويمكن أن نقرأ الحوار المثير بين نفيسة وأمها، لنكشف من خلاله بعض جوانب الصراع بين المدينة والقرية:

" قالت الأم : " نفيسة! تبكين ! مالك يا عزيزتي؟... هل أنت مريضة؟"

فقالت : " لا، لا... أحست بضيق لا أكثر... ربما الحر هو السبب."

"- أبين أبويك وأهلك يا نفيسة؟ ... "

فردت على عتاب أمها قائلة:

"- آه. لست أدري كيف أشرح لك ما أشعر به يا أماه ! "

"- قومي... اغسلي وجهك واطردي عنك هذه الوساوس يا بنيتي ... لو كنت تصلين يا نفيسة لما شعرت بهذا الضيق ... "

"- من الفتاة التي تصلّي وهي في سني ؟ "

نظرت الأم الى ابنتها في شيء من الاستنكار... وقالت في نفسها :

"- ان الفرنسية التي تعلمتها ستحيد بها لا محالة عن الطريق السوي."

قالت نفيسة في نفسها بغضب :

"- الصلاة... لا يعرفون الا الصلاة والموت، أما الحياة فهي من وساوس الشيطان ... لا أصلي. " (1)

---

1 - الرواية : ص: 10، 11، 12

بهذا الحوار جعلنا ابن هدوقة نتحمس بعمق ويقين طبيعة تكوين نفيسة، فنستدلّ من خلاله على حقيقة البواعث النفسية والشعورية التي تحكّمت في تحديد موقفها مما قالت أمها.

لقد رفضت ما قالت الأم، محاولة التعبير عن حريتها المخنوقة في أبسط صورة على الأقل. رفضت الصلاة، لأن القرية هي التي أمرت بها على لسان أمها. لقد بدأت القرية تحد من أحلام نفيسة، ومن انطلاق أفكارها، لأن تقاليدها القاسية تضرب أسوارا منيعة بينها وبين أفعالها. فمن هنا بدأت تنمو في نفس نفيسة بوادر التمرد على القرية، يمليه عليها نمط الثقافة المكتسب في المدينة، والذي يعكس بدوره مدى التخلف الذي يثقل كاهل القرية. ان عملية ارسال نفيسة الى العاصمة احتوت في داخلها خطورتها، خطورة الابتعاد عن الواقع، واقع القرية، عن طريق المقارنة غير المتكافئة، خطورة الاطلاع على حياة متقدمة، ثم العودة الى نمط متخلف من الحياة. هذه المقارنة دفعت البطلة الى الابتعاد عن الواقع في القرية، والانعزال عنه في قريتها.

ان الشخصية الاستقطابية في الرواية، وهي نفيسة، كثيرا ما كانت تهرب من واقعها المأسوي الى عالم مثالي تنشده في الخيال، عالم مطلق لا حدود له، تنقلها اليه أنغام الراعي "رابح" عندما تتأزم حالتها النفسية وتعجز عن التكيف مع الظروف الطارئة التي تمليها القرية:

"راحت تصغي الى الأنغام وتبحث في أعماقها عما تعبّر عنه، وأنسيت في نفسها، في حجرتها الضيقة، في "منفاها" في الصلاة" التي لامتها عنها أمها ... أنسيت في الجزائر وشوارعها الطويلة الملتوية ... أنسيت في المكان والزمان، وحلقت بها الأنغام في سدم عليا لا آفاق ولا حدود ..." (1)

ان هذا النغم في "ريح الجنوب" يمثل هروب نفيسة من مجابهة الواقع الريفي الكئيب، والعجز عن التكيف معه. انه يمثل انعتاقها الوهمي من سجن التقاليد والمواضعات الاجتماعية في القرية التي تهيمن عليها أخلاقيات اقطاعية بائدة، واذا "كانت نفيسة تمثل البرجوازية الصغيرة بحكم فكرها أولا، ثم حياتها في المدينة وثقافتها، فان الموسيقى الشعبية في "ريح الجنوب" تصبح في هذه الحالة، بالنسبة لهذا القطاع الواسع من البرجوازية، ملاذا لأحلامها ورؤاها الرومانسية، وذلك عندما تعجز عن تحقيق مثلها الفردية المستحيلة التحقيق في الواقع، وتقف عاجزة أمام ايجاد حلّ لمشاكلها." (2)

ان أول من يحس بمأساة القرية ومعاناتها هي نفيسة، عندما عادت من جامعة الجزائر، حيث اكتسبت فيها قيماً متطورة ونمطا ثقافيا متبلورا يعكس مدى التطور الحضاري والعمراني الذي استفادت منه المدينة، وما يحدثه ذلك في نفسها من عدم استقرار

1- المصدر السابق: ص: 14

2- د/ عبد الحميد بورايو. مجلة آمال. السنة العاشرة. ع / 51 - 52
الجزائر. ص: 9

واضطراب نتيجة أصطدامها بقيم رثة بالية، تدلّ على أن أصحابها يعيشون خارج حدود الزمن، أو هم البقية الباقية من العهود البدائية، كما عبرت عن ذلك نفيسة:

" كلّ الطلبة يفرحون بعطلهم، أما أنا فعطلتي أقضيها في منفى..." (1)

ان الكاتب يهدف من وراء معاناة بطلته الى الكشف عن مدى التباين الحضاري الكبير بين الريف والمدينة التي استفادت من شروط التمدّن والتطور على عكس الريف الذي كان لا يزال يرسف تحت أغلال الفقر والحرمان والجهل. فالقرية كما عبرت عنها الرواية لم تذق طعم الحرية، ولم تشهد أي تطور يذكر، وساكنوها من الفلاحين الفقراء ما يزالون يعيشون في ظلمات القرون الوسطى، كما جاء على لسان احدى الشخصيات في الرواية:

" يا للمأساة! اننا نعيش في القرون الوسطى!" (2) في ظلّ هيمنة الاقطاع الذي يحتكر وسيلة الانتاج الأساسية في الزراعة، وهي الأرض - المحور الدرامي في الرواية - . هذا الاقطاع يجسده عابد بن القاضي - الشخصية النمطية -

" كان اقطاعيا الى حد ما، لامتلاكه نصف ما يملك العرش" (3)

والجدير بالذكر أن الفلاحين في القرية واعُون بفقرهم، مدركون لأسبابه، أي أن الكاتب لم يجرّد قريته من وعيها الطبقي،

---

1 - الرواية: ص: 10

2 - م . ن . : ص: 155

3 - م . ن : ص: 224

ويظهر لنا ذلك من خلال محاورة دارت بين أحد الفلاحين والاقطاعي :

" قال الفلاح :

"- أنت والاشتراكية أعداء، نعرف هذا لأنك تخاف على أرضك أما نحن الذين لا نملك شيئا ، فلا نخاف الاشتراكية ولا غيرها ."

فقال له ابن القاضي في غضب مكظوم :

"- كلّ الناس يعرفون أنك لا تخاف من أي شيء، لا من الحكومة ولا من الله ."

فرد الفلاح :

" - يخاف من الحكومة السارق ، وأنا لست سارقا . ويخاف من الله المذنب ، وأنا لست مذنبا . " (1)

ويمكن أن نقرأ حوارا مماثلا بين نفيسة - ابنة الاقطاعي - وبين العجوز - صانعة الفخار - في المقبرة :

" قالت نفيسة متسائلة :

"- لماذا لا يقيمون سياجا حول المقبرة . وهكذا تصان من كل شيء ."

فأجابت العجوز بابتسام حزين :

"- ايه يا بنيتي، ان الناس لم يستطيعوا صيانة دورهم وبساتينهم ، فضلا عن المقبرة . "

فقالت نفيسة :

"- من الشح ! "

فردت العجوز :

"- من الفقر ! " (2)

1- م . س . : ص : 187

2- م . س : ص : 21

وخلاصة القول ان القرية في " ريح الجنوب " هي النقطة المحورية التي توجه الأحداث ، ونقطة الارتكاز فيها . ولقد ألقت بظلالها على أحداث الرواية . ومن خلالها تطرح قضية الأرض وأوجه العلاقات الاجتماعية التي ما تزال تحكمها أخلاقيات اقطاعية ، وأخرى غيبية .

ان " ريح الجنوب "تبصر بالواقع الريفي في حركته وتعي بما يصطرع في صدره من عوامل دفع وتكوين .
لقد تعامل عبد الحميد بن هدوقة مع قريته بصدق فني ، وهو ما أكسب الرواية بعدا واقعيا ، ينمّ عن التحام ذات الأديب بموضوعه في هذا العمل الأدبي ، الذي يهدف الى رصد عملية التغير التي تكمن خلف الرتابة السطحية لحياة القرية .

الأرض محور الصراع في الرواية:

لعلّ العناصر الأساسية التي تستقطب الأحداث وتفرزها في رواية " ريح الجنوب " هي مالك ونفيسة وعابد بن القاضي - رجل الاقطاع في القرية - ومن خلال تصارع هذه الشخصيات وتباين اهتماماتها يستمد موضوع الأرض جذوره وأبعاده.

ان الحدث المحوري الهام الذي يقوم عليه الصراع هو محاولة تزويج نفيسة من مالك الذي يمثل الانتماء الحقيقي الى الأرض والفكر الواعي الذي يربط بين ماضي الثورة وحاضرها. ان مالكا - كما تصوره الرواية - هو من خيرة أبناء القرية، اذ انه خرج من صلب الثورة التحريرية واكتوى بنارها، مثل بقية المناضلين النزهاء. لذلك فهو لم يغادر القرية ايمانا منه بضرورة تغيير وجهها المزري تغييرا جذريا، يمسح عنها دموع الفاقة والحرمان، يكون لصالح الفلاحين الفقراء الذين كان يستغلهم الاقطاعي استغلالا بشعا. من هنا كانت تنبع كراهيته لابن القاضي، وهو ما يوضحه قوله عبر هذا المونولوج الداخلي:

" ما أشد حقده على العمال! انه لو استطاع لأكل لحومهم وشرب دمائهم. كيف يتصور المرء بعد سبع سنوات من دماء ودمار ما زال هناك من في نفسه على الناس، على الأبرياء كل هذا الحقد. ان الثورة لم تنته، بل الحرب لم تنته ما دام يحيا على هذا التراب المسقي بدماء الأبرياء أمثال هذا الرجعي البدائي. " (1)

1- الرواية : ص: 183

ان مالكا طرف مهمّ في عملية الصراع - كما أسلفنا - ويعدّ القطب المناقض لعابد بن القاضي - الملاك العقاري الكبير في القرية.

وابن القاضي كما ترسمه ريشة ابن هدوقة، شخصية اقطاعية متمرسة في الدهاء والمكر، وهو لا يتورع في استخدام الحيل والمراوغات في سبيل الحفاظ على أراضيه، التي لا يسود أبدا أن تخرج من حيازته وبسمعة لا يرضى أن يلحقها الزيف" (1). لقد كان يتحايل ابّان الثورة التحريرية ويراوغ من أجل التقرب اليها، حيث يقدم ابنته زليخة خطيبة لمالك، ويقدم المساعدة المالية للمجاهدين، لكنه يتحالف خفية مع الفرنسيين للحيلولة دون نصرة الثورة، مقابل الحفاظ على مكاسبه الطبقية في المجتمع.[2]

من هذا المنظور، يعدّ عابد بن القاضي الشخصية المناقضة جوهريا لمالك. ان الاقطاع - في نظر المؤلف - خائن مارس الخيانة، حيث تواطأ مع الاستعمار ضد سكان القرية، وهو يحاول ممارستها بعد الاستقلال. وان كان شكل الممارسة يختلف تبعاً لما تتطلبه المعطيات الظرفية المستجدة، ولما تقتضيه مصالحه الطبقية في ظل تطورات الأحداث الراهنة. ويبدو ان الروائي قد وفّق الى حدّ كبير في رسم هذا النموذج البشري، حيث جعله " من ذلك النوع المرائي الذي يلبس القناع ويخفي نواياه الحقيقية. فهو يستعد لأن يحتفل مع الناس بأولئك الشهداء الذين سقطوا دفاعاً عن الوطن، ولكنه في قرارة نفسه لا يؤمن بذلك، ولا يهتم سوى بمصالحه التي يخفيها تحت هذه التصرفات." (3)

---

1 - المصدر السابق : ص: 48

2 - ينظر: سعيدي محمد: الشعب الأسبوعي. الجزائر. ع 18 - 8/11/1975 ص 12

3. عبد الله الركيبي : تطور النثر الجزائري الحديث (1830 - 1974) :ص: 208

ويلاحظ أن عابد بن القاضي كان ينظر الى أسرته نظرة الاقطاعي المستبد الذي يملك زمام الأمور وحده، دون مشاركة حتى أقرب الناس اليه وهي زوجته (*) . وهو ما يؤكده قول نفيسة:

- " ... أبي هو مالك مستقبلي. أبي الذي أعطاني الحياة. أبي مالك حياتي أولا وأخيرا ... حتى الدموع لا يصلح أن تسيل على حياة ليست لي... أبي يملك حياتي وحياة أمي ... " (1)

ومن مظاهر استبداد الاقطاعي محاولته تزويج ابنته من مالك دون استشارتها أو طلب رأيها في القضية، - باعتبارها المعنية بالدرجة الأولى - كما يظهر من خلال هذه المقطوعة الحوارية:

- قالت الأم : - " في الخريف لن تعودي الى الجزائر."
- فأجابت نفيسة بدهشة: -" ودراستي ؟ "
- " أبوك أراد ذلك. لن تعودي الى الجزائر."

.....

- " أبوك يعتزم تزويجك." (2)

ولعل هذا الزواج الذي كان ابن القاضي يعمل على اتمامه، لم يكن حبّاً في مالك ولا في ابنته نفيسة، بل ان الباعث الأساسي لهذه المحاولة هو الخوف على مركزه الاجتماعي والاقتصادي من الأفول " ذلك أن الاشاعات التي كانت قد بدأت تروج منذ صدور القرارات المتعلقة بالتسيير الذاتي حول الاصلاح

(*)- تؤكد معطيات الرواية أن زوجة الاقطاعي لم يكن لها دور في الحياة سوى انها تتفيء ظل زوجها.

1- الرواية: ص: 217

2- المصدر نفسه : ص: 85 ، 63 ، 78

الزراعي (*) قضت (كذا)* مضجعه وصارت منشأ همومه ومحلّ تفكيره الدائم" (1). لقد وجد الاقطاعي في ابنته الخلاص الأمثل وقارب النجاة الذي يبعد عنه هاجس الخوف والقلق، أي ان غاية ابن القاضي من وراء "هذه المصاهرة هي أن يكون مالك حاجزا بينه وبين الحكومة فيما تفرضه عليه من ضرائب أو تأخذ منه من أراض." (2).

ويبدو أن المؤلف كان يهدف من وراء عرض هذه الحادثة - وتفصيل القول فيها - الى ادانة الملاكين العقاريين وكشف ألاعيبهم، تلك التي كانوا يهدفون من ورائها الى احباط مشروع الاصلاح الزراعي ونسفه من الأساس، لأن هذا المشروع جاء ليعيد الاعتبار لعمال الأرض ويضع حدًّا لهيمنة الاقطاعيين الذين كانوا يمارسون نفوذهم بشكل سافر، يضطهدون الفلاحين ويسلبونهم حقوقهم. ولعلّ غاية الارستقراطية من هذه الممارسات هي أن يبقى المجتمع على حال من الثبات والجمود، وهو الضمان الوحيد - في نظرها - لبقاء الأرض والسيادة والنفوذ الاقطاعي.

(*)- ان رواية "ريح الجنوب" لا تعالج موضوع الثورة الزراعية، كما يذهب الى ذلك كثير من دارسي الأدب الجزائري المعاصر، ومن بينهم الدكتور عبد الله ركيبي في كتابه: (تطور النثر الجزائري الحديث)، وانما تعالج قضية الاصلاح الزراعي الذي ظهر سنة 1963، بدليل ان تاريخ الحدث الروائي نفسه يقع في سنة 1964

(*)- الأصح أن تكون: (أقضت عليه مضجعه...).

1- المصدر السابق: ص: 7

2 - المصدر السابق: ص: 220

من هذا المنظور تعدّ الأرض المحور الدرامي في الرواية. ان الأرض مصدر العذاب وعنوان الكرامة ومبرّر الوجود بالنسبة لعابد ابن القاضي، وبدونها تنقطع عرى الاتصال بالحياة. "ان مصير الملكية رهيب بالنسبة للملاك، وهو واحد منهم. فاذا لم يبتغ الوسائل الكفيلة بالحفاظ على أرضه من الآن فستضيع منه، وحينئذ أي معنى يبقى لحياته. حياته التي تستمدّ كل قواها من هذه الأرض التي بين يديه..." (1)

لعلّ هاجس ضياع الأرض هو الذي دفع بابن القاضي الى محاولة التقرب من مالك - على الرغم من وجود حقد دفين بينهما - "وهمه الوحيد من كل هذا الجهد هو محاولة الحفاظ على أملاكه المختلفة" (2) اذ لو لم يتوجس الاقطاعي من مشروع الاصلاح الزراعي خيفة ما كان له أن يفكر في تزويج ابنته من رجل لا ترغب فيه البته. "ان ابن القاضي لم يجد وسيلة للحفاظ على أراضيه ومواشيه سوى امتلاك مالك، الشاب الثوري، بتزويجه من نفيسة." (3)

---

1 - ينظر: المصدر السابق: ص: 91

2 - ينظر: د/ محمد مصايف: الرواية العربية الجزائرية بين الواقعية والالتزام - الدار العربية للكتاب ليبيا - تونس 1983 - ص: 185، 186

3 - زهير محمد علاف: الشخصية في روايات ابن هدوقة - بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة بمعهد اللغة والأدب العربي - جامعة وهران - ص: 14

دلالـــة النهايـة في " ريح الجنـوب " :

تؤكد معطيـات الرواية أن محاولات الاقطـاعي لصد رياح التغيير فـــي القرية قد ذهبت أدراج الرياح وباءت مساعيه بالفشل . لقد أصـــيب بضربة قاصمة في صميم وجوده حين رفضت ابنته الانصياع لأوامـــره ، والمتمثلـة أساسا في امتناعها عن الزواج مـن مـالك . وفـي رأينـــا فإن رفض البطلـة هذا يدخل في صميم التغيير الذي ما فتئ يعتمـــل في رحـم المجتمع القـروي في سـنوات الاستقـلال . انها عمليـــة الانسـلاخ الرهيب من مخلفـات الماضي . لقد شعر ابن القاضي بخطـورة الموقـف ، وعـدّه تحديا لسلطته وانتهاكا سافرا للمواضعات المتعـارف عليها في القريـة ، الأمـر الذي جعلـه يواجـه قرار ابنته بالرفض والتحدي حيـن قال لزوجتـــه :

" ـ أنا قـررت أن تتـزوج وقـراري قضـاء " (1)

ولعلّـه " من الطبيعـي أن تجـد الطبقـة الاقطاعية في التمسك بالماضـــي الموروث وبالتقاليد سـندا لها في صراعها ، وأن تكون الثورة علـــى الماضـي والدعـوة الى الحـرية الفرديـة ، ومواجهـة الواقع ، أسلحـة في صـراع البرجـوازية (الصّغيرة) ضـد الاقطـاع وعسفه وتحكمه " (2)

لقـد شعـرت البطلـة بأنها مسلوبة الارادة والـرأي . الأب يتدخـــل في كلّ شـأن من شـؤون حياتها ـ حتى في الزواج ، المصير النهائي لكـل فتـاة . وفي رأينـا أنّ أزمـة البطلـة هذه تعكس لنا مـدى الظلـــم الاجتماعي الذي كانت تعانيـه المرأة فـي الريـف ، فهـي كائن مضطهـد

1ـ المصـدر الـسـابق : ص 90

2ـ عبد المحسـن طـه بدر : الروائـي والأرض . ص : 19

مسحوق ومعطل وممزق . واذا كان اضطهاد المرأة جزءا أساسيا من اضطهاد الفلاحين في الريف ، فان حلّ مشكلة المرأة - كما يقترحه السياق الروائي - مرتبط ارتباطا جوهريا بتحرير القرية من سيطرة الاقطاع وظلمه وعسفه. لقد حاولت البطلة كسر القيود الاقطاعية المتخلفة التي ترين على الريف من خلال رفضها مشروع الزواج المفروض عليها فرضا . ولعلّ " الخلاف بين نفيسة وأبيها ليس خلافا خاصا بعائلة ابن القاضي ، بل هو صراع يشمل حياة المجتمع بصفة عامة ، وحياة الريف بصفة خاصة. " (1)

وينتهي الصراع في الرواية بفرار نفيسة من القرية . ولعلّ هذا الفرار يأتي دليلا على فشل مخططات عابد بن القاضي في الحفاظ على أرضه . إن هروب البطلة من بيت أبيها يمثل أعلى مراحل الرفض ، كما أنه يعني من جهة أخرى بداية اهتزاز سلطان الاقطاع في الريف . ويبدو أن موقف نفيسة جاء نتيجة حتمية لما تلقته من مفاهيم متطورة للحياة وما اكتسبته من حس حضاري - في المدينة - وأساليب جديدة لا عهد لأبيها الاقطاعي بها . لقد خضعت بفضل ثقافتها لعملية تغيير جذرية لدرجة تشكلت بينها وبين أبيها عداوة كبيرة ، وبخاصة عندما أدركت تفاهة ألاعيبه ، وهددت بالزواج من شخص لا تعرفه هي ، وغير مستعدة للتواصل معه .

---

1 - محمد مصايف : دراسات في النقد والأدب . ش و ن ت . الجزائر 1981 ص: 182

أبعاد الأرض بالنسبة للشخصيات في " ريح الجنوب " :

تشكل الأرض جانبا متفرعا بين الشخصيات وكل جانب له مغزاه في الرواية. ومنه فأرض القرية بالنسبة الى نفيسة هي مستوى التأزم وقمّة المعاناة. ففي نفيسة تلتقي أوجه المكان المختلفة أي بين حيوية المكان وثباته، بين سكونه وحركته، فهي تجمع بين ذكريات الشارع المزدانة ببهرجة المدينة وأزقة القرية الموحشة بدواعي الثبات، وهذه تشكل صدمة الانكسار النفسي على أبواب مكانية متعددة اقتضتها ظروف القرية وعاداتها، كبيئة طارئة تشكل هالة باعتبارها مكانا ماديا ثابتا، " فالشارع هو صحراء المدينة وجزؤها الزمني وحياتها الدائبة المتحركة ولولب بعدها الحضارى، لامتداده طاقة على مدّ الخيال، ولانعطافاته تحولات في الزمان والمكان ... لساكنيه حرية الفعل وامكانية التنقل وسعة الاطلاع " (1)

فهذه الحرية وهذه السعة هما اللتان خمدت شعلتهما المتوقدة في البطلة، فأصبحت فريسة لتآكل الثابت المكاني، ولسع السكون الزماني. تقول نفيسة:

" الصمت، الصمت. أكاد أجن من هذا الصمت... أكاد أختنق من هذا السكون وهذا الصمت. أمي فرحت برجوعي ... مسكينة أمي، لو عرفت الجزائر لبكت لرجوعي. " (2)

---

1 - ياسين النصير: المكان في الرواية. مجلة آفاق عربية. العراق السنة الخامسة. ع 8 - أبريل 1930 - ص: 93

2 - الرواية : ص: 8

فتعامل الكاتب مع بطلته وهو يكن لها هذا الغياب المكاني، وحين يرمي بها في أحضان القرية تنفجر كوامن هذه الطاقة في نفيسة التي تحاول الخروج من مأساتها بالحركة. غير أن جُملة حركاتها تنتهي بها في نهاية المطاف بالاستسلام للثابت المتجسد في المكان والزمان والمعتقدات السائدة بالقرية، أي أن ثورتها انتهت نهاية مأساوية كانت منتظرة.

وانطلاقا من هذه المعطيات تكون نفيسة انما تمثل " نمط المثقفين المنفصلين عن قضايا مجتمعهم، والذين كانت الثقافة لهم حجابا عن المجتمع بدل أن تكون بابا اليه. وكيف تطور هؤلاء المثقفون مبتعدين عن الواقع وهم يحسبون أنفسهم يتقدمون باتجاه التغيير تغيير أنفسهم، وتغيير المجتمع، بينما هم في حقيقة الأمر ينتكسون ." (1)

والحقيقة أن نفيسة تعكس صورة الفتاة البرجوازية الضعيفة الشخصية التي لا تتغلّب على ما يقابلها من صعاب الا بالهروب من الواقع الى الخيال هروبا رومانسيا لا يغيّر من واقع الأمر شيئا.

لقد حاولت الشخصية المحورية في الرواية التغيير انطلاقا من فرديتها، وبمعزل عن المرأة المقهورة في الريف، فأخفقت اخفاقا ذريعا لأنها لم تراع ظروف المرأة في القرية ولم تحاول التقرب منها، وتفهم أسباب وضعيتها المأساوية، بل احتقرت المرأة

---

1 - محمد كامل الخطيب : الرواية والواقع . ص: 8

في قريتها من خلال احتقارها لأمها وللعجوز رحمة - رمز الثقافة الشعبية في الريف. تقول نفيسة:

" مسكينة هذه العجوز الطيبة. انها لا تدري أنني لا أريد أن أكون مثل أمي ... " (1)

ان نفيسة لم تحاول معالجة مشاكلها بالحكمة الواقعية معالجة موضوعية تتناسب وثقافتها التي اكتسبتها في المدينة، وهذا هو مصدر قلقها واضطرابها واخفاقها في نهاية المطاف. ان اخفاق نفيسة في ثورتها يعني بالضرورة فشل أبيها الاقطاعي في محاولة الابقاء على أراضيه. كيف لا، وهو الذي كان يهدف من ورائها الى الانفلات من قبضة الاصلاح الزراعي.

أما الأرض بالنسبة لمالك، فهي الخلاص والتحرر والخروج من الحرمان والتسول المقنع بالاستغلال تحت رحمة الاقطاع الذي أنهك القرية وأتعب الفلاحين. فشخصية مالك - شيخ البلدية - تحمل مفاهيم مبثوثة عبر الرواية تنمّ عن ارتباطه الواعي بالأرض. فالاصلاح الزراعي بالنسبة اليه هو السبيل الوحيد (2) لاخراج القرية من التخلف وانقاذ عمال الأرض الفقراء من استبداد عابد بن القاضي.

والأرض بالنسبة للعجوز رحمة هي أرضية الابداع الشعبي. فالطين هو المادة التي تمثل طواعية التشكيل في العديد من الأواني الخزفية

---

1 - الرواية : ص: 33

2 - ينظر المصدر نفسه : ص: 206

فمثلت العجوز بهذه الأواني سر الصناعة الابداعية. وكانت جوانب الأواني التي صنعتها مزدانة بالرسوم، فعبرت بواسطتها العجوز عن تاريخ أحداث القرية، وما عرفته من جدب واخصاب وقحط ومرض. تقول العجوز لرابح - الراعي - عندما سألها عن معنى الرسوم التي تزين جنبات الأواني :

- " انظر... هذا الرسم هو السنة القاحلة، أرأيت؟ انها سوق الزرع بلا سنابل. وهذا الشكل هو " ريح التركة " (*). أرأيت هذه الشمس المظلمة التي لها مخالب؟ هي المرض يا بني، وهي الموت الذي خرّب بيوتنا... " (1)

فكأن العجوز رحمة كانت تبعث برسومها الجو الميثولوجي المتمثل في المهرجانات الدينية المعبّرة عن الوضع الزراعي الأول، "إنها الفنان المنبثق من بين جماهير الفلاحين في القرية تعبر عن ارتباط هذه الجماهير بالأرض وعن أصالتها وعن كونها، تمثل امتداد شعب عريق ذي ماض حافل بالثورة." (2)

أما الأرض بالنسبة لعابد بن القاضي فهي حلقة الوعي الاقطاعي الذي شكل جوهر الصراع، واستقطب معظم الشخصيات في الرواية، فرابح الراعي، ومالك ونفيسة هم وقود هذه الثورة ضد مفهوم الأرض الخاطئ الذي يمثله عابد

(*)- التركة = التفيس.

1- المصدر السابق : ص: 129، 130

2- د/ عبد الحميد بورايو: توظيف التراث الشعبي في بناء الرواية الجزائرية - مجلة آمال - السنة العاشرة. ع51 / 52 - ص: 10

ابن القاضي الاقطاعي في عنجهيته المستغلة، وتشكل جوهر الصراع مع مالك بوجه خاص. لقد انتهت سيطرة الاقطاع على الأرض عندما فقد سيطرته على المرأة ممثلة في نفيسة. ولعلّ النص التالي يعكس بعض ما نزعم:

" ها هي ذي الأرض التي كافح عليها طوال حياته تخرج من يديه وتصبح ملكا مشاعا بين " أعداء الأرض " - كما يسميهم ... تصبح ملكا مشاعا بين شراذم الفقراء وسكان المقاهي ... " (1)

ونستخلص من كلّ ما سبق أن السياق الروائي هنا، يؤكد على النهاية الحتمية للاقطاع - باعتباره نظاما تجاوزه التاريخ - . ان السلوكات التي كان يسلكها عابد بن القاضي، قصد الحفاظ على مكاسبه الطبقية، انما تحمل في طياتها أسباب موته واندثاره.

ولعلّ النهاية الدرامية التي انتهت اليها الرواية تمثل بداية اهتزاز صورة الاقطاع في نظر الفلاحين، وهي بداية السقوط والانهيار.

وقد عالج ابن هدوقة قضية الأرض برؤية واقعية بناءة، نابعة من تعامله الصادق مع موضوعه، ونابعة أيضا من استيعابه ووعيه بالواقع الاجتماعي في الريف الجزائري

1- ينظر: م. س. : ص: 255

قبل تطبيق قانون الثورة الزراعية:

لقد تنبأت رواية " ريح الجنوب " تنبؤا صادقا بحدوث نظام جديد للأرض ، يبشر الفلاحين بمستقبل أفضل ، هو قانون الثورة الزراعية التي جعلت في مقدمة اهتماماتها القضاء على الاقطاع . " وهكذا فان العمل الفني الواقعي يوجه دائما الى الأمام، الى المستقبل ، خالقا في بنيته ذاتها حركة بالاتجاه التقدمي ، اتجاه ارتقاء العالم والانسان ." (1)

1- هوريست ريديكر: الانعكاس والفعل . ديالكتيك الواقعية في الابداع والفن . تعريب: فؤاد مرعي .
دار الفرابي . بيروت 1977 - ص: 117

الأرض في رواية : " نجمة الساحل " : *

يحاول المؤلف في رواية " نجمة الساحل " معالجة واقع الفلاحين الجزائريين باحدى المزارع المسيرة ذاتيا في السنوات الأولى من الاستقلال . وتدور الأحداث في قرية ساحلية هي قرية أشواط شرق مدينة جيجل .

ان الأرض هي النواة الناسجة لمضمون الرواية ، والقضية الرئيسية فيها . فبالأمس القريب سالت من أجل هذه الأرض " ... دماء فقراء الفلاحين ... وقتها بترت أيدي العمال المسحوقين " (1) . ولقد عاش المعمرون منعمين بفضل سواعد عمال الأرض - الذين حرموا من أراضيهم الخصيبة وبفضل نضال هؤلاء العمال المستميت ، وايمانهم بالمستقبل المشرق تحررت " ... الأرض ... التي راق من أجلها الدم ... لقد ... عادت تنتج بأيدي الفلاحين الغارسين ... " (2) وهاهم الفلاحون بعد الاستقلال يجدون أنفسهم يعملون في احدى المزارع المسيرة ذاتيا ، و " ... يغنون لنجمة الساحل حلما ترسل الشمس خيوطها الفضية ايذانا بالمغيب ... " (3) . انه مغيب ليل الاستعمار الذي أرهق الشعب الجزائري عامة وسكان الأرياف بشكل أخص .

(*)- عبد العزيز بوشفيرات : نجمة الساحل . ش ون ت . الجزائر 1981

1 - المصدر نفسه : ص : 6

2 - م . ن : ص :

3 - م . ن : ص :

تعالج رواية " نجمة الساحل " واقع الفلاحين في أول تجربة لهم في ظلّ العمل التعاوني المنظم في السنوات الأولى من الاستقلال . ويؤكد السياق الروائي أن هذا القطاع لم يكن يخلو - وقتئذ - من نقائص ، فهناك أخطاء ترتكب وتجاوزات مالية تقع ، وفوضى في التسيير (1) ، وغيرها من الآفات . وهو ما تؤكده المقطوعة الحوارية التالية التي دارت بين مجموعة من الفلاحين :

"- أنا لم أعمل ثمانية أيام في هذا الشهر ، وأخذت دراهمهم (كذا) .

"- وأنا أكلني (المنستراتور) نقطة ضعفه في الحساب ... عرفنا هذا ليلة أمس ، أنا وعايدي . "

"- وأنا كذلك غلطني رئيس (الشانطي العزوني) .

أدخل آخر دراجته في وسطهم ، وقال :

"- كلّ شهر واحد يبكي وآخر يشكي (كذا) ولا من يجيب ." (2)

لقد أثرت هذه الآفات الخطيرة سلبا على الفلاحين ، اذ انهم أصيبوا من جرائها بالاحباط والانكسار ، على نحو ما يظهر في قول أحدهم :

"... ايه يا الهادي ربما كنا نحن نباع في سوق النحاسة من حيث لا ندري... تماما مثلما تباع هذه الفواكه في نهاية كلّ ليلة..." (3)

1- ينظر : أحمد منور : قراءات في القصة الجزائرية . ش ون ت الجزائر 1981 ص : 90

2- المصدر السابق : ص : 43

3 - " " : ص : 93

ولعلّ الروائي يحاول ادانة البيروقراطية التي حاولت استغلال هذا المكسب الديمقراطي لصالحها ، وافراغ العمل التعاوني من محتواه الحقيقي لارهاق الفلاحين وتشكيكهم في حقيقة التسيير الاشتراكي للأرض . ولعلّ قول رئيس المزرعة يؤكد صحّة ما ذهبنا اليه :

"... أنا العزوني* ... منتخب من طرف اللجنة وعضو في اللجنة . تسييرنا الذاتي لا يخضع للنقد الذاتي، الفلاحون معظمهم موسميون وابتداء من اليوم ... الذي يضحك علي أو يحاول التقليل من مسؤوليتي سأطرده من المزرعة نهائيا ، وليشك الى ربه ... " (1)

ان هذه الممارسات اللامسؤولة والتصرفات العشوائية كانت السبب المباشر والباعث الحقيقي لمأساة عمال الأرض ، على نحو ما يظهر في قول حميد الفن - نموذج الفلاح الواعي في الرواية - :

"- ... أرأيتم ... يصنعون اقطاعية بأنفسهم ... يقول لنا " فلاحون بالاسم" ... يالها من تسمية جديدة . " (2)

ان هذه العبارة التي نطق بها حميد الفن تبين مدى وعي الفلاحين بقضاياهم ومصيرهم وما يدور حولهم، فلم يعودوا تلك الآلة الصمّاء التي تعمل بمجرد تشغيلها لا تبحث فيما يصيبها ، بل انهم يسيرون على أرض الواقع، وهم في صراع مع الزمن الوحش .

(*)- العزوني هو رمز للبيروقراطية المستهترة بحقوق الفلاحين وبأموال الشعب ، كما أنه - العزوني - رمز للمجاهدين الذين أصابهم الفتور والوهن ، وذلك بالتخلّي عن المبادئ التي سطرتها الثورة .

1 - المصدر السابق : ص: 46

2 - " " : ص: 48

لقد ضاق الفلاحون ذرعا بحالتهم البئيسة، تلك التي كان يلفها الفقر ويغلّلها الحرمان، وهو الشيء الذي اضطرهم الى التفكير في هجرة الأرض والبحث عن عمل يطرد عنهم شبح الخصاصة والعوز، والذي ما فتىء يهدد أسرهم ويقض عليها مضاجعها. وتؤكد معطيات الرواية أن هذه الظروف الشاذة المفروضة على الفلاحين هي- نفسها- التي جعلت عمال الأرض غير راضين بواقعهم الراهن، ولا مطمئنين للمستقبل. ولذلك فان الفلاحين - لظروفهم القاسية - يضطرون لتسجيل أنفسهم في مكتب اليد العاملة في انتظار انطلاق العمل بمعمل تعليب السمك.

ومن هذا المنظور فان المؤلّف يطرح قضية على جانب كبير من الأهمية، تلك هي مشكلة تحول عمال الأرض الى المصانع وهجرة الأرض. إن مشكلة الهجرة الريفية تعدّ من أخطر المشاكل التي عرفتها الجزائر غداة الاستقلال. ومما لا شك فيه أن هذه الظاهرة - ظاهرة النزوح الريفي - لها آثار سيئة على مجتمع القرية والمدينة على حد سواء، اذ انها تولد الأمراض عن خدمة الأرض. كما أن النزوح الريفي يخلق ارتباكا

كبيرا في توازن المدن . ومما يلاحظ أن المؤلف لم يقف عند هذه القضية الخطيرة طويلا ، ولم يتعمق آثارها السيئة وبواعثها الحقيقية ، مما يؤكد أن المؤلف قد طرح موضوع الهجرة الريفية طرحا عرضيا دون أن يقصد الى ذلك قصدا . وعلى الرغم من المشاكل التي أتينا على ذكرها ، والتي أرهقت الفلاحين في السنوات الأولى من تطبيق التسيير الاشتراكي للمزارع التي تركها المعمرون الأوروبيون . الا أن الرواية تنتهي نهاية متفائلة تؤكد التزام الفلاحين التام بخدمة الأرض ايمانا منهم بميلاد مستقبل ملئ بالاشراق والخصب والنماء . (1)

---

1 - ينظر المصدر السابق : ص: 101

كبيرا في توازن المدن . ومما يلاحظ أن المؤلف لم يقف عند هذه القضية الخطيرة طويلا ، ولم يتعمق آثارها السيئة وبواعثها الحقيقية ، مما يؤكد أن المؤلف قد طرح موضوع الهجرة الريفية طرحا عرضيا دون أن يقصد الى ذلك قصدا . وعلى الرغم من المشاكل التي أتينا على ذكرها ، والتي أرهقت الفلاحين في السنوات الأولى من تطبيق التسيير الاشتراكي للمزارع التي تركها المعمرون الأوروبيون . الا أن الرواية تنتهي نهاية متفائلة تؤكد التزام الفلاحين التام بخدمة الأرض ايمانا منهم بميلاد مستقبل مليء بالاشراق والخصب والنماء . (1)

---

1 - ينظر المصدر السابق : ص: 101

موضوع الأرض في رواية: " نهاية الأمس " :

إن رواية " نهاية الأمس " تتناول موضوع الأرض ، حيث تصوّر لوحة من لوحات المجتمع القروي في الجزائر قبيل تطبيق قانون الثورة الزراعية بسنوات قليلة (*)، وما كانت تعانيه الطبقة الفلاحية من جهل وتخلّف وفقر مدقع يعشعش في جوانب القرية وينشر عليها ظلالا قاتمة لا يستطيع محوها الا التغيير الجذري للعقليات المتحجرة ولأنماط العيش المتخلفة البالية.

ان قارئ هذه الرواية يلمس الظلم الاجتماعي المسيطر على القرية التي تراكمت فيها مظاهر التخلف الاجتماعي والسياسي فهي تعاني من انعدام المياه نتيجة لاحتكار ابن الصخري لها واستغلالها لصالحه وحده دون مراعاة حتى أبسط القيم الأخلاقية.

يبدأ الكاتب روايته بوصف سردي للطبيعة القاسية في قريته المترامية الأطراف على مشارف الصحراء ، وهي تواجه قدرها المحتوم بسبب القحط واليباب وهيمنة الاقطاع وما نجم عنه من انهيار لنفسيات القرويين.

" العرى هو الكساء الوحيد الذي تلبسه الأرض ، كأن ريحا نرية نسفتها فاذا كلّ شيء عار، واذا كل شيء كئيب ...واذا الأرض تعطي للنظر صورة من صور هرمها الفظيع . " (1)

1- عبد الحميد بن هدوقة: نهاية الأمس. ش.ون.ت. الجزائر- ط2 - 1978

* - زمن الحدث الروائي يقع سنة 1967

2- المصدر نفسه: ص: 7

واذا المعلم البشير - الشخصية المحورية في الرواية- يظهر على سكان القرية بعزيمة نادرة وارادة قادرة على التحرك الواعي لمواجهة مشاكل هذه البيئة القاسية. ويظهر ذلك جليا من خلال هذا الحوار الذي دار بين المعلم وسائق السيارة التي كانت تحملها الى القرية:

" قال السائق :

"- تلك هي المدرسة. أرأيت، انها غريبة!"

فأجاب البشير في تساؤل غير مكترث :

"- ولماذا هي غريبة؟

فقال السائق :

"- هذه الطريق ... أترى سيارة " دس " اليكترونية تستطيع السير معها؟ كلا. يجب لها سيارة شحن أو " لاندروفير" مثل هذه ... كذلك مدرسة هذه القرية يجب (كذا) * لها معلم " لاندروفير" .

ابتسم البشير لهذا التشبيه الطريف: "المعلم لاندروفير!" وقال في نفسه: " قد أكون أنا هذا المعلم لاندروفير..." (1)

ان هذه المحاورة التي دارت بين القروي السائق، والمعلم، تصور لنا مدى صعوبة الحياة في هذه القرية المقفرة، وتعكس لنا في الوقت ذاته استعداد المعلم الكافي لمواجهة المشاكل التي تنتظره في هذه البيئة، ونيّته في العمل والمساهمة في تطويرها.

---

* - الأصح : (يجب أن يكون لها معلم ...)

1- المصدر السابق : ص: 7، 8

" ان المعلم تسكنه رغبة ملحة في التغيير والعمل الدؤوب من أجل خلق واقع جديد" (1) يحطم ركام الماضي الذي لم يعد ثمة سبب لبقائه.

والحقيقة أن اختيار البشير اسما لبطل الرواية لهو دليل كاف على طبيعة تكوين هذه الشخصية التي أراد الكاتب لها أن تكون المبشر بالخير للطبقة الفلاحية المعدمة، وأن تكون النذير بالخطر للطبقة الاقطاعية التي دقت ساعة زوالها وأفول نجمها، بمعنى أن البشير جاء ليحارب الشر دفاعا عن الفضيلة، كما تشير الى ذلك أحداث رواية " نهاية الأمس" .

والمعلم كما تصوره الرواية لم يقدم الى هذه القرية من أجل تعليم الأطفال القراءة والكتابة فحسب، بل بدافع أعمق وأشمل من هذا، ولغاية أبعد من التعليم. " انه جاء ليحرض الناس على أن يثوروا على أوضاعهم ليحدث انقلابا في هذه القرية النائية جاء ليقول لهم انهم يعيشون خارج حدود الزمن وخارج حدود التاريخ، وخارج التطور البشري " (2)

انطلاقا من هذه المعطيات التي قدمها الكاتب لبطل روايته، يعتبر المعلم ثورة شاملة على الأوضاع السيئة المهيمنة على القرية النائية، ثورة تدك البالي الرث وتقيم على أنقاضه الجديد المشرق الذي يخدم الصالح العام .

1- ينظر: المصدر السابق : ص:

2- المصدر السابق :ص: 29

لقد حاول الكاتب، وبكلّ الوسائل أن يكون بطل روايته ايجابيا، بمعنى أنه يعبّر عن الرغبة في اقامة المجتمع الجديد، والدفاع عن هذا المجتمع من أعدائه. ولكي يجعلنا الكاتب نقتنع بالدور المنوط بالشخصية المحورية في الرواية، نجده قد حشد لها عدّة صفات ايجابية يمكن اجمالها فيما يلي :

1 - الوعي النضالي :

لقد مارس المعلم النضال عن وعي تامّ قبل المجيء الى القرية وذلك حين لبّى داعي الثورة التحريرية ككلّ المواطنين النزهاء الذين يضعون دائما مصلحة الوطن فوق كلّ اعتبار، يحركهم ايمانهم العميق بانتصار القضايا العادلة. يظهر ذلك من خلال ما قاله لزوجته وهو يودعها للالتحاق بالمجاهدين في الجبل :

"- ثقي أنني سأعود، وأن الجزائر ستتحرر. يجب أن تدركي معنى هذا الفراق، انه من أجل أن نحيا حياة أخرى لم يعرفها وطننا، حياة لا يبقى فيها الأجنبي سيدا والأذناب رؤساء ... لتصير قرانا تحيا في الزمن الحاضر لا خارجه... اننا سننتصر." (1)

ان البطل ساهم في الثورة التحريرية، لذا كان ماضيه حافل بالبطولات. من هذا الجانب البطولي يلتقي مع مالك - شيخ البلدية في رواية " ريح الجنوب " .

2 - الانتماء الايديولوجي :

لقد تشبع البشير بمبادئ الاشتراكية العلمية وآمن بها منهجا

1- ينظر : المصدر السابق : ص : 36

سياسيا واقتصاديا واجتماعيا يضمن كرامة البشير. منهج تنعدم فيه آفة استغلال الانسان للانسان . " الاشتراكية الحقة هي الاشتراكية العلمية التي تأبى الغيب " (1) ـ في نظره ـ .

وانطلاقا من هذه الخلفية الايديولوجية جاء البشير الى القرية ليغير الزمن من الماضي الى المستقبل ، " وليس أي مستقبل كان ، المستقبل الاشتراكي الذي يمنح الناس حظوظا بقدر أعمالهم لا بقدر حيلهم ، والذي يستند الى العلم لا على الغيب ." (2) . لقد تلقى البطل مبادئ الفكر الاشتراكي عن طريق الممرضات اللائي كنّ يعالجنه في ألمانيا الديمقراطية ، بعدما أصيب برصاص الفرنسيين في احدى المعارك ، زمن الثورة الجزائرية. يقول الكاتب عن هؤلاء الممرضات : " كن يعالجنه ويداعبنه ، وكن يناديه بالصديق وبالرفيق وبالأخ كيفلا ومذهبهن الاشتراكي علمهن الرحمة في أجلى صفاتها . " (3)

2 ـ الثقافة العميقة :

ان البشير مثقف ثقافة علمية عميقة ، حيث إنه تخرج في احدى الجامعات التونسية بشهادة في علم الاجتماع . والحقيقة أن تخصصه هذا يخول له المعرفة الدقيقة التي تتحكم في سيرورة المجتمع وعوامل ازدهاره وانكساره . من هنا ينبع وعيه بضرورة تغيير مجتمع القرية والعمل على تطويرها وفق أسس علمية محكمة البناء يمليها واجبه باعتباره مناضلا نزيها ، ومثقفا واعيا نذر نفسه

---

1 ـ المصدر السابق : ص: 72

2 ـ " " ص: 246

3 ـ " " : ص: 229

لخدمة الفقراء في هذه المنطقة المحرومة. لذا فان الثقافة الحقة في نظره هي تلك التي ترتبط بالاصلاح الزراعي ، " وأن المدرسة الحقيقية هي التي ستخلق يوم أن تبرز القرى الزراعية الى الوجود" (1) بمعنى أن تطور القرية مرهون في رأيه باعادة النظر في نظام الملكية الزراعية.

4 - كراهيته لنظام الاقطاع :

إن القضية الأكثر الحاحا على المعلم هي قضية الأرض التي تشكل مركز الاهتمام عنده. إن حلّ مشكلة الأرض في نظر المعلم قمين بأن يخرج القرية مما تعانيه من فقر وقهر وتخلّف ، وبدون حلّها سوف لن يكون هناك لأي اصلاح - مهما كان نوعه - أي معنى " ولا يمكن أبدا أن تتحقق ديمقراطية التعليم في العمل أو في السياسة ما لم تتغير هذه الأوضاع الظالمة لملكية الأرض ، حتى التصنيع نفسه مرتبط بالأرض." (2) . من هنا جاء موقفه الرافض للملكية الاقطاعية ، والذي عبّر عنه من خلال لقاء جمعه ببوغرارة. (*) يقول المعلم : " انني بطبيعتي أمقت الاقطاعيين " (3) . ويرى المعلم أنه ليس من طبائع الأشياء أن يملك شخص أكثر مما تملك قرية مجتمعه.

---

1 - ينظر المصدر السابق : ص: 30

2 - " " " : ص: 157

(*)- يعد بوغرارة نموذج الفلاح الواعي في القرية. لقد شد أزر المعلم وقدم له الدعم والعون خلال صراعه مع الاقطاعي .

لعل هذه الصفات التي تلبس بها الروائي بطل روايته كفيلة بأن تجعل منه شعلة متوقدة من النشاط والحيوية، تبعث في نفسه حب العمل الدؤوب القادر على بناء حياة مشرقة تعيد الأمل للفلاحين الذين أرهقتهم السنون المتشابهة الثقيلة. ان هذه الصفات تعدّ بمثابة عناصر التبرير الموضوعي لسلوك البطل في الرواية.

لقد اتبع الروائي عدة طرق فنية، ومن بينها المونولوج الداخلي للتعبير عن تحرك الحس الثوري لدى البطل، ليكشف عن نوازعه الداخلية، وقلقه، وتوتره الناجم عن رفضه لواقع الحياة في القرية التي يهيمن عليها الاقطاع، ممثلا في عدوه الأساسي ابن الصخري.

ان قضية الأرض - كما سبقت الاشارة الى ذلك - هي بؤرة الاهتمام بالنسبة للمعلم البشير الذي يعدّ الاصلاح الزراعي أولى الأوليات وأهم المشاريع التي تهدف الى بناء المجتمع الريفي بناء محكما غير قابل للانهيار. وقد عبّر المعلم عن ذلك من خلال هذا المونولوج الداخلي: "لو كان المنطق يسير الأشياء والناس، لكانت سنة الاستقلال هي سنة الاصلاح الزراعي الأولى." (1)

من هذا المنظور يكون المعلم الشخصية المناقضة لابن الصخري - رجل الاقطاع في الرواية -، كما كان مالك - شيخ البلدية - القطب المناقض لعابد بن القاضي في رواية "ريح الجنوب".

---

1 - ينظر: م. س: ص: 148

شخصيـــة الاقطـــاعي :

لعلّ ابن الصخري هـو الشخصية النمطية التي تحمـل بقـايـا الفكر الاقطاعي في المجتمـع القـروي . لقـد وجد البشير معارضـة كبيـرة في تنفيـذ مشـاريعه مـن لدن ابن الصخري الـذي كـان يـؤازره ابنـه كاتب البلديـة . ان نجـل الاقطـاعي يعـدّ رمـزا للبيروقـراطيـة المتحالفـة مع الاقطـاع لضـرب المكاسـب الوطنيـة وعرقلـة مسيـرة التنمية في الجزائر . بواسطة هذا الابـن كـان ابن الصخري يتصـرف في شـؤون القـرية بكل حرية كما لو كـان سكانها عبيـدا يعيشـون تحت رحمتـه . فلطالما عمـل على تعطيـل وتجميـد مشـروع ايصـال المـاء الى القريـة ، والسّكان في غفلـة من أمـرهم لا يحـركون سـاكنا ، نتيجة لغياب الوعي لديهـم . ان تعطيـل ايصـال المـاء يعـدّ - في حقيقـة الأمـر - تكريسـا للواقـع الاستغـلالي الذي كان يمارسـه الاقطـاعي بشكل سافر علـى سكان القـريـة .

سمـات الفكر الاقطاعي في " نهاية الأمس " :

لقـد أعطى الكاتب سمات واضحـة للفكر الاقطـاعي ، ويتجلّى ذلـك فـي أكثـر من موطـن . ويمكـن ايجاز تلك السمات في بعـض مـا يلـي :

1 - الملكيـة العقـارية الكبيـرة :

ابن الصخري - كما تصوره ريشـة ابن هدوقة - " ملاك ، هـو أغنـى سـكان الناحيـة " (1)، يملـك عقـارات شاسعـة تمتـد علـى

1- ينظر : المصـدر السـابق : ص: 121

مدي البصر، وهي أجود الأراضي وأخصبها. "انه وحده يملك أكثر من نصف جنان القرية" (1)، ورث بعضا منها عن أجداده، لأنه سليل أسرة اقطاعية، واشترى بعضها الآخر من سكان القرية الذين كانوا يستدينون منه تحت وطأة الجوع والخصاصة، فيدينهم حتى اذا استغرق الدين الأرض فاوضهم في التنازل عنها لقاء ديونه فيتنازلون عنها مكرهين. ويجسد ذلك هذا الحوار الذي دار بين المعلم وبوغرارة:

" قال بوغرارة:

"- أتعرف كيف امتلك ابن الصخري هذه البساتين ؟ "

قال المعلم:

"- كيف ؟ "

"- في الربيع عندما تطول الأيام وتفرغ المخازن والبطون وتهون في سبيل الخبز حتى الحياة، يأتي الرجل ليشتري البر والشعير دينا. من يدينه؟ هل الفقير مثله؟ طبعا لا! "

"- ابن الصخري !...

"- نعم. ابن الصخري هو الذي تمتلئ مخازنه بالقمح والشعير يبيع قمحه وشعيره بشرط ... أن يرهن له المدين أرضا أو بستانا كضمان لدينه. وعندما يحين أجل الدين لا يجد الفقير ما يسدد به دينه، فيستولي هو على الأرض المرهونة." (2)

---

1 - ينظر: المصدر السابق: ص: 121

2 - " " : ص: 123

بهذه الطريقة غير المشروعة نمت ثروة ابن الصخري على حساب الفقراء الذين ضاعت منهم الأرض وأصبحوا عرضة لاستغلاله. وهي سبيل يشترك فيها كل الملاكين العقاريين.

2 - استغلال عامل الدين :

تؤكد معطيات الرواية أن ابن الصخري كان يحفظ القرآن الكريم، ويقرؤه كلّ مساء مع امام القرية، مما جعل سكان القرية يقدرونه تقديرا تحوّل في بعض المواقف الى خوف. والحقيقة أن الاقطاعي كان يستغل الدين ويستعمله وسيلة من وسائل التخدير للحفاظ على مكاسبه الطبقية. " كان الاقطاع يرى في الدين مسندا مريحا وعاملا خطيرا في توطيد مصالحه الاجتماعية، فأغلبية القرويين جاهلة، وبالتالي يمكن الاعتماد عليها في هذه الزاوية، لأنها هي الهدف في الاستغلال الاجتماعي " (1). كان ابن الصخري يفسّر الدين وفقا لما تقتضيه مصالحه. قال للمعلم مبررا انتماء الطبقي : " أصابع اليد الواحدة ليست متساوية، والله خلق الغني وخلق الفقير. قال تعالى: " والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق درجات " (2) من هذا المنطلق الخاطئ والتأويل المغلوط، كان ابن الصخري يجد في الدين مبررا لاستغلال جهود الفلاحين الفقراء واستنزاف طاقاتهم ارضاء لأنانيته المبالغ فيها.

---

1 - ينظر: د/ غالي شكري: المنتمي. دار الآفاق الجديدة. بيروت - ط3 ص: 207

2 - م. س. : ص: 190

ج ـ التناقض في الشخصية :

لعلّ أهم ما يميّز ابن الصخري هو التنافس الصارخ في شخصيته. اننا من جهة رأيناه متهجدا متعبدا يقرأ القرآن الكريم كلّ يوم مع الامام في المسجد. وفي الوقت نفسه لم يتورع في تدمير المسجد تدميرا كاملا لتوجيه التهمة الى المعلم الذي رأى فيه ابن الصخري خطرا يهدّد مركزه الاجتماعي في المنطقة. وان دلّ هذا على شيء ، انما يدلّ على التناقض الذي يحمله الفكر الاقطاعي. فابن الصخري ـ في سبيل الحفاظ على أملاكه ـ لم يرعو في النيل من الدين الاسلامي الذي كان يدّعي التمسك به والحفاظ عليه. انه النفاق بعينه، كما تصورة الرواية.

هذه هي أهم السمات التي تميز ابن الصخري ـ كما حددتها الرواية ـ ، وهي كما رأينا تختلف اختلافا بينا عن سمات المعلم البشير.

ان هذا الاختلاف العقائدي، والطبقي أيضا بين الرجلين قمين بأن يضرم نار الصراع بينهما. ومن هذا الاختلاف المبدئي بين الشخصيتين يستمد موضوع الأرض جذوره في الرواية، ويكون المحور الدرامي الذي يحتل مركز الصدارة فيها.

اننا في " نهاية الأمس " نجد ابن الصخري ممثلا للفكر الاقطاعي، والمعلم رمز الفكر الاشتراكي التحرري ، يكونان عنصرين متقابلين ومتناحرين. وقد اتخذ الصراع بينهما طابع المواجهة

الساخنة، والتحدي الصارخ في كثير من المواقف، على عكس الصراع الذي كان قائما بين مالك - شيخ البلدية - وابن القاضي في رواية " ريح الجنوب "، والذي لم يتعدّ حدود المحاورة الشفوية الهادئة.

مظاهر الصراع في الرواية:

يقوم صراع المعلم مع مجتمع القرية على محاور ثلاثة هي :

أ- تصحيح المفاهيم المغلوطة في أذهان القرويين بنشر الوعي بينهم.

ب- محاربة الاقطاع.

ج- انشاء المدرسة وتغيير نمط التعليم.

ان " مع الانتماء للفعل الثوري تبدأ المسؤولية والصعاب " (1)، بالنسبة للمعلم البشير الذي " وجد نفسه أمام أناس في القرية يعيشون على أنقاض الماضي متمسكين به فكرا وسلوكا أسلموا مصيرهم عن خوف وجهل للاقطاعي يسعد على شقائهم، أقدس ما لديهم ما اعتدوه ودرجوا عليه في محيطهم القروي الضيق " (2)، انهم يخشون من كلّ جديد، الأمر الذي صعب مهمة البطل في القرية، مما اضطره الى اتخاذ التحدي وسيلة للتغيير. كيف لا، " والتعليم بمعناه الواسع هو نوع من التحدي. الحياة كلها تحدّ. كل جديد فيها تحد لما سبقه، واذن فليتحد القرية." (3)

1- عبد الجبار عباس : في النقد القصصي. دار الرشيد للنشر. العراق 1980 ص 55

2- حزرلي عبد الحفيظ : صورة الجزائري في القصة العربية الجزائرية. رسالة للحصول على الماجستير بجامعة القاهرة 1982 - ص : 226

3- م . س . : ص : 63

تبدأ أول حلقة في سلسلة التحدي بتطهير عقول الفلاحين من رواسب الماضي التي سيطرت على عقولهم، ومن عقدة الخوف التي شلت حركتهم، وذلك عندما قرّر المعلم تشغيل (أم الحركي) في المدرسة. هذه العجوز التي قاطعها السكان في القرية، بمن فيهم ابن الصخري عقابا لها عن خيانة ابنها للثورة.

لعلّ هذا القرار الذي اتخذه المعلم يعدّ أولى مراحل التحدي للاقطاعي ولسكان القرية جميعا خلا واحد منهم، هو بوغرارة - رمز الوعي الشعبي - . لقد وقع ما كان منتظرا، حيث ان القرويين ثاروا ضد المعلم بمجرد سماعهم الخبر، وعدوه انتهاكا صارخا لمواضعات القرية، وتحديا مكشوفا لتقاليدهم الموروثة عن الأجداد. وتعالت أصوات الفلاحين منددة ومتوعدة بالمعلم:

" - أنا لا أرسل ابني الى مدرسة تخدم بها أم الحركي ."

" - انه استفزاز لنا ."

" - دماء شهدائنا لن ندعها تدنس ."

" - ابن الصخري لن يرضى بهذا أبدا ."

" - من يرضى أن تقوم بشؤون مدرستنا أم حركي ؟"

" - لا يستخدم حركيا الا حركيا مثله. " (1)

في خضم هذه الأحداث الدرامية وجد الاقطاعي ابن الصخري ضالته واستغل هذه الحادثة ليبرز حقده الطبقي على المعلم، حيث انه اتهمه

1- [illegible] : م . س . : ص: 128

بالكفر والمروق عن معتقدات القرية. قال ابن الصخري ان المعلم " شيوعي معاد للدين ، ويعمل للخارج ضد وطنه " (1)، لذا وجبت محاربته وطرده من القرية، لأنه - أي المعلم - يحاول نشر الأفكار الهامة في هذا البلد الآمن لافساده. والحقيقة أن ابن الصخري كان يدافع عن مصالحه، لا عن مصالح الفلاحين. لقد توجس من البشير خيفة، وذلك لما يحمله من مفاهيم جديدة للحياة لا عهد لمجتمع القرية بها. من هذا المنطلق تصدى الاقطاعي للمعلم بحزم عن وعي وادراك منه لخطورة الموقف. فهو على عكس سكان القرية الذين ثاروا ضد المعلم عن جهل يمليه عليهم تخلفهم الحضاري والفكري.

ان أفكار المعلم تنذر بتقهقر سيادة الماضي، وهذا ما لا يقبل به الاقطاعي الذي يجد في التمسك بالأخلاقيات الموروثة مبررا لوجوده وبقائه. لذلك فانه من الطبيعي أن يساند ابن الصخري كل مبادرة من شأنها أن تثبط من عزيمة المعلم وتشل حركته. غير أن المعلم لم ينتن عن قراره، ويستمر في أحكام تحدياته بمؤازرة بوغرارة. ونعلم من سياق الحديث الروائي أن البطل قد تمكن من اقناع الفلاحين ببراءة العجوز التي وقعت ضحية ذنب لم تقترفه يداها. قالت العجوز : "انهم قبلوا بي أن أعمل بالمدرسة بصفة رسمية. الحكومة هي التي ستدفع لي أجرتي." (2)

---

1 - الرواية. : ص: 210

2 - م. ن. : ص : 124

وفيما يبدو أن الكاتب سعى جاهدا كي يبين للقارئ قدرة بطله على التغيير. وبالفعل فان عدول الفلاحين عن فكرتهم السابقة تجاه العجوز يعد أول خطوة خطاها المعلم في تطهير أذهان الفلاحين من المفاهيم المغلوطة، الأمر الذي أربك الاقطاعي وأثار مخاوفه واعتبره مظهرا من مظاهر التغيير التي بدأت تعتور القرية وتعيد النظر في نمط العلاقات الاجتماعية الموروثة عن السلف، لذلك أصبح ابن الصخري يعيش عيشة الضائع الذي ضيع زمام المبادرة من يده، وكان عبثا يحاول تجميد حركة التاريخ، ويرى في الناس كلهم عبيدا له، وأي حركة تخرج عن تصوراته لا يلبث أن يرميها بالخيانة والمروق عن الدين. ولقد استطاع الكاتب بقدرته الابداعية أن يرصد بوادر التحول التي أخذت تتكون شيئا فشيئا في رحم مجتمع القرية انطلاقا من الحادثة السابقة الذكر، والتي كان لها أبعد الأثر في ذكاء حدة التأزم النفسي لدى الاقطاعي الذي بدأ يشعر بالغربة والضياع في الحاضر الذي كثرت فيه الانتهاكات الصارخة لحرمات الماضي.

- طرق الاقطاع في المحافظة على مصالحه:

تحت وطأة الخوف من المعلم والأخطار التي ينطوي عليها فكره الاشتراكي التحرري، حاول ابن الصخري احتواءه لاخماد جذوة الثورة التي كانت تتأجج في نفسه والتي بدأت تعطي ثمارها في القرية وذلك حين حاول ابن الصخري اشتراك المعلم في

أملاكه كخطوة أولى في عملية الاحتواء . قال ابن الصخري للبشير:

"- لو عرضت عليك مشروعا . تقوم بشؤون المزرعة كمدير ... أعطيك التصرف المطلق ... اتخذك شريكا ... أنا المال وأنت العقل ... " (1)

كما أن ابن الصخري عرض على المعلم البشير الزواج من ابنته الجامعية، " فتاة في العشرين من العمر . أوروبية الملبس، جميلة المحيا ." (2) . ان فكرة الزواج التي كان يخطط لها ابن الصخري تعدّ المحاولة الثانية في عملية الاحتواء، والتي كان يهدف من ورائها الى درء الخطر الذي ما فتئ يهدده ويقض عليه مضجعه والمتمثل أساسا في خوفه من انتشار الوعي بين جماهير الفلاحين الذين كان يغمطهم الاقطاعي حقهم، لأنه كان يعلم - مسبقا - أن في وعي الفلاحين خطرا على أراضيه الشاسعة، وتهديدا لمكاسبه الطبقية . لكن آمال الاقطاعي تذهب أدراج الرياح ويفشل في كسب المعلم الى جانبه . لأن المعلم كان شديد الحذر ، ولم يسقط في الفخ الذي نصبه له ابن الصخري، ولم يرضخ لمطالبه على الرغم من المغريات التي قدمت له مقابل التنازل عن مبادئه التي اكتسبها نتيجة لنضال طويل وشاق . لقد حاول المؤلف - جهده - التأكيد على نزاهة بطله حين يرفض - أي المعلم - المصالحة

---

1 - رواية " نهاية الأمس " : ص: 192 ، 193 ، 194

2 - المصدر نفسه : ص: 149

الطبقية التي دعاه اليها الاقطاعي ، والتي كان يحاول ابن الصخري من ورائها ابقاء المجتمع على حال من الثبات والجمود الذي يضمن له البقاء . ومن هنا تبرز روح التحدي الذي وفق الروائي في تصويرها لدى بطله بأسلوب منطقي مقنع . وتكون الحلقة الثانية في سلسلة التحدي بادخال الماء الى المدرسة . وفي ادخاله مشقة كبرى بالنسبة للمعلم . لأن مصالح ابن الصخري تصاب بضرر كبير . وينتفض سكان القرية مرة ثانية بتحريض من ابن الصخري دون أن ينتبهوا الى تحالف الامام مع الاقطاعي ، "ذاك باسم الدين ، والآخر باسم كرامة القرية على تحطيم القرية " (1) . وعندما استشعر ابن الصخري بخطورة الموقف في ايصال الماء الى القرية والأضرار التي ستلحق بساتينه ، لم يكتف بتثوير الناس ضد المعلم ، بل ذهب الى أبعد من ذلك . حيث انه دبّر مكيدة تتمثل في تدمير المسجد بالمتفجرات ليلا لإيهام الرأي العام بأن المعلم هو مرتكب الجريمة ، لحمل سكان القرية على الثورة ضد هذا المعلم . وبذلك يتعطّل مشروع ايصال الماء الى القرية ، ويبقى الحال على ما كان عليه من قبل ، والذي لا يخدم الا مصالح الاقطاعي وحده . وبالفعل فقد هزّ هذا الحدث المريع سكان القرية وأثار سخطهم على المعلم ، " واذا رأوه خارجا من المدرسة تصارخوا وفي مقدمتهم الامام :

---

1 - م . س . : ص: 136

" هاهو اللعين، الكافر، هادم المسجد(*). خذوه فارجموه."
ورماه أحد بحجر خدشت جبينه وكاد يسقط على الأرض من شدة الضربة، وأخذت دماؤه تسيل على وجهه." (1)

نهاية الاقطاع كما تقترحها الرواية:

يؤكد المؤلف في نهاية الرواية على انتصار نظام الأرض الجديد، وذلك حين يتمكن البطل من تنفيذ مشروع ايصال الماء بمؤازرة مسؤول كبير في الوزارة. ويتدفق الماء عبر أنابيب القرية. وهو رمز لانتصار الحاضر المليء بالخصب والنماء على الماضي المليء بالمتناقضات. وهكذا ينهي ابن هدوقة روايته نهاية متفائلة ويتنبأ بزوال الاقطاع الذي فقد عناصر بقائه، وأهمها الماء الذي كان يحتكره فيما مضى. ولم يكتف المؤلف بتوجيه هذه الضربة الى الاقطاعي، بل لجأ الى تعريته وكشف ألاعيبه، وذلك حين يعلم الجميع بأن الاقطاعي هو الذي يقف وراء تدمير المسجد، كما يظهر من خلال هذا الحوار الذي دار بين الضابط وابن الصخري:

(*) - يبدو أن الروائي قد اشتط به القلم ووقع في المبالغة والتهويل ذلك لأن الاقطاعي - مهما بلغ به الحقد والكراهية للمعلم - لا يمكن أن يقدم على تدمير المسجد. ولأن ذلك لم يحدث في الواقع على الاطلاق.

1 - المصدر السابق: ص: 230

قال الضابط :

"- مصلحتك في هدم المسجد لا تخفى على أحد. واذا كانت خطتك محكمة... أنت تعارض في نقل الماء الى المدرسة، والمتسبب الأول في نقل الماء هو المعلم. فبأي طريقة تنتقم منه؟ هناك عدة طرق، ولكن أفضلها أن يدمر الجامع، وأن يتوهم الناس أن المعلم هو المذنب فان لم يقتلوه طالبوا بطرده. أليس كذلك؟ " (1)

لقد حاول الكاتب من خلال هذه الحادثة أن يكشف ويدين ألاعيب الطبقة الاقطاعية التي أصبح انهيارها وشيكا. ولعلّ حادثة هدم المسجد كفيلة بأن تظهر ابن الصخري على حقيقته وتفضح نفاقه للقرويين. كيف لا، وهو الذي كان في نظرهم التقي النقي الطاهر، الذي كان يقرأ القرآن الكريم كلّ مساء مع امام المسجد. ان هذه الفعلة الشنعاء حوّلت الاقطاعي الى شيطان في نظر أهل القرية - وأماطت عن وجهه قناع المجد والجاه والوقار الذي فرضه على الفلاحين زمانا ليس بالقصير.

---

1 - المصدر السابق : ص:238.

ولعل المؤلف كان يهدف من وراء روايته " نهاية الأمس " الى تصوير حتمية زوال الأخلاقيات الاقطاعية المتهرئة، والتي لم تعد لها القدرة الكافية على مواجهة أنماط الحياة الجديدة الوافدة المليئة بالاشراق . وهكذا استطاع المؤلف عبر هذا الواقع الشامل في الرواية أن يخلق الجو المناسب ليبين لنا موقفه الرافض للاقطاع برؤية فنية بناءة، دافعا أبطاله الى تغيير واقعهم الى واقع أكثر فألاً وأكثر اشراقا، واقع خال من هيمنة الاقطاع والاستغلال . والحقيقة أن مجتمع رواية " نهاية الأمس " مجتمع تبشيري قابل للوجود. وفي اعتقادنا أن امكانية وجوده متحققة، في كون الرواية تنطلق من واقع موجود الى واقع آخر قابل للوجود دون أن تتجاوز الواقع المعروف .

ومن هذا المنظور تعدّ هذه الرواية انجازا هاما ومكملا لما انتهت اليه روايه رواية " ريح الجنوب " ، بحيث يكون البطل فيها نموذجا للمثقف الواعي القادر على التغيير، تغيير نفسه وتغيير مجتمعه، والانتقال به من وضع سيء الى وضع آخر في طريقه الى التحسن . وهكذا فالبطل " الايجابي هو الذي يحمل في داخله الاحساس بالقدرة على تغيير العالم ." (1)

ولعل البطل في رواية " نهاية الأمس " قد تمكن من خلق الظروف

1- غالب هلسا وآخرون : الرواية العربية . واقع وآفاق . دار ابن رشد - بيروت - لبنان . ط1 - 1981 - ص: 221

الموضوعية لتطوير الريف ، وذلك عندما تمكن من ايصال الماء الى القرية ، وبعث المدرسة الى الوجود ، باعتبارها رمزا لاندثار الجهل والأمية في الأجيال القادمة . اذن ، فان البشير بطل ايجابي مشبع بروح التفاؤل الثوري ، التفاؤل التاريخي ، وذلك لأنه يؤمن بأن الحقيقة الحتمية في جانبه ، وان قضيته لا يمكن أن لا تنتصر ، فهو على عكس نفيسة - بطلة " ريح الجنوب " التي حاولت التغيير انطلاقا من ذاتها وبمعزل عن محيطها ، ففشلت وتحطمت أفكارها على شرنقة حياتها وعزلتها عن المجتمع في القرية .

وهكذا فان ابن هدوقة قد اقترح في روايته الثانية نموذج البطل الايجابي القادر على تحطيم الواقع المثقل بمظاهر التخلف ، المصاب بوباء الاستغلال المتعفن بهيمنة الاقطاع . انه واقع المجتمعات الريفية التي كانت تسيرها العقلية المتحجرة وتتحكم فيها العادات والتقاليد المناهضة لروح العصر .

واذا كان الروائي قد اختار بطله من فئة اجتماعية معينة ، هي فئة المثقفين الواعين ، فانما ليؤكد على دور الثقافة في بناء أي مجتمع ينشد الرقي والازدهار ، كالمجتمع الريفي في الجزائر الذي دمرته آلة الحرب الاستعمارية .

ان رواية " نهاية الأمس " تقدم لنا في جملتها رؤية يلتحم فيها الذات بالموضوع ، وهي ليست رؤية واعظ ولا مبشر ولا قاض ، ولكنها رؤية أديب ينجح بأسلوب غير مباشر في الكشف عن رؤيته للواقع الريفي السائر في طريق التطور والرقي .

مظاهر الفكر الإقطاعي في الرّواية

نمـوذج : روايـــــة الـزلزال :

تعد الـــرواية أكـثر الأجناس الأدبيـة ارتـباطا بالمجتمـــع وذلك لما تتوافر عليـه من خصائص فنية وموضوعية تجعلها مؤهلة لاحتضان جوانب كثيرة من الواقـــع الاجتمـاعـي المعيش تفرض نفسها على الفنان الأصيل فيعبـــر عنها برؤيـة بناءة " بعد أن يعللها ويفسرهـا ويجتهد في تحديد جوانبها الأساسيـة كي يحولها الى كـتابة "(1)، من هـذه الوجهـة تغدو الرواية معادلا موضوعيا للواقـــع ، أى أنها تشكيـل مندمج لما يصطـرع في رحم المجتمـع من صـــراعـات وتحولات . وصفوة القـول ان المجتمـــع هو المصدر الأكثـــر رحابة يستقي منه الفنان الروائي العناصر الأساسية لتشكيل عمله الابداعـــي .

ولعـل روايـــة " الزلزال " لم تشذ عن هذا المفهوم العام لماهيـة الفن الروائي وعلاقته بالظروف والملابسات التي تساهم في افرازه ذلك أنهـــا " لـم تكن من بدع الخيال المحض ، ولا مجرد الرغبة في الكتابة ، وانمـــا تمخضت عن ظروف اقتصاديـة وسياسيـة "(2) تمكنـت من ذات الأديب فعبـــر عنهـا برؤيته الخاصـــة . وتتمثـل هـذه الظـروف في تلك التحولات الكبرى التي شهدها عالم الريف الجزائرى بعد تطبيق قانون الثورة الزراعية الـــتي

1- ميشال زيرافا : الرواية والمجتمع. ترجمة د .جمال شحيد .مجلة الآداب الأجنبية - س٩ ،ع 3 - ك 2 . 1975 .

2- يزلي بن عمار : اقتراحات منهجية وسوسيولوجية من تحليل لعقلية الاقطاعـــي في رواية الزلزال - م.ج .و.ع.ا.ك. ص: 18

استهدفت تحسين حالة عمال الأرض والقضاء على الملكية الاقطاعية . حاول وطار - في رواية الزلزال - معالجة جانب من هذه التغيرات الاجتماعية التي رافقت بداية التحولات الكبرى للمجتمع الجزائري من مجتمع الاستعباد الى مجتمع آخر ينشد العدالة الاجتماعية التي كانت حلما لم يتحقق الا بالقضاء على الروح الاستغلالية المتمثلة في في الاقطاع والاشكال الاخرى المتحالفة معه . أقول ان المعطيات التي دعت الى كتابة الرواية هي بداية تأميم الأراضي الزراعية التي لا يخدمها مالكوها بأنفسهم وانما يستغلون فيها جهود الفلاحين والخماسين وكان من الطبيعي أن ترفض الطبقة الاقطاعية الثورة الزراعية وتحارب مبدأ التأميم حربا لا هوادة فيه ولا لين ، دفاعا عن مصالحها الحيوية المهددة بالزلزال . ولقد اتخذ الرفض عدة أشكال منها تسجيل الأراضي الزراعية على الاقارب والاهل ، وذلك بمقصد ايهام الدولة بعدم شرعية التأميم حتى يبقى المجتمع على حال من الثبات والجمود تحكمه العلاقات الاقطاعية البائدة . من هذا المنظور يطرح الروائي موضوع رواية الزلزال التي جاءت أو كما أراد لها أن تكون زلزلة لفكر الاقطاعي وهزا مدمرا لبنيانه وأشكاله .

تدور أحداث الرواية حول شخصية واحدة هي شخصية عبد المجيد بوالارواح . وهو اقطاعي يملك أراضي شاسعة بضواحي قسنطينة ومدير ثانوية بالجزائر العاصمة . ينتابه الذعر والاضطراب عندما يفاجأ بقرارات الثورة الزراعية الهادفة الى تأميم الأراضي الزراعية التي لا يخدمها

أصحابها بأنفسهم . فيتجه الى قسنطينة التي لم يزرها منذ سبع عشرة سنة خلت . يزورها هذه المرة من أجل عمل مصيري هو محاولة التملص من قبضة قانون الأرض الجديد الذى وضع في مقدمة اهتماماته القضاء على الملكية الاقطاعية . ان البطل لا يود أن تخرج أراضيه من حيازته وذلك لما تدره عليه من خير عظيم ورزق وفير . لكن يبدو أن الروائي قد قسا على بطله عندما حكم عليه بالضياع والتيه . لقد ظل بوالأرواح يلهث في شوارع قسنطينة باحثا عن أقاربه لكي يقسم الأرض عليهم ، لكن آماله تذهب أدراج الرياح ويفشل المشروع الذى من أجله تجشم أتعاب السفر ومشقات الطريق ، ويفاجأ في نهاية المطاف أن الأقارب الذين كان يعول عليهم قد تغيرت حالهم ، فمنهم من استشهد في سبيل تحرير الوطن ومنهم من تقلد مناصب عليا في الحزب والدولة . مما ولد في نفسه شعورا بالاغتراب . وقد رأى كل شيء في الحياة مغايرا لما حسب وقدر . وجد كل شيء تغير في المديغة وتبدل " ولم تعد العلاقات الانتاجية القديمة هي السائدة فقد حلت محلها علاقات جديدة لم يعد بامكانه هضمها فيقابل هذا الفشل بمحاولة الانتحار[1] لولا تدخل الشرطة التي أنقذته ونقلته الى مستشفى المجانين .

ان رواية الزلزال تعد من هذه الوجهة سيرة ذاتية لبوالارواح .

1- الأعرج واسيني : اتجاهات الرواية العربية في الجزائر- رسالة لنيل الماجستير سنة : 1981-1982 جامعة دمشق . ص: 179

ان مـأساته تنبع أساسا من التغيـر الذى لحق قسنطينة منذ الاستقـلال ، وخـاصـة بمـحـاولة الاصلاح الزراعي الذى استهدف مصالحه ودوره الاجتماعـي لأنـه موظـف[1] ومـلاك عقـارى كبير . من هـذا المنظـور فان الروائـي يعالـج موضوع الأرض من خلال نظر الاقطاعـي ، أى أن وطـار لـم يتعـرض لحياة الفلاحيـن كما يحياهـا الفلاحون ، وانما أنفسهم ، وانما ركـز حديثه علـى شخصية بوالأرواح ، ومن خلالـه تطرح قضية الأرض، المحور الدرامـي في الروايـة ومركـز الأزمـة فيهـا . ومن هنا فقد كانـت شخصية بوالأرواح الشخصية الاستقطابية في الروايـة - نموذج البطـل المـأزوم الذى يحمل فكرة الاتجاه الايديولوجـي المضاد الاتجاه الروائـي. ولعل ذلك يظهر من خـلال الاسلوب الكاريكاتورى الساخر الذى رسمـت بـه هذه الشخصيـة سواء من الداخل أم من الخـارج السلوك والملامح الفيزيقـية . لقد بذل الروائي جهده لحمل القارئ على كره هـذه الشخصيـة وادانتهـا بحيث جردها من كـل المقومات الانسانية الايجابيـة وجعل منها آلـة صماء تحركها الشهوات وتدفعها الرذائـل .

ومن هـذا المنطـلق تكون شخصية بوالأرواح شخصية نمـوذجيـة تحمل كـل خصـوصيات الفكر الاقطاعي في الجزائر.

ان الشخصية النموذجية تتمثل أساسا في خلق فرد نموذجي تتجمـع

1- سعيد علوش: الرواية والايديولوجية في المغرب العربي .دار الكلمة للنشـر - بيروت - سنـة : 1981 ص:68

فيه كل الصفات الجسمية والاشكال الفكرية التي يمكن أن توجد موزعة على أفراد الطبقة أو الفئة الواحدة التي ينتمي اليها الفرد ، فيأخذ من هذا الفكر العلمي ، ويأخذ من شان الجانب الديني ، ويأخذ من ثالث الفكر الميتافيزيقي ومن رابع الشذوذ ، وهلم جرا . . .

ان هذه الصفات يصعب أن توجد مجتمعة في فرد واحد ، ولكن الصفة المشتركة بين أبناء الطبقة الاقطاعية هي الملكية العقارية الكبيرة . "فامتلاك الأرض هو جوهر المسألة وهو الذى يحدد سلوكات بوالأرواح وعقليته . (1) وعلى هذا الأساس فان الشيخ عبد المجيد بوالأرواح لا يمثل نفسه بقدر ما يمثل الطبقة الاقطاعية المحتضرة في داخل المجتمع الجزائرى الجديد . لقد عمد المؤلف الى شن حملة من الانتقادات ضد الطبقة الاقطاعية والأسس الشاذة الظالمة للعلاقات الانسانية الهادفة الى استعباد الفلاح واضطهاده . ولعل وطارا هو الروائي الجزائرى الوحيد الذى حدد مظاهر الفكر الاقطاعي من منظور واقعي اشتراكي وعبر رؤية فنية بناءة نابعة من ادراكه الواعي لوظيفة الجنس الروائي ورسالته الاجتماعية .

1- الزين بن عمار : المرجع السابق ، ص: 23

مظاهر الفكر الاقطاعي في "الزلزال":

1- الولاء للاستعمار:

تؤكد معطيات الرواية أن الطبقة الاقطاعية في الجزائر كانت "تستغل الشعب في الماضي ورأت في المحتل الجديد فرصة لتحافظ على امتيازاتها وكانت تربأ بنفسها أن تكون في مستوى الشعب الفلاح الذى كان خادما لها، وتحت ظلام الخزى والعار مثلت بعض الاذ وار المخجلة"[1]، حيث تحالفت مع القوات الفرنسية الغازية ضد القئات الشعبية المناهضة للتغلغل الأجنبي، والتي كان عمال الارض سوادها الاعظم.

ان بوالارواح هو سليل هذه الطبقة التي خانت القضية أبا عن جد. ولكي يعمق الروائي احساسنا بخيانته لجأ الى أسلوب التداعي والمونولوج الداخلي، فعن طريقة يتعرف القارئ عن كثب الى ماضي هذه الشخصية ومكنوناتها الداخلية. على نحو ما يظهر في قول البطل: "أبي كان عظيما. رئيس قبيلته وزعيم قومه. عندما كان الفرنسيون يدقون بمطارق من حديد أبواب منطقتنا، كانت منطقتنا تقاتل ببسالة. ترد الغزو من البحر، وترد الهجوم من البر. كانت قبيلتنا محصنة. منطقتنا منيعة. ومكافحونا بواسل. أرسلوا الى أبي خفية. نعطيك الارض. نتركك زعيما على قبيلتك. افتح لنا الباب ولك الامان أنت وباقي أسرتك. قال أبي لمكافحي

1- محمد قناش: الحركة الاستقلالية في الجزائر. ص: 22

القبيلة : بدل أن ندافع نهاجم لكن اياكم أن تبدأوا قبل أن أعطيكم الاشارة . أرسل أبي الى الفرنسيين يعلمهم : أعطيكم المكافحين واعطوني الباقي . خرج أبي برجاله وعندما وجدوا أنفسهم في الكمين قال لهم : لا تلقوا بأيديكم في التهلكة . . . ففتح أبي الباب دخل الفرنسيون المنطقة ، قتلوا كل قادر على حامل ، وعقول لابي النياشين وأعلنوه زعيما وأعطوه أرضا كبيرة . كل الارض . أبي يحكي : " جدك كان زعيما ورث عن أبيه النياشين والزعامة والارض."(1) ان هذا المونولوج الداخلي يكشف لنا عن ماضي الارسطوقراطية العقارية التي خضعت غالبيتها لفرنسا ، وفضلت الابقاء على امتيازاتها ، على أن تحارب الى جانب الطبقة الفلاحية ، بل انها ذهبت الى أبعد من هذا حين آزرت الدخيل على بسط نفوذه على الارض ومن عليها . ان اعتراف البطل يعطي للقارئ صورة صادقة عن بسالة الفلاحين الذين لم يتوانوا لحظة واحدة في الدفاع عن حمى الارض على الرغم من خيانة الاقطاع - وهنا يؤكد الروائي على أهمية الترابط الذى يقوم بين الاقطاع والاستعمار وتحالفهما تاريخيا على حساب الشعب . فارتباط الاقطاعي بالاستعمار يعمق وجوده كسلطة فوقية مفروضة على الشعب تضمن له الارض والسيادة والنفوذ .

1- م.م.س.ص: 171 ، 172

لقد أماطت رواية " الزلزال " اللثام عن خيانة آباء بالأرواح وأجداده. وما آباؤه وأجداده الا المعادل الموضوعي لخيانة طبقة برمتها في المجتمع.

ان البطل - كما تشير الى ذلك معطيات الرواية - هو البذرة الشرعية لهذه الطبقة وامتدادها الطبيعي لقد اتبع نهج أسلافه ولم يرض عن ملتهم بديلا، فهو متحالف مع الاستعمار، يواليه بأعماله وسلوكه وحتى نواياه وتصرفاته. لقد وجد الاقطاعي في المعمرين الدرع الواقي والحصن المنيع لامتيازاته في المجتمع. ولعل ذلك يظهر بشكل واضح من خلال استحضاره صورا من ماضيه في قسنطينة - في ذهنه - كلما تأزمت حالته النفسية وضاق ذرعا بمعطيات الحاضر.

البطل يقول: " ايه نزل باريس. النزل الكبير. المقاهي الثلاثة المشرفة على الساحة. هنا كان الملتقى. الموظفون المسلمون كبار الفلاحين والمعمرين، الاغوات والباشوات، كبار أصحاب الأعمال والتجار. هنا كان الدخول ممنوعا على الرعاع. الهيبة وحدها كانت تمنع الأهالي من الولوج. ستائر البلور والحرير ترفرف، وروائح باريس تعبق. والندل في هيئات وبدلات أكثر

اجـــلالا ورهبـــة مـن هيئات ضباط العهـد[1]

ومما يلاحظ أن الروائي كـان يلجأ الى أسلوب التركيز والايجـــــاز والايقاع وكذلك الشفافيـة كلما استحضر البطل جانبا من جوانب حياته الماضية بقسنطينة في ظل الاستعمار . ان هـذا الأسلوب - وهو أقرب الى لغة الشعر - لجأ اليه الروائي ليعبر به عـن حسرة البطل على مجده الآفـــل ، وليبين تعلقه بزمن الأعيان الغابـر وتبرمه من الوضع الجديد بقسنطينـة .

" ان لغظة الرعاع هي أقصى حقد بوالأرواح في نعت العامة"[2] أى الفئات الشعبيـة التي حلت محـل محل الأعيان والمعمريـن .

وكذلك لغظة (الأهالي) تنم عن حقد الاقطاعي الدفين على كل الفئات الفقيرة الصاعدة . ان كلمة "الأهالي" كان يطلقها الاستعمار على الشعب الجزائرى ، وهـي تعني الجنـس الهمجي المتخلف الذى لا يرقى الى مصاف الانسانية . ان استعمال بوالأرواح لمثل هذا القاموس اللغوى الذى كان يتداوله المعمرون على مختلـــف جنسياتهم يدل على حنينه وارتباطه العاطفي بذلك العهد الذى ولى ولن يعـود . عبر عنه في لحظة من لحظات أحساسه بالعزلة والانزواء وتنر الحاضر له . هذا الحضر الذى حمل معه نهاية محزنة لماضي بوالأرواح الذى غدت علاقته بالمجتمع الجديد علاقة تنافر وتضاد . لقد بدأ يشعر بالاغتراب في عهد الاستقلال ، ولعل السبـب في ذلك يعود بالدرجة الأولى الى تلك العلاقات الجديدة التي بدأت تتجـذر في المجتمع الجزائرى الحديث الشيء الذى لم يتمكن البطل من تقبلـه .

1- المصدر نفسه - ص: 71

2- سعيد علوش : الرواية والايديولوجيا في المغرب العربي - ص: 71

2- ملكية الأرض :

تعد الملكية العقارية الكبيرة القاسم المشترك بين جميع الاقطاعيين ، والشيخ عبد المجيد بوالأرواح واحد منهم. انه سليل أسرة اقطاعية ازدادت ثروتها بازدياد خدماتها للاستعمار. يملك بوالأرواح مساحات شاسعة تمتد على مرأى البصر وتقدر بـ " ثلاثة آلاف هكتار "[1]. من أكثر الأراضي الزراعية بقسنطينة خصبا وعطاء وأعمها نفعا . ورث بعضها عن أسلافه واشترى بعضها الآخر بطرق ملتوية من الفلاحين الفقراء الذين كانوا يستدينون منه في وقت الخصاصة فيدينهم مقابل أن يرهنوا له الأرض حتى اذا استغرق الدين الأرض فاوضهم في التنازل عنها لقاء ديونه فيتنازلون مكرهين لا راضين ، فيتحولون من جراء هذه العملية من فلاحين صغار الى عمال أجراء مستغلين ، بل الى خماسين . ذلك كان دأب بوالأرواح في تنمية ثرواته - حتى مع أقرب الناس اليه - حسب ما جاء في الرواية - مثل عبد القادر الغرابلي ابن عمه الذى احتاج في يوم عصيب بعض المال فطلب من بوالأرواح أن يقرضه

1- المصدر السابق : ص : 32

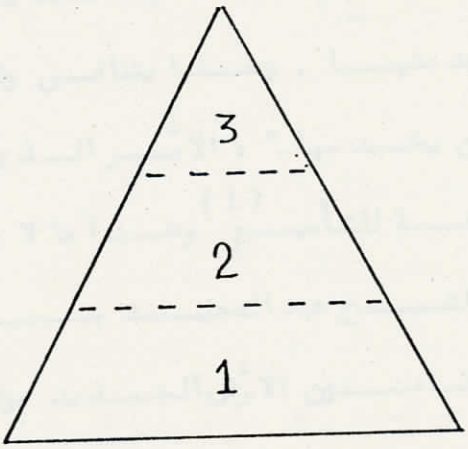
نصيبا ، فقبل الأخير لكن بشرط أن يرهن المدين الأرض ، فوافق عبد القادر تحت وطأة الحاجة ؛ "صادف أن كانت السنة عجفاء في كامل البلاد ، ولم يجن أحد حبة ولم يحتج أحد غربالا"[1] ، ولم يجد عبد القادر ما يسدد به الدين وتمكن الاقطاعي من الاستيلاء على الأرض المرهونة وضمها الى أملاكه دون مراعاة لأبسط القيم الانسانية وروابط القرابة . يقول عبد المجيد بوالأرواح عن ابن عمه : "عاجلته ، استعنت بأهل الحل والربط ، ربحت القضية خرج العدل المنفذ مع الجندرمة ، وطرد من أرضه . مائة هكتار جيدة . نصفها على الماء . حاول في السنة الثانية أن يسترد ها لكن المسألة لم تكن عبث أطفال."[2]

ان هذه الحادثة هي واحدة من تلك الحيل الكثيرة التي كان يلجأ اليها الاقطاع في الاستيلاء على أراضي الفلاحين الصغار وهي سبيل قائمة على الربا والحيلة والمراوغة ، وقد كان الاستعمار يعمل على تكريسها والابقاء عليها لأنها تثبت أقدامه وترهق الفلاحين حتى لا تقوم لهم قائمة ويتمكن بذلك من بسط نفوذه على الأرض ومن عليها .

1- المصدر السابق :ص: 61
2- " :ص: 61

الشـــكـــل الأول :

-كيـــف تـشـكل الاقـطـاع فـــي الجزائـر :



لعـــل هـذا الشكل يبين لنا كيف تشكل الاقطاع في الجزائر :

1- الاستيلاء غـلى قسم كبير من أراضي القبيلـة- بمؤازرة الاستعمار-

2- الاستحواذ على أراضـــي الفلاحين الصغار -عـــن طريـق الربـــا والحيـل والمـــراوغـــة .

3- الاستيـــلاء علـــى أراضـــي الاقـــارب.

3- الرفض المبدئي لقانون الثورة الزراعية :

ان بوالارواح - بحكم اقامته في الجزائر العاصمة وادارته لاحدى الثانويات بها - لا يخدم الارض بنفسه وانما يستغل جهود الفلاحين الفقراء في خدمتها . وهذا يتنافى وشعار الثورة الزراعية : " الارض لمن يخدمها " ، الامر الذى يسقط حقه في ملكيتها ويجعلها عرضة للتأميم (1) وهذا ما لا يمكن أن يقبل به ملاك عقارى كبير كالشيخ عبد المجيد بوالارواح . بل على العكس فانه يقف من قانون الارض الجديد موقفا عدائيا ، وذلك لما رأى فيه من خطر يهدد مكاسبه الطبقية ، وليس عجبا بعد ذلك أن يحمل البطل كراهية وحقدا على كل الاطراف التي تنتمي الى الثورة الزراعية ، سواء أكانت الساهرة على تنفيذها أم المستفيدة منها ، لذلك فان الاقطاعي " لا يقرر الاشتراك في النظام الجديد ، وعلى العكس فهو يحاول أن يبحث عن وسائل تحويل القانون لصالحه " (2).

وهو ما يؤكده الحوار التالي الذى دار بين البطل وصديقه بالباى :

" - قال بوالارواح : قرب أذنيك ، هناك مشروع الحادى خطير يهيأ في الخفاء .

تقول ؟

- نعم ينتزعون الارض من أصحابها ، ويفعلون بها ما فعلوا

بالأرض التي خلفها الفرنسيون . تصور الحقد ، الحسد ،كل انماء بما فيه يرشح .

ثم يضيف :

- جئت أسبقهم أقسم في الورق الأرض على الورثة حتى اذا جاءوا لانتزاعها ،لم يجدوا بين أيدى الشيء الكثير.

- لكنك يا الشيخ عبد المجيد بوالأرواح جئت متأخرا .

- في العاصمة كنا نظن أننا أكثر اطلاعا .(1)

لعل هذا الحوار يبين موقف البطل ازاء حركة التغيير الاجتماعي التي استهدفت مصالحه بالدرجة الأولى . لقد اهتزت الأرض تحت قدميه وأصبح حاضره ماضيا ، ويرى المستقبل غير واضح المعالم ، وهو الشيء الذى حرك في نفسه كوامن الخوف والقلق .

وتزداد مأساة بوالأرواح حدة عندما يعرف أنه آخر من يعلم بالأقانيم التي تتحكم في سير حركة التاريخ والمجتمع. ان الروائي يؤكد على أن بوالأرواح هو أجهل الناس بما يحدث: في الواقع اليومي المعيش - من تغيرات وتبدلات وتطورات - على الرغم من وجوده قرب المصدر الأساسي الذى تصادق فيه القوانين وهو الجزائر العاصمة . وقد عبر الطاهر وطار من خلال هذه المحاورة عن عزلة بطله واغترابه في المجتمع وعجزه التام عن تحدى نظام الأرض الجديد . وهو ما يفسره قوله :

1- المصدر السابق : ص 31

"قرب أذنيك"[1]. فهذه العبارة تدل على الخوف وعدم القدرة على التحدى . مما حتم على الاقطاعي اللجوء الى التحايل على القانون لأنه الحل الأمثل - في نظره - لدرء خطر التأميم الذى استهدف أراضيه وأقض عليه مضجعه وصار منشأ همومه ومحل تفكيره. ان التحايل على القانون يمثل أعلى مراحل الرفض بالنسبة للاقطاعي ، ولكنه ليس السلاح الوحيد المستعمل في المعركة بل ان هناك صيغ أخرى للرفض، منها :

- استغلال عامل الدين :

يشير السياق الروائي الى أن الاقطاعي قد لجأ الى نشر الاشاعات المغرضة للنيل من مشروع الثورة الزراعية قصد التأثير على الجماهير الفلاحية ، لحملها على رفض مشروع الاصلاح الزراعي الذى يعد في نظر الملاكين العقاريين مشروعا الحاديا يهيأ في الخفاء . انه مستورد من البلاد الشيوعية المعادية للاسلام. وهو ما يستوجب التصدى له دفاعا عن حرمات الدين والعقيدة . ويشير السياق الروائي أن بوالارواح كان يؤول الدين حسب هواه ووفقا لما تقتضيه مصالحه الطبقية في المجتمع أى أنه كان يأخذ من تعاليم الدين مبررات لانتمائه الطبقي.

1- المصدر السابق ص: 31

وهـــو مـــا يوضحـــه قولـــه :

" الـــشيء لمن يملكه ، والتمليك وارد في القرآن الكريـــم "(1)

لقـد وضع البطـل شعار الأرض لمـن يملكها ليواجـه به الشعار الـذى نـادت به الثورة الزراعيـة وهـو : " الأرض لمـن يخدمهـا " على نحو مـا يظهـر فـي هـذا النمونـولوج الداخلـي :

"الأرض لمـن يملكها . لمن يملكها ، وليس غير ذلـك ، وملكيـة الأرض لا تتـأتى لكـل واحـد ، كالموهبة ، كالذكاء ، كالعبقريـة . والأرض أرض وليس الا ملكيـة مجـردة فـوق الغـنى والفقـر . ملكيتهـا تعـني أكثر من ملكيـتهـا . الأرض أرض . انهـا الشـرف والسيـادة والسلطـة والارتقـاء الى مصاف الرسـل والأنبيـاء . . . "(2)

وانطـلاقا مـن تصـوره الخـاطيء لتعاليـم الديـن الاسـلامي الحنيـف فـان بـوالأرواح يعـد تسليـم الأرض للفـلاحيـن والخمـاسين تطـاولا وتعجيلا بقيام الساعـة مستشـهدا بحديث نبوى شـريـف يحـدد عـلامـات الساعـة ، اذ يـقـول : " صـدقت يـا رسـول اللـه ، يا حبيب اللـه . مـن علامـات قيام الساعـة أن يتطـاول الحفـاة العـراة رعـاة الشـاه فـي البـنـيـان وأن تلـد الأمـة ربتـهـا ، أن ينقلـب

1- المصدر السابق : ص: 13

2- " : ص: 136

الأسفل على الاعلى ، وأن لا يبقى هناك أسفل أو أعلى فتلك علامة قيام الساعة وها هي تحل . . . "(1)

لقد غدت الثورة الزراعية بدعة في نظر الارستوقراطية العقارية وخروجا سافرا عن تعاليم الدين وجبت محاربته والتصدى له . ولما لم تعد تملك الطبقة الاقطاعية القدرة على تنفيذ مشاريعها لجأت الى الدعاء على كل من لا ينتمي الى طبقتها - كدليل على فشلها في التأثير على الجماهير الفلاحية وهو ما يعبر عنه بوالأرواح بقوله :

"- وعدتك كبيرة يا سيدى راشد . . . اقض على الحكومة وعلى الفقراء والعمال والطلبة والنقابيين ، ابعث أمة ليس فيها سوى نحن السادة والاشراف"(2)

لعل هذه النظرة التشاؤمية التي بدأ ينظر بها البطل الى الواقع المتغير، والنزعة التدميرية التي ينطوى عليها كيانه تمثل أعلى درجات اليأس والقنوط التي آلت اليها حالته النفسية . وهي اشارة تؤكد عجز بوالأرواح التام عن تحقيق الذات أى بقاء الأرض والسيادة والنفوذ الاقطاعي . لذلك فهو لم يعد يملك سوى الكلام والحديث الذى لا ترجى منه أية فائدة . وهي وسيلة لجأ اليها المؤلف ليدلل على تفاهة حجج بطله الذى تلقى ضربة في صميم وجوده بتطبيق قانون الثورة الزراعية التي وضعت ازالة الاقطاع ، في مقدمة اهتماماتها .

1- المصدر السابق : ص: 114

2- " " :ص: 136

4- موقف الاقطاعي من هجرة الفلاحين الى المدينة :

لقد عرفت الجزائر ظاهرة الهجرة والنزوح الريفي وهي كما نعلم ظاهرة خطيرة - على جميع المستويات - فهي تشتت العائلات وتفكك الأسر وبالتالي تفضي الى أزمة في الانتاج الفلاحي وتولد الأغراض عن خدمة الأرض.

ولا تخفى على أحد الأضرار التي تنجم عن ذلك سواء في المدينة أم في الريف . لكن الاقطاعي لا ينظر في هذه الظاهرة الاجتماعية نظرة موضوعية تمليها المصلحة العامة بقدر ما تمليها مصلحته الذاتية المتفردة . ان بوا لرواح لا يروق له أن يهاجر الفلاحون من قراهم اذا ما ظلموا ولا يريد هم أن يغادروا بواديهم اذا ما استغلوا واستهلكت جهودهم وقواهم في سبيل اسعاد الأثرياء أصحاب الأرض ولا يرغب بأى حال من الأحوال أن يتفتح عمال الأرض على المدينة لأنه يعلم أن تفتحهم يعني بداية الوعي بأحوالهم السيئة ، والثورة على أوضاعهم المزرية . ان نزوح الفلاحين الى المدن يعني مغادرة الريف مغادرة نهائية لا عودة بعدها - وهو الأمر الذى يفرض على الحكومة ايجاد حلول لمشاكلهم والمتمثلة أساسا في القضاء على بواعث وأسباب الهجرة . وذلك بترقية الريف وتحسين أوضاع الخماسين

الاقتصادية والاجتماعية. وهذا من شأنه أن ينعكس سلبا على الملاكين العقاريين أمثال بوالأرواح ، مما جعله يضيق ذرعا بوجود الفلاحين في المدينة على نحو ما يظهر في قوله :

"...اللهم لا تبارك لهم في تجارة أو سعي ، واقطع دابرهم ، تركوا قراهم وبواديهم وجاءوا يتظاهرون أمام الحكومة بالفقر والعوز..."(1).

لقد أثار حضور عمال الأرض في المدينة مخاوف الاقطاعي وهو أحسن لأنه يعلم مسبقا أن بواعث النزوح الريفي انما تعود أساسا الى العلاقة الانتاجية الاقطاعية هيمنة الرثة التي تهضم الفلاحين حقوقهم ، وهو الشيء الذي يضطرهم الى البحث عن مصادر أخرى للرزق والعيش الكريم.

لعل تبرم الاقطاعي من الأوضاع الاجتماعية الجديدة في المدينة يعود بالدرجة الأولى الى تخوفه من بداية انتشار الوعي في الأوساط الفلاحية ، الأمر الذي يهدد مصالحه بالزوال ومركزه الطبقي بالانقراض على نحو ما يظهر في هذا المونولوج الداخلي ، يقول بوالأرواح :"...لا وحد الله لكم شملا ولا أبقى لكم سمعا. تركتم الخماسة

1- الزلزال :ص: 144

وأشغال الحلفة والصبار وحفظتم ألحان الشياطين وأقتحمتم المدن ..."(1)

وانطلاقا من موقفه الطبقي هذا فان البطل يرفض كل ما من شأنه أن يخدم الفلاحين ويرفع من مستواهم المعيشي مثل ديمقراطية التعليم ومجانية العلاج وغيرهما من المكاسب الوطنية والتي تدخل في صميم عملية التطور التي بدأت تعطي ثمارها الطيبة في المجتمع الجديد - وهو الشيء الذى أربك الاقطاعي وأقض عليه سمعه. وقد عد الاقطاعي كل مشروع يأخذ بعين الاعتبار مصلحة عمال الأرض خروجا عن المألوف، ونتيجة حتمية من نتائج هجرة الفلاحين (الرعاع) الى المدن. ولعل هذا المونولوج الداخلي يكشف بوضوح عن حقد بوالأرواح الطبقي على عمال الأرض، يقول: "... طبعا يكثرون، فالحكومة تجبر الأطباء على سعر معين يمكن الرعاع من العلاج، وتسهل لعملة الأرض التداوى بالضمان الاجتماعي الذى تمنحه لهم، تفكر في تعميم مجانية العلاج ... يسرقون من الأغنياء ويبذرون على الحفاة العراة الرعاة"(2) لقد حاول المؤلف اظهار النوازع الحقيقية التي تقف وراء تخوف الاقطاعي من نزوح الفلاحين من القرى الى المدن.

لقد استهل الروائي ظاهرة الهجرة الريفية اذن في اذكاء حدة التأزم النفسي لدى بطله المتداعي المنهار.

1- المصدر السابق: ص: 81

2- " " : ص: 74

4-صفات الاقطاعي المعنوية :

-التناقض الفكري :

ان أبرز ما يميز الاقطاعي هو اضطراب الشخصية ،كما هو واضح في الرواية . ان بوالأرواح يجمع بين فكرين متمايزين : الفكر العلمي والفكر الخرافي . ولعل هذه المفارقات الكبيرة التي يحملها البطل -تكون في حد ذاتها - من بين الأسباب التي تدمر كيانه الشخصي .

ان بوالأرواح تخرج في جامعة الزيتونة بتونس ، وحفظ القرآن الكريم وجالس العلماء وكافح مع ابن باديس (1) وهو يشغل منصب مدير ثانوية بأكبر مدينة بالجزائر هي العاصمة.(2)

لعل هذه المعطيات تؤكد على أن الشخصية المحورية لا يسعها الا أن تحمل فكرا علميا نيرا . ولكن يبدو أن الروائي قد عز عليه أن يتمتع البطل بهذه الصفات الحميدة فسلبه منها ووضعها موضع الشك . أى أن وطارا جعل من بوالأرواح انسانا متخلفا فكريا وحضاريا يؤمن بالخرافات عندما تتأزم حالته النفسية ويعجز عن التكيف مع الظروف الطارئة في المجتمع. يتجلى ذلك بوضوح من خلال توسلاته لضريح سيدى راشد علّه ينقذه من محنته ، يقول البطل :" يا سيدى راشد ، يا ولي الله ، قضيت تسع ساعات في الطريق قادما

1-الزلزال :ص: 13

2-المصدر نفسه :ص: 83

من العاصمة في هذا الحر لأمر يهمني ويهم جميع الصالحين الذين أورثهم الله أرضه . ولا أخفي عنك فأنت أعلم ما في النفوس جئت أقطع الطريق بين الحكومة وبين أرضي بتسجيلها على أقاربي . . . . وعدتك كبيرة يا سيدى راشد . شمعة بل علبة شمع . ان أوقفت هذا المشروع وحافظت لي ولعباد الله على أرضنا الهداية لا تنفعها سيدى راشد . . . وليس هناك سوى حلين : نار فتنة تأكلهم . زلزال عظيم يأتي على الرطاع الذين يفكرون في منحهم أرضنا . وعدتك كبيرة يا سيدى راشد "(1) .

والحقيقة أن الفكر العلمي والفكر الخرافي لا يلتقيان البتة ، ولكن الروائي مصر على الجمع بينهما عند بطله حتى تزداد صورته تشويها وقبحا في نظر القارئ ويبين سة التناقض التي تميز الذهنية الاقطاعية المتخلفة . ان اشراك الله في العبودية يتنافى والدين الاسلامي الحنيف الذى ادعى بوالأرواح الايمان به ، كما أن الخرافات والبدع تتعارض وما كان يدعوله ابن باديس من تنقية الدين مما علق به من شوائب عبر عصور التخلف . فكيف يدعي البطل أنه كافح معه حين يقول : " . . . وكافحنا مع الشيخ ابن باديس تغمده الله برحمته الواسعة . . . "(2) . لعل هذا يكفي دليلا على التناقض الفكرى والاهتزاز العقائدى الذى يميز شخصية الاقطاعي . ان الشيخ عبد المجيد

1- المصدر السابق :ص: 132-133

2- " " :ص: 13

بـــــوالأرواح " يصارع عقليتيـــن متـــناقضتين . عقلية القرون الوسطى التصميمية التجريديـــة ، وعقلية القرن الواحد والعشرين التكنولوجية"(1) ولعل هذا التناقض الصارخ الذى ميز شخصية بوالأرواح من المبررات الموضوعيـــة التي قادته في نهاية المطاف الى محاولة الانتحار ثم الجنـــــون .

- الدهـــاء والمكـــر :

حاول الكاتب أن يجعل من بوالأرواح نموذجا فريدا من النقـــاق والكذب . ان البطل - كما يؤكد السياق الروائي ذلك - يظهر عكس ما يضمر ان الاقطاعي لايتـــورع في استخدام الحيل والمراوغات من أجل الوصول الى أهدافه . فلسفته في الحياة نفعية شعارها الغايـــة تبرر الوسيلة .

- الشذوذ الجنسي :

ان أسرة آل بوالأرواح عديمة الأخلاق والضمير . حكم عليهـــا بالتفسخ والانحلال الخلقي . لقد ورث عبد المجيد بوالأرواح عن أسلافه الشذوذ والتفسخ ، كما ورث عنهم المال والأرض. يقول عبر هذا المونولوج الداخلي : " . . . زوجة أبي الصغرى كانت في السادسة عشرة . راودتني عن نفسها ، ما نعمت وما نعمت ثم سقت معها . . . "(2)

ويبدو أن الروائي قد اشتط به القلم فوقع في المبالغة والتهويل

1- المصدر السابق : ص: 5

2- " " : ص: 175

وافتعال الأحداث . وفي رأينا أن المبالغة تسيء الى العمل الابداعي وتفقده أهم خاصية يجب أن تتوافر فيه، وهي الموضوعية والاتزان في الطرح، حتى لاتختل العلاقة الجدلية لبين الشكل والمضمون، وتصبح بمقتضاها رؤية الأديب مضطربة مشوشة ينقصها الوضوح والصدق والاقناع. وقد كان بوالأرواح نذير شؤم بالنسبة لعدلة بوالأرواح قاطبة. فما أن ولد حتى حلت بالأسرة شتى أنواع المآسي والأحزان والآلام ودب فيها الخراب . وهو ما يوضحه البطل عبر هذا الحوار الداخلي .

" زوجة أبي الثانية كانت تقول عني : رأس البومة وجه النحس ، منذ برز الى الحياة برزت معه الآلام. كل مولود في البيت يموت . كل زوجة يتزوج عليها . أكل رأس زوجته ورأس أخيه . ثم ها هو يأكل رأس أبيه . سيأكل رأس كل من في البيت ويبقى وحده" كالتبيب لا جار ولا قريب". خراب بيت بوالأرواح سيكون على يده".(1)

ولم يكتف الروائي من تشويه صورة هذه الشخصية، بل ذهب الى أبعد من ذلك ، حيث نزع منها العاطفة الانسانية وجعل منها آلة صماء لا تشعر ولا تتألم كما يتألم البشر. يقول بوالأرواح : " بلغتنا أخبار موت أخي

1- المصدر السابق :ص: 178

الأكبر. لم أحزن . . .[1]

والحقيقة أن هذا الكلام لا يدل على القساوة وانعدام الرحمة في قلب البطل فقط ، وانما يدل على أن بوالارواح لا ينتمي الى الجنس البشرى . هذه هي أهم الصفات المعنوية التي نعت بها الروائي شخصية الاقطاعي . بالاضافة الى بعض الرذائل المبثوثة في ثنايا الرواية . وهي وهي صفات كان القصد من وراء عرضها وتفصيل القول فيها هو اعطاء صورة مهشمة ومشوهة لهذا النموذج البشرى الاقطاعي . وان كانت هناك كلمة لا بد أن تقال حول هذه الشخصية المقترحة في رواية الزلزال هي أن هذه الشخصية النمطية تكاد تفتقر الى الأصالة والصدق الفني . ولعل السبب في ذلك يرجع الى غلواء الروائي في رسمها وتحديد معالمها ، حتى غدت هذه الشخصية أقرب الى الشخصيات المصنوعة من ورق منها الى النموذج البشرى الذى هو غاية الفن وهدفه الأساسي . والحقيقة أن " الكاتب غير مطالب بغرض نماذج مصنوعة . . . تفتقد الى الاصالة الموضوعية لصالح قيمة فكرية معينة"[2] أو ايديولوجية تشغل اهتمام الروائي بالدرجة الأولى وتنعكس سلبا على ابداعه الروائي أن يكون متزنا وموضوعيا في رسم شخصياته الروائية وألا يجعلها خارقة تتحدى الواقع.

1- المصدر السابق :ص: 175
2- بافو جواد سه الزجاجي :الرواية العراقية وقضية الريف- ص: 322

5- مصير الاقطاع كما تقترحه الرواية :

يؤكد السياق الروائي في رواية الزلزال على أن البنية الزراعية القديمة في المجتمع الجزائرى قد بدأت تتمزق أشلاؤها شيئا فشيئا . وأن الاقطاع - باعتباره نظاما تجاوزه الزمن - قد أخذ نجمه في الأفول .

لقد لجأ الروائي - للتعبير عن هذه الفكرة - الى أسلوب الرمز والتلميح مما أضفى على الرواية شفافية وأى بها عن التقريرية والمباشرة والخطابية ولعل الجنون الذى أصيب به البطل هو رمز للامعقولية الفكر الاقطاعي (1) في جزائر ما بعد الاستقلال . ان بوالارواح وان لم ينتحر فانه فقد الكثير من امتيازاته الطبقية وهذا ما يدفع بنا الى القول ان وطارا يصور الأحداث في حدود الامكان ولا يتعداه الى التنبؤ الأكيد ، " لأن الاقطاع لم ينته في الجزائر في البدايات الأولى لتطبيق الثورة الزراعية " (2) وان كان قد تنبأ تنبؤا أكيدا باندثاره في نهاية الرواية وذلك عند ما حكم المؤلف على البطل بالعقم . وفي عقمه مؤشر لانقراض نسله ، ومآل الاقطاع الى الزوال

---

1 - سارى محمد : البعد الاجتماعي في رواية الزلزال . آمال . وزارة الثقافة والاعلام الجزائر . عدد : 46 . ص: 19

2- ى . عمار : اقتراحات منهجية وسوسيولوجية من تحليل لعقلية الاقطاعي في رواية الزلزال : ص: 39

في ظل التغيرات الجديدة في الريف الجزائري "وهذا يدل على رؤية وطار وواقعيته وتنبئه الصادق. فينتصر لمجتمعه ويرفض أن يكون الأبناء - وهم رمز المستقبل والحياة المتجددة - من نسل الاقطاعي. وهكذا وضع وطار بطريقة ذكية المسمار الأخير في نعش الاقطاع واصدار حكمه القاطع عليه بأن لا مكان للاقطاع في مجتمع الاستقلال."(1)

لقد استطاع الروائي عبر رؤيته الواقعية المتفائلة أن يرصد حركة المجتمع الجزائري المستقبلية بناء على المعطيات الظرفية الراهنة آنئذ والتي لا يمكن لوطار الفرار منها أو الانعزال عن تأثيراتها. اذ "ان الفنان الحق لا يكتفي بتفسير العام فحسب. بل يشارك في تغييره بشكل يحقق معه طموح الجماهير وأشواقها الى الحياة الأفضل، مشكلا ذلك العالم عبر الصورة الفنية البارعة التي تتضمن فكرته وبالتالي درجة انحيازه له."(2)

1- حزرلي عبد الحفيظ : صورة الجزائري في القصة العربية الجزائرية رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير - جامعة القاهرة (62-1976) كلية الآداب - ص: 284.

2- باقر جواد الزجاجي : الرواية العراقية وقضية الريف، دار الرشيد للنشر. بغداد - العراق - 1980 .ص: 245

6- الغاية من اختيار المكان :

ان اختيار الروائي - مدينة قسنطينة - مسرحا لأحداث روايته لم يكن عبثا ولا مجرد مصادفة وانما لضرورة موضوعية اقتضتها رؤية الكاتب الايديولوجية ومنظوره الفكرى .

ان مدينة قسنطينة أساسا عاصمة فلاحية (1) تتوافر على أراض خصبة استقطبت بعميم خيرها وسخاء عطائها كثيرا من الأسر التركية* التي استقر بها المقام فيها في فترة الحكم العثماني فكانت البذرة الأولى لميلاد الاقطاع في الجزائر وما استتبع ذلك من انقسام المجتمع الى طبقتين متمايزتين هما :

1- طبقة الملاكين العقاريين الذين يملكون وسائل الانتاج بما في ذلك الأرض.

2- طبقة عمال الأرض الذين لا يملكون الا جهدهم العضلي .

ولقد نشأت عن هذا التمايز الطبقي أخلاقيات اقطاعية تسودها السيطرة من جانب، والتبعية من جانب آخر، أى أن

1- الزلزال : ص: 10 .

* كان الاقتصاد الجزائرى (التقليدى) قبل دخول الاتراك الى الجزائر يتجه أساسا وليس كليا نحو الاكتفاء الذاتي ويقوم على قاعدة العمل الجماعي ولما جاءت الأسرة التركية الحاكمة الى قسنطينة - وهي - تحمل في أعماقها نظام الاقطاع الأسيوى - اقتطعت لنفسها أراضي خصبة - بحكم توليها زمام الأمور في البلاد - ولم تكن هذه الأسر التركية الحاكمة هي التي تستغل الأرض بنفسها بقدر ما كانت تستغل فيها جهود الفلاحين الجزائريين الفقراء .

العلاقة بين الطبقتين غدت علاقة العبد بسيده . ولعل ما يؤكد زعمنا هذا هو قول بوالأرواح ... كان أبي ... لا يرى في باقي الجزائريين الا خدما وعبيدا وأحجار وادد لا تصلح الا أن نمر فوقها . (1) من هذا المنظور الايديولوجي اتخذ وطار مدينة قسنطينة حيزا مكانيا لأحداث رواية الزلزال .

ان قسنطينة عرفت تحالف الارستوقراطية العقارية مع الفرنسيين في بداية غزوهم لشرق الجزائر وهذه حقيقة ثابتة تاريخيا . يقول عبد القادر جغلول : ... بعد أربعة أيام من من ثورة المقراني على المستعمرين ، كتب ابن (قانة) - وهو مالك عقارى كبير - الى الأميرال (قيدون) يقول له : نحن من أقدم الخدام للحكومة الفرنسية ، ولقد علمنا أن محمد بن أحمد المقراني قد تمرد ، وعلى كل حال سنبتعد عنه ونحاربه كما لو كنا فرنسيين . وطلب أعيان منطقة قسنطينة من السلطة الفرنسية الوقوف ضد الثائرين : ان القمع القاسي والصارم يجعلهم في حالة خوف وذعر ويجعل حياتهم مروعة ، فالقوة والشدة وحدها تستطيع أن تنتصر على طبيعتهم (2) .

3- من الأبعاد المضمونية لدلالة المكان - أيضا - في الزلزال ، أن

1- الزلزال :ص: 175

2- ينظر : عبد القادر جغلول : تاريخ الجزائر الحديث :ص: 128 .

قسنطينة تعد رمزا للمجتمع الجزائري برمته وما كان يصطرح في رحمه من صراعات وتناقضات ومشاكل - موروثة عن الاستعمار البائد - تتطلب حلولا سريعة - كانت الثورة الزراعية احداها - بل ان رمز المدينة يتخذ أبعادا أكثر شمولا واتساعا عندما تغدو - قسنطينة - معادلا موضوعيا للعالم - الثالث - المتخلف القائم اقتصاده على الزراعة بالوسائل البدائية المتخلفة، ان هذا العالم أصبح مهددا بأخطار مستفحلة كالجوع والفقر والبطالة... والتبعية الاقتصادية، ان وضع هذا العالم يستوجب اعادة النظر في نمط العلاقات الانتاجية القديمة... واقرار علاقات جديدة على أنقاضها تكون لصالح الطبقات الفلاحية الفقيرة - التي تمثل نسبة كبيرة في هذه المجتمعات وتحتل قاع السلم الاجتماعي فيها . لعل ذلك يظهر بجلاء من خلال الحوار الذى دار بين طالبين جامعيين - انظر - انظر هذه عاصمة فلاحية . انها الجزائر كلها . انها افريقيا كلها . انها آسيا برمتها . انها العالم المتخلف القائم على الفلاحة . يشتغل فيه الناس أربعين يوما في الشتاء وأربعين يوما في الخريف ، ويظلون باقي السنة يجولون .

-لابد من مراجعة عاجلة دقيقة وجريئة.(1)

وعلى الرغم مما يبدو وعلى هذا الحوار من تكلف وابتذال الا أنه يكشف لنا عن بعض الأسباب التي حدت بالروائي الى اتخاذ قسنطينة مكانا لروايته هذه ، ومنها أن شكل قسنطينة المعمارى ، ووجودها على صخرة يوحي للبطل بدمارها بين لحظة وأخرى . على نحو ما يظهر في قول بوالأرواح :" آه ، فوق هذه الصخرة المخربة بالطرقات والأنفاق ، تقوم مدينة يسكنها نصف مليون من البشر ... يكفي أن تنزلق غرانيتة ، أو قطعة اسمنت أو جزء من صخرة حتى يتبع الباقي . ترى بأى منطق سمح الانسان الأول لنفسه ،بالسكن في هذا الخطر".(2) ان وضع قسنطينة العمراني ساعد على ذكاء حدة التأزم النفسي لدى بوالأرواح وكان عاملا فعالا في تدمير كيانه.

-كما أن مدينة قسنطينة عرفت زلزالا مدمرا في سنة 1948 . وكان بوالأرواح قد شهد جانبا من أهواله وهو ابن العشرين من عمره ، الأمر الذى جعله

1- المصدر نفسه : ص: 188، 189

2- " " : ص: 48

أكثر الناس تخوفا من الزلزال ، يقول البطل : "عندما زلزلت قسنطينة في سنة 1948 ظن الناس أنها ستنتهي . كنت صغيرا ولا أذكر الا أمواج الخلق هاربة في اتجاه مستغيثة بجميع اللغات . أنا كنت في العشرين ما أزال أرى بين عيني الآن جثث مئات ومئات الأطفال ملقاة في الأنهج بعضها داسته الأقدام فحولته الى شريحة لحم ، وبعضها لا تزال فيها الحركة وبعضها لا تزال سليمة كان الناس يجرون في هلع كبير . ما زلت أسمع وقع الأقدام وصراخ النساء والأطفال"(1).

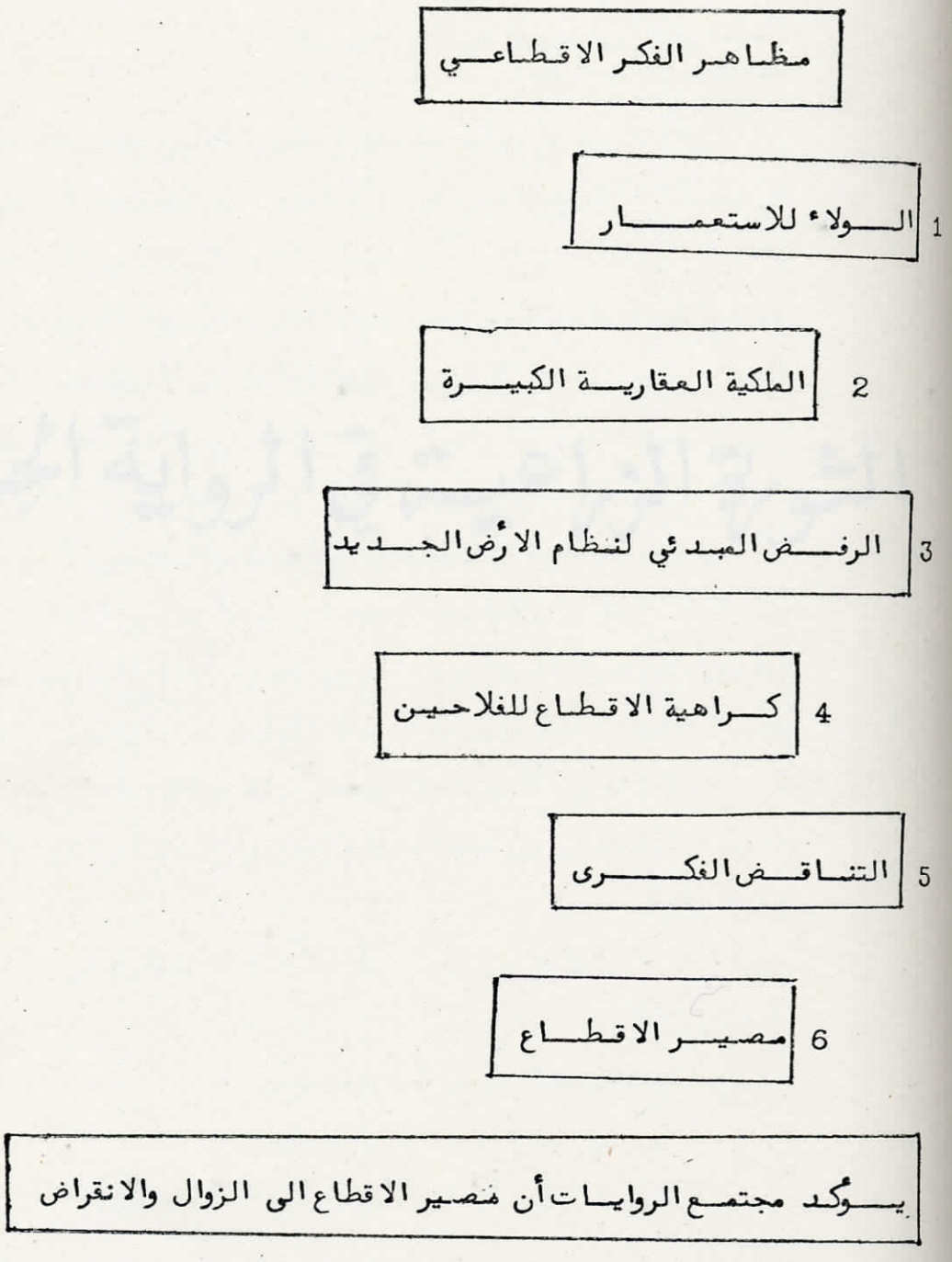
لقد ربط الروائي بين الزلزال الطبيعي الذى حدث في مدينة قسنطينة والزلزال النفسي الذى بدأ بوالأرواح يحس بوطأته والذى مرده في الأساس الى ظهور قانون الأرض الجديد .

ان الزلزال في حقيقة الأمر ما هو الا - تدمير عالم كان قائما واقامة آخر على أنقاضه . فالرواية تشير - بطريقة مجازية - الى أن زلزالا كبيرا أصبح وشيك الوقوع ، وهو لا يقل خطرا عن الزلزال الطبيعي الذى عرفته المدينة - يدمر نظام الأرض الرث - الذى تحكمه الأخلاقيات الاقطاعية - ويفسح المجال أمام نظام جديد هو الثورة الزراعية . من هذا المنظور فان الزلزال - في الرواية - هو رمز للثورة التي يعلنها الحديث الروائي كوعي ممكن ، وديمقراطية لا توجد ولكنها في طريق الولادة.(2)

1- المصدر نفسه :ص:205

2- ينظر : سعيد علواش: المرجع السابق :ص:69

الشكل II


مظاهر الفكر الاقطاعي
1 الولاء للاستعمار
2 الملكية العقارية الكبيرة
3 الرفض المبدئي لنظام الأرض الجديد
4 كراهية الاقطاع للفلاحين
5 التناقض الفكرى
6 مصير الاقطاع
يؤكد مجتمع الروايات أن مصير الاقطاع الى الزوال والانقراض

الثورة الزراعية في الرواية الجزائرية

الثورة الزراعية في الرواية:

ان الغاية من وراء تطبيق الثورة الزراعية- كما هو معروف- هي بناء الفلاح الجزائري وادماجه في المجهود الكبير من أجل تنمية البلاد . واذا كان معيار الأدب الروائي المعاصر يكمن في مدى تأثره بالسمات المرحلية التي يمرّ بها المجتمع ، والتعبير عنها برؤية بناءة وعبر الشكل الفني المناسب ، فهل تمكن الروائيون الذين تناولوا موضوع الثورة الزراعية من ادراك هذه المسألة بعمق ، وتمثلوها بصدق فني ؟ وهل اتسمت رؤاهم بالموضوعية والشمولية والعمق والوضوح ؟ أي هل تمكنوا من اخفاء الذات وتحقيق الالتحام بينها وبين الواقع ؟ أم انهم اتخذوا من هذا الموضوع الحيوي مجرد أداة للتبشير بأفكار مجردة تشغل اهتمامهم بالدرجة الأولى ؟ أو بتعبير آخر، هل كانت نتاجاتهم الأدبية نابعة من واقع الريف في الجزائر ، محاولة التعبير عن خصائصه المميزة له . أم انها كانت غريبة عنه؟

وفي محاولة للاجابة عن بعض هذه الأسئلة ، نتناول في هذا الفصل المحاور التالية:

1 - الأرض من منظور ايديولوجي .
2 - الهجرة من الريف الى المدينة .
3 - الثورة الزراعية وأثرها في المجتمع .

1- الأرض من منظور ايديولوجي :

يتناول الطاهر وطار في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي" (*) مرحلة دخلت فيها الثورة الزراعية حيز التطبيق . " وتتميز هذه المرحلة بجانب من الأهمية ، بحيث لا يكتفي فيها بتأميم الأرض فحسب بل تستهدف احداث الظروف لاستثمارها من قبل الجماهير الفلاحية التي طالما حرمت من التطور والترقية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية" (1). ولقد عرفت هذه المرحلة - بالذات - خروج أفواج الطلبة المتطوعين بقصد شرح ميثاق الثورة الزراعية وأبعادها للفلاحين المستفيدين منها .

ويلاحظ الباحث أن المسار الذهني هو الذي استقطب كل أحداث الرواية ، وهو الذي أجج نار الصراع فيها . بمعنى أن الصراع الايديولوجي هو المادة الحية التي تشكل الخيوط الناسجة لمضمون الرواية . ولقد حدد الروائي أطراف الصراع بشكل واضح وحاسم فكان الصراع محتدا بين اليساريين - أي الشيوعيين - وهم الطلبة المتطوعون لصالح الثورة الزراعية ، وبين أصحاب الاتجاه اليميني المضاد للاتجاه الأول . وهو ما يؤكده المؤلف نفسه بقوله :

" ... الشيوعيون موجودون في شروط معركة جديدة هي معركة الثورة الزراعية ، والقضاء على الاقطاع بالاشتراك مع الوطنيين ، والثمار

(*) - الطاهر وطار : رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " . دار ابن رشد للطباعة والنشر . بيروت . لبنان . ط 1- 1980

2 - ميثاق الثورة الزراعية .

الطيبة للثورة الوطنية... والعنصر المعارض للشيوعيين والوطنيين معا..." (1) المتمثل أساسا في المتمسكين بالاتجاه اليميني المشار اليه سلفا.

ان الصراع في هذا النتاج الأدبي هو صراع ايديولوجي بحت، وان كانت الثورة الزراعية هي المنطلق، لذلك لا يمكن لنا دراسة الأرض في هذه الرواية الا من خلال تحديد السمات المميزة لكل اتجاه من الاتجاهين المتطاحنين.

1- الاتجاه اليساري :

ان من أبرز من يمثل هذا الاتجاه هي جميلة- الشخصية الاستقطابية في الرواية- التي تقود أفواج الطلبة المتطوعين. ويبدو أن هذه البطلة ترمز الى الحركة الوطنية الجزائرية "ليرتبط اسمها بالجميلات السابقات، بوعزة، بوحيرد وغيرهما" (2). انها تمثل حلقة التواصل الثوري - في نظر المؤلف- والذي حاول "أن يكشف الضغط اليميني الذي تعرضت له بطلته جميلة، والذي قادها في نهاية المطاف الى أن تكون ثورية عمالية" (3)، أي ماركسية لينينية. انها تمثل بذلك الوريث الشرعي لدم زيدان (*) وامتداده

1- ينظر: مجلة الطريق. ع 3 / 4 أوت- سبتمبر 1981 - . ص: 193

2- م. س. : ص: 63

3- المرجع نفسه : ص: 193

* - زيدان هو الشخصية النمطية التي تنبني عليها أحداث رواية اللاز. هو المناضل الشيوعي - في نظر الروائي - الذي تعرض لممارسات قمعية كانت نهايتها الموت.

الطبيعي . من هذا المنظور فان جميلة لا تمثل نفسها بقدر ما تمثل الفكرة الايديولوجية التي تشغل اهتمام الروائي بالدرجة الأولى ، والتي يتنبأ بانتصارها في نهاية المطاف ، انطلاقا من قناعته المذهبية : " انك يا جميلة منتصرة ، قهرت الظروف والمحيط والذات ، انعتقت تماما حتى بلغت حدّ النضال من أجل اعتاق غيرك ، اعتاق الجزائر من هيمنة الاقطاع وتسلط الاستغلاليين . اعتاق الانسان الجزائري من الاستغلال والظلم والعسف " (1) وعلى الرغم مما يبدو في هذه الفقرة من تقريرية وخطابية - وهي ظاهرة مسيطرة في الرواية - الا أنها استطاعت أن تحدد لنا البعد الايديولوجي الذي ترمز له هذه البطلة . لذلك نلاحظ أن الروائي قد أضفى عليها صفات أقل ما يقال فيها انها تتميز بالايجابية المطلقة . ومن أبرز سمات هذه الشخصية :

أ) - التواضع :

ان أهم ما تستميز به جميلة : التواضع ، ذلك أنها لم تكن تربأ بنفسها عن أن تكون في مستوى الطلبة والطالبات الذين كانت ترأسهم . ولعل هذه المقطوعة الحوارية توضح ما ذهبنا اليه :

" - المقعد الأمامي أريح ."

"- هيا تفضلي من هنا ."

" - في الحق يا جميلة ، هذا مكانك أنت ."

" - الأندروفير تهتز من الخلف بعنف . "

لم تجب جميلة السائق وبعض زميلاتها ولم تتنازل للاطاح الصادق ، وتهالكت في الخلف ... " (2) .

---

1 - م . س . : ص : 2 - م . س . : ص : 34

ب) ـ التضحية والتفاني في العمل :

ومن أبرز السمات التي تتسم بها جميلة: التضحية والعمل الدؤوب من أجل نصرة الثورة الزراعية وكل المكاسب الاشتراكية الأخرى . يتضح ذلك من خلال هذا المونولوج الداخلي ، يقول السائق :

" جميلة مريضة ، ولم تشأ أن تتخلف عن زميلاتها . تصر على المساهمة في زرع البطاطس . ألحت عليّ كثيرا في أن أحضر مبكرا وأقصد بهن الحقل مباشرة ، ثم أعود فأحضر زملاءها . وها هي تستعجلني لمواصلة الطريق . لا أدري ما سرّ ذلك . أم انها تريد أن تستبق الذكور في الحقل حتى تتباهى بأنها متحمسة أكثر منهم في العمل اليدوي ..." (1)

ج) ـ الثقافة العلمية والوعي النضالي :

ان معطيات الرواية تؤكد أن الجامعة قد أسهمت في بناء ثقافة جميلة ، وفي تعميق مداركها العلمية ، وهو الشيء الذي يؤهلها لتحليل معطيات الواقع الراهن تحليلا علميا مبنيا على الادراك الواعي والفعلي لدقائق الأمور ، بعيدا عن العشوائية والارتجال . ولعل ذلك يظهر من خلال هذا السياق . تقول جميلة لزملائها وزميلاتها في التطوع :

" ... استراتيجيتنا واضحة . دعم وانجاح الثورة الزراعية . ولا غير . يجب أن نقنع جميع الناس بهذا ... ليس المهم أن نغرق في الحركية ، محاولين البرهنة على أننا أكثر الفئات الاجتماعية ثورية ، واقتناعا بالثورة الزراعية . انما وقبل كل شيء أن نضمن التجنيد الواسع ، لكل

---

1 — م . س . : ص : 20

أنصار الثورة الزراعيـــة ... " (1). كما أن الممارسة النضالية في الميدان - الى جانب عمال الأرض - قد أسهمت بقسط وافر في تعميـــق وعي البطلة النضالي . ويبدو أن الروائي كان يهدف من وراء هـــذه النعوت والأوصاف الى التأكيد على أن بطلته قد استطاعت أن تثبـــت احتكاك الفعل بالواقع، والنظر بالممارسة، والفعل بالعمل ، مما دفـــع الفلاحين الى مساندتها وتقديم العون لها والتضامن معها . ولعـــل تصريح هذا الفلاح يؤكد صحة قولنا :

" ... جميلة أعرفها . لقد تطوعت في قريتنا كثيرا ، وكل الناس فـــي الحقيقة يعرفون جميلة . انها أشهر من جميلة بوحيرد وجميلة بوعـــزة وغيرهما من الجميلات الأخريات ... " (2)

والحقيقة أن الروائي لم يكتف بهذه الخصال الحميدة والايجابية التـي أضفاها على هذه الشخصية ذات الاتجاه اليساري ، بل يضيف الـــى ذلك سمتين اثنين تتسم بهما جميلة ، وهما :

د)- الذكاء المتقـد : ان جميلة تتمتع بذكاء حاد وبقدرة عجيبـــة على التلاؤم مع المواقف الطارئة بتبصر وروية وشجاعة قلّ نظيـــرها في الكـون .

هـ) - جمـال الخلقـة : ان جميلة على قدر كبير من الجمال المطلق . تزيده زرقة عينيها تألقا واتقادا : " جميلة هذه الرائعة ، " تذيـــب المرء ... تخدره ... جميلة تفتـــن ... " (3)

1- م . س : ص : 71

2- م . س . ص : 93

3 - م . س . ص : 103

ان جميلة - في نظر المؤلف - كلّ متكامل ، بلغت حدّ الكمال النهائي ، وهو الشيء الذي يؤهلها أن تتبوأ مكان الريادة والقيادة في المجتمع . وما جميلة الا المد الشيوعي في الرواية ، وهو ما حمل الروائي على التعاطف معها تعاطفا كبيرا ، بحيث أضفى عليها صفات الكمال المطلق ، لا يمكن بأية حال من الأحوال أن تتواجد مجتمعة في مخلوق بشري على وجه هذه البسيطة . وفي رأينا أن مثل هذه المبالغة التي سقط الروائي فيها بسبب حساسيته الايديولوجية المفرطة ، قد أساءت الى عمله الروائي اساءة بالغة ، وأفقدته أهم خاصية يجب أن تتوافر فيه ، وهي الاقناع الفني والتبرير الموضوعي . لقد ابتعدت البطلة من جراء هذه المبالغة عن الشخصيات الواقعية التي نصادفها في حياتنا اليومية وتحولت الى مجرد أفكار - تشغل اهتمام الروائي بالدرجة الأولى - قد لا نجد معادلها الفني الذي يقنع المتلقي ويستميله .

ان الرواية - كما سبق القيل - شديدة الشبه بالحياة ، لذلك يجب على الروائي " أن يقدمها وكأنه شاهد أمين يخاطب جمهورا لَبِقًا ، وصينًا ، هذبته التجارب وصقلته الثقافة ، ومن هنا يجب أن يبدو موضوعيا ليكتسب رضاه ويجتذبه " (1) ، ذلك أن " الفن الروائي ذاته يلزم الكاتب أن يكون موضوعيا لأنه ببساطة فن الحياة ... وما من كاتب مرموق زعم أن ذاته - أيا كانت تجربة وثراء - يمكن أن تكون بديلا عن الحياة كلها " (2)

---

1 - جواد الطاهر : مقدمة في النقد الأدبي : م.ع.د.ن. بيروت - ط 1 - 1979 ص : 226

2 - عبد الجبار عباس : في النقد القصصي : دار الرشيد للنشر . العراق ص : 123

- حلفاء الاتجاه اليساري :

تؤكد معطيات الرواية أن هناك فئات اجتماعية تدعم الثورة الزراعية وتساند الطلبة المتطوعين لصالحها ، ومن أهمها :

1 - الطبقة الفلاحية : تعد الطبقة الفلاحية في الريف الجزائري أكثر أكثر الفئات الاجتماعية تضررا من علاقات الانتاج الزراعية التي كانت سائدة قبيل ظهور نظام الأرض الجديد ، وهو ما يشير اليه هذا السياق :

" ... ان هؤلاء الفلاحين لا يملكون من صفة الفلاح سوى الاسم . فهم في الحقيقة ليسوا سوى الأجراء الموسميين، الذين ينطلقون من المغاور والجبال ، وفي السهول والسهوب بحثا عن أي عمل . وبما أنهم ريفيون فقد أطلقت عليهم هذه التسمية ... " (1)

تلك هي البروليتاريا الفلاحية الرثة التي كانت تمثل الأغلبية في المجتمع ، وتحتل قاع السلم الاجتماعي فيه . ويرى المؤلف ان هذه الفئة المسحوقة - بحكم انتمائها الطبقي - تؤيد فكرة التطوع وتدعم قانون الأرض الجديد الذي يعكس تطلعاتها المستقبلية المشرقة . ويبدو أن الروائي كان يحاول جهده تأكيد تعاطف عمال الأرض مع المتطوعين . يقول عبر هذا المونولوج الداخلي لأحد الفلاحين : " ... المساكين يتركون منازلهم وأهليهم، والراحة من عناء الدراسة ، ويأتون الينا ، ليقدموا

---

1 - م . س . ص : 20

لنا يد الاعانة، ويزرعون معنا البطاطس والثوم والبصل، يعيشون أسابيع شبه جائعين، ثم يعودون. يعطونهم ثلاثمائة دينار اعانة لكن يأكلون منها ويشربون ويدخنون. ولعلهم يوفرون منها ما يعوض لهم أحذيتهم التي يقضون عليها وسط طيننا وأوحالنا. انهم مجاهدون حقا. ثوار يستحقون الدعم والاعانة..." (1).

لعل هذا النص يوضح لنا بشكل جلي تعاطف البروليتاريا الفلاحية مع أفواج الطلبة المتطوعين لصالح الثورة الزراعية. والحقيقة أن مثل هذا التعاطف ظهر في مواطن كثيرة من الرواية، وهو أمر تفسره رغبة الروائي في تبيان مواقف القوى الخيرة، صانعة المستقبل، واحلائها ممثلة في الطبقة الفلاحية التي وجدت في الثورة الزراعية ملاذا لأحلامها الطبقية ومخرجها الوحيد، مما كانت تعاني منه من بؤس وشقاء. واستنزاف لطاقاتها على أيدي الملاكين العقاريين الذين يمثلون الأقلية القليلة في المجتمع الجزائري.

2 - الشعب:

يشير السياق الروائي أن الثورة الزراعية مطلب جماهيري نابع من ارادة الشعب - قبل أن تكون قرارا سياسيا - . لذلك فهو يؤيدها ويبارك التطوع - المثل الأعلى للتواصل الثوري - . يرمز الروائي الى ذلك من خلال شخصية اللاز. هذه الشخصية التي تحمل على جبينها أفق التحول. تقول جماعة من الفلاحين: "أرأيتم اللاز. سيدنا اللاز. انه

1- م. س. : ص: 92

لأول مرة منذ الاستقلال ، يمد يده لانجاز عمل ما . اللاز سيدنا يبارك الثورة الزراعية يا ناس ، ويبارك التطوع " (1)

يلاحظ أن المؤلف قد جرد شخصية اللاز لكي يجعلها تتجاوز واقع حالها الفردي لترمز الى ما هو أشمل الى الشعب ، صانع المستقبل ." (2)

3- المثقف الواعي :

لم يكن المثقف - وبخاصة الروائي - يعيش خارج حلبة الصراع الذي كان يعتمل في رحم المجتمع غداة ظهور قانون الثورة الزراعية ، بل ان المبدع كان ملتحما بالجماهير ، معبرا عن قضاياها المصيرية . لأن هذا المبدع واحد من المناضلين ، له نصيبه من المبادرة والمسؤولية ، وهو مطالب ككل انسان آخر ، لا بالاكتفاء بتفسير العالم ، ولكن بالمشاركة في تغييره . ولعل خير من يؤدي هذا الدور المؤلف نفسه ، انه العراف والموجه الروحي لمسيرة الثورة الزراعية . يستنتج الباحث ذلك من خلال المحاورات والنصائح الكثيرة التي كان يقدمها الى جميلة . وسنكتفي بواحدة منها . يقول الروائي : " ... أدركي ياجميلة بكل عمق . بكل الأعماق أنكن متطوعات (وأن من يغمض عينيه قصدا كيلا يرى الحقيقة ، لا يمكنه أن يظل بعد هذا)[1]. أدركي ياجميلة أن التطوع مهما كانت قيمته ، ودون أي استنقاص لقيمته ليس أبدا أداة لاقتحام الأزمنة . انه ليس سوى مديد العون ، والا أصبح تعويضا دونكشوطيا . هذا كل ما في الأمر ، وكل محاولة لكسب الأنصار يُمَدِّدَ العون لا تعني سوى التطفل والانتهازية . (مع العلم أن الانتهازية الشريفة هي أخطر الانتهازيات) " (3)

---

1 - م . س . : ص : 40 - م . س . : ص : 219 - م . س . : ص : 55

2 - (أ + ب) قولان للمنظر السوفياتي المعروف لينين : المختارات . م 2 - ج 1 أين السلطة وأين الثورة).

ان التطوع مهما كانت قيمته - في نظر المؤلف - ودون أي استنقاص لقيمته، يجب ألا يكون غاية في حد ذاته، بل يجب أن يغدو وسيلة لتدعيم المكاسب الثورية في المجتمع، والا تحول هذا التطوع الى أداة هدامة تسهم في تكريس الواقع الاستغلالي وتحول دون انتشار المد الثوري ، وتحقيق العدالة الاجتماعية التي هي هدف الثورة الزراعية وغايتها المثلى. والحقيقة أننا آثرنا نقل هذا النص الطويل بتفاصيله لأهميته في كشف طغيان الجانب الايديولوجي في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي". ويبدو ان سيطرة المنحى الذهني - بشكل مكثف - في الرواية، قد تترك بصماته السيئة على الناحية الفنية، اذ اهتزت بموجبه العلاقة الجدلية القائمة بين شكل الرواية ومضمونها، وطغت الذات على الموضوع استحالت الرواية على إثره، أو كادت إلى خطب سياسية ووعظية مكشوفة، تفتقر الى الايحاء والشفافية التي تجعل الأفكار مستساغة ومقبولة فنيا. والواقع انه يجب على الروائي " ألا يهتم بمفاهيم مجردة ومبادئ عامة بل عليه أن يهتم بالأشكال الحية التي تظهر من خلالها الأفكار، ويستطيع الأديب من خلال هذه الأشكال أن يدرك ويعبر عن معناها الداخلي بشكل أسرع وأوضح من تعريفها عن طريق العقل " (1) . ويبدو أن طغيان الجانب الفكري في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " قد أثر على رؤية المؤلف لواقعه الذي يتعامل معه، بحيث غدت هذه الرؤية مشوشة تفتقر الى كثير من الوضوح ، مما جعل الشخصية الروائية مسطحة لا تمثل الا جانبا أحاديا من الفكرة التي أراد المؤلف التعبير عنها.

---

1 - أوفسيا نيكوف: موجز تاريخ النظريات الجمالية. ت. بسام القاق. دار الفرابي. بيروت. 1979 - ط 2 . ص: 411

2- الاتجـــاه المضـــاد في الروايـــة:

ان جماعة " حزب الله" هي التيار المعارض والرافض للشيوعيين والوطنيين معا. ان هذا التيار اليميني - في نظر المؤلف - يمثله مطفى - الطالب بكلية العلوم، كما يظهر ذلك من خلال قوله :

" ... علينا أن نتصدى (للشيوعيين) . نسفههم، ونؤلب الرأي العـــام ضدهم. المهم أن نثير معهم معركة. نصطدم بهم، وهذا أهم دور نقوم بـــه نحن. أتفهمون؟ اننا قلة. كذا كان الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام في غزواته. نحن سبعة وهم قرابة السبعين . واحد مقابل عشرة. غـــزوة بدر فلتكن كذلك ... ان اللصوص دائما جبناء، وهؤلاء لصوص يريدون أن يسرقوا منا عقيدتنا، ويعطوه لموسكو... " (1).

ان مصطفى هو الشخصية المناقضة لجميلة - الماركسية اللينينية- ولقد أضفى الروائي عليه صفات كلها شائنة، منها :

أ) - القبـــح : لم ذا كانت جميلة - الشيوعية- على قدر كبير من الجمال الفاتن ، فان البطل المضاد، على العكس منها تماما. فهو قبيح الخلقـــة، تنفر منه النفس وتشمئز ، " كان رقيقا، طويلا ، نحيفا ، محوق العينيـــن. جاف الشفتين كما لو أنه لم يذق طعما للنوم ليالٍ عديدة... " (2). ومن الصفات الذميمة التي ثلب الروائي بها هذه الشخصية الكبت والشذوذ الجنسي ، فهي تصاب من جراء ذلك بالصرع - غير ما مرة- (3). ان مثـــل هذا الوصف الحاقد، المبالغ فيه، ينم عن رفض المؤلف لهذا النموذج المقترح في النزعة اليمينيـــة.

1- م . م . س . : ص: 129 2- م . ن : ص: 38. 3- م . م . س . : ص: 131

ب) الروح الأبوية المتعالية:

لم يكن مصطفى متواضعا كما كانت جميلة، بل انه كان متعاليا ذا روح أبوية يعمل دوما على فرض سيطرته ونفوذه على زملائه الستة. فهو لا يحترم آراءهم ولا يترك لهم حرية التصرف، على نحو ما يظهر في الفقرة التالية:

" جمع مصطفى أصحابه الستة لأداء صلاة المغرب وصلاة العشاء، تردد بعضهم فهددهم بنظرة مخيفة... الى المسجد أمامي ... " (1).

ان جملة " الى المسجد أمامي " وظفها الروائي ليشير من خلالها الى استبداد هذه الشخصية وتسلطها ورفضها لمبدأ ديمقراطية الرأي، وحرية الاختيار. ذلك أن مصطفى يحاول دوما أن يكون الآمر والناهي والموجه في آن واحد، دون مشاركة رفاقه، وهو الشيء الذي حمل بعضهم على التخلي عنه والانضمام الى الاتجاه الآخر الذي تمثله جميلة ورفاقها في نهاية المطاف.

ج) - التزمت:

ان مصطفى - كما يشير الى ذلك السياق الروائي - شخص متزمت لا يساير الركب الحضاري للمجتمع الذي يعيش فيه، الآخذ في التطور والرقي. ان هذه الشخصية تجدف عكس التيار، ولعل ذلك يظهر بشكل جليّ من خلال موقفها الرافض لمشاركة المرأة في الحياة العملية، بله، فانها تعدّ مساهمتها في الحياة الاجتماعية شذوذا عن الأخلاقيات الدينية ووصمة عار في جبين الرجل. يقول مصطفى: " ... أمن الحق

---

1 - م. م. س. : ص: 101، 102

أن تفقد المرأة ما ميزها الله به، وتدوس على الشرف والرجولة، والكرامة، والأمومة، والأخوة، وتخرج الى الشارع دابة ضائعة، عرضة للنهش والافتراس؟ الرجال قوامون على النساء، الرجال قوامون على النساء، صدق الله العظيم ." (1) .

ان رغبة مصطفى الملحة هي أن تبقى المرأة على ما هي عليه، انه ينظر الى ضعفها على أنه جوهري وليس عرضي، وبالتالي يجب اخضاعها لسلطة الرجل والا أصبح المجتمع عرضة للتلف والانهيار. ان مثل هذه النظرة المتزمتة تدل على أن صاحبها يعيش بأفكار موغلة في التخلف لا تتناسب ومعطيات الواقع الراهنة، بل انها تعود الى غابر الأزمان. وفي رأينا أن الروائي يقع في خطأ منهجي كونه جمع بين النقيضين العلم والتخلف. فهل يعقل أن يكون مصطفى، طالب كلية العلوم - بوجه خاص - متزمتا ومتخلفا الى هذا الحد؟! اذا كان الواقع الاجتماعي المعاش يقبل بمثل هذا التناقض، وان كان نادرا جدا - فان الواقع في الفن لا يقبل بذلك على الاطلاق، بل انه يعدّ خطأ يحاسب عليه الروائي.

د - العداء للثورة الزراعية:

اذا كانت جميلة تؤمن بعدالة الثورة الزراعية، وتحاول جاهدة تكريس مبادئها، فان مصطفى على النقيض من ذلك تماما. وانطلاقا من اقتناعه الايديولوجي، فانه يرفض الثورة الزراعية

---

1 - م. م. س. : ص: 110

رفضا مبدئيا، بله، انها ـ في نظره ـ كفر وتخطٍّ لحدود الله. ان نظام الأرض الجديد ـ كما تعتقد هذه الشخصية ـ مشروع إلحادي يخالف الفطرة البشرية التي جبلت على حب الكسب والتملك، « ... انه ما جاء به كتاب الله العزيز. هل حرم الله الكسب؟ هل أمر الله بأخذ أرزاق الناس بالباطل؟ ألم يقل سبحانه وتعالى: « وفضلنا بعضكم على بعض في الرزق درجات »؟ صدق الله العظيم » (1) وبناء على هذا التصور الخاطئ لتعاليم الدين والتأويل المصلحي يكون مصطفى هو النموذج المعادي لمبادئ العدالة الاجتماعية، والعنصر المحافظ الذي يعمل على تكريس الأخلاقيات الاقطاعية القائمة على استغلال الانسان للانسان. ان هذه الشخصية ـ ذات الاتجاه اليميني ـ لا تمثل نفسها بقدر ما تمثّل طبقة اجتماعية لها حضورها في المجتمع، والتي تهدف الى ابقاء هذا المجتمع على حال من الثبات والجمود الذي لا يخدم في نهاية المطاف الا مصالحها الحيوية الخاصة.

---

1 ـ م. م. س. : ص: 110

و - الارهـــاب والعنـــف :

يتميز البطل المضاد في رواية " العشق والموت في الزمـــن الحراشي " بسمتي الارهاب والعنف . انه - في نظر الروائي - لا يقل دموية عن الشيخ الذي تجرأ على ذبح زيدان الشيوعي ، بله ، ان مصطفى أشد بأسا وأعظم خطرا ، وهو ما يوضحه قوله لصحبه : " ... من منكم يتولى أمر العاهرات الضالات ؟ لقد أحضرت قنينات الأسيد . ينبغي أن تصب كلها على أوجههن وأشعرهن . جميلـــة ، جميلة هذه الفاتنة هي التي تغويهم بالتطوع . يجب أن تنال القدر الأكبر من الحامض . أريد أن تصب كلها على أوجههن وأشعرهـــن . يتشوه وجهها كلـه ... " (1)

فواضح أن الروائي قد اشتط به القلم فسقط في المبالغة والافتعـال والتحامل على هذه الشخصية ، بسبب نزعته التعليمية الحـــادة ، وسياسته الايديولوجية المفرطة والمستأثرة دائما . لقد غالى الروائي في تحديد السمات المميزة لمصطفى - البطل المضاد في الروايـــة - وكانت غاية المؤلف من وراء ذلك هي تشويه صورة هذا النموذج السلبي - في نظره - بشكل مكثف لكي يحمل المتلقي على ادانتـــه . ويمضي الروائي في تشويه صورة مصطفى جاعلا منه شخصا ساديا يسر لرؤية الدم والموت وتدمير الجنس البشري دون شفقة ولا رحمـــة ؛

---

1 - م . م . س . : ص : 130

(*) - زيدان هو الشخصية النمطية في رواية اللاز التي تنبني عليهـا الأحداث الروائية . لقد ذبحه شيخ نتيجة تمسكه بمذهبه الايديولوجـــي اليساري .

« ... كان مصطفى يضحك بانفعال شديد، حتى بدا وكأنه على وشك البكاء. بل انه ليتمالك بالكاد، ويوشك أن يسقط. وجهه محمر، عيناه مغرورقتان. أوداجه منتفخة. صدره يعلو وينخفض. يداه ترتعشان. لعله الآن يتخيل اليه أن العملية تمت. أنجزت. وها هو وجه جميلة الصبوح يتعرى من اللحم، عظامه تبدو في بشاعة متناهية، عيناها الخضروان الزرقاوان مفقوءتان، شعر أهدابها وحاجبيهما متآكل ... » (1)

ويبدو أن الروائي قد غالى الى حد الشطط في رسم معالم هذه الشخصية، ولعله كان يهدف من وراء كل هذا الى حمل القارئ على الايمان الكامل بها.

وفي اعتقادنا أن هذه الأوصاف والسمات المتعلقة بمصطفى - البطل المضاد - المبالغ فيها تبعد العمل الروائي عن الحقيقة الموضوعية والفنية، اذ بمقتضاها - أي المبالغة - تغدو الشخصية جوفاء مسطحة لا تمثل الا جانبا مشوها من جوانب الفكرة التي يريد المؤلف التعبير عنها، وتكشف في الوقت نفسه عن رؤية ناقصة وغير متزنة للواقع، قد تسيء كثيرا الى جزئيات البناء الروائي عامة، وتعوق سير الأحداث وتعمل على تفككها بشكل خاص.

1- م. س. : ص: 130، 131

حلفاء الاتجـــاه المعارض :

لعله من الطبيعي جدا أن تتحالف الطبقة الاجتماعية التي تملـــك وسائل الانتاج مع الاتجاه اليميني الذي يمثله مصطفى، لأن مصالحهـــا أصبحت عرضة للتلف مع بداية التحولات الكبرى التي بدأت تتجـــذر في المجتمع الجزائري الحديث . ان الشرائح الاجتماعية المكونة لهذه الطبقة ـ كما يحددها السياق الروائي ـ هم الملاكون العقاريون الكبار وأصحاب الرساميل والبيروقراطية الادارية . (1)

1ـ الاقـــطـــاع : من البديهي أن يساند الاقطاعيون كل اتجـــاه يعمل على تكريس مصالحهم الحيوية، ويحفظ لهم مكاسبهم الطبقية فـــي المجتمع . لقد رفض الملاكون العقاريون كل اجراء من شأنه أن يســـوي بينهم وبين فئات الشعب في الحقوق والواجبات ، لذا غدا الحـــديث عن الاشتراكية شبحا مخيفا بالنسبة لهم أقض عليهم مضاجعهم . ولعـــل تساؤلات هذا الاقطاعي أمام جمع غفير من الفلاحين تؤكـــد ذلـــك :

« ان القيامة ستقوم، لأن الريفيين اتجهوا الى تعليم أبنائهم . تصوروا من سيرعى الأغنام في المستقبل ويحلبها ، أو يعد الفريك أو ينســـج الحصير والزرابي ، اذا كان ابن الريفي معلما أو موظفا أو طبيبـــا فماذا سيكون أبناؤنا نحـــن ؟! » (2)

ان الروائي ـ فيما يبدو ـ كان يسعى جاهدا كي يظهر للقارئ الحقـــد الطبقي الدفين الذي يكنه الملاكون العقاريون للفلاحين الفقراء . لقـــد

---

1 ـ م . م . س . : ص : 135

2ـ م . ن . : ص : 104

عز على الاقطاعيين أن يتحسن مستواهم المعاشي ويخرج أبناؤهم من حالة الغبن والحرمان الذي عاش فيه آباؤهم سنين طويلة مثقلة بمآسي الفقر والحرمان والاستغلال . لهذا وذاك وجد الملاكون العقاريون في الفكر الذي يحمله مصطفى ملاذا لأحلامهم الطبقية، ومنقذا لمصالحهم الحيوية في المجتمع ، كما تؤكد ذلك أحداث الرواية. فراح هؤلاء الاقطاعيون يبثون في الأوساط الفلاحية المزاعم والفتاوى الدينية محاولين بذلك تعطيل واحباط عملية التأميم التي استهدفت أراضيهم بالدرجة الأولى . ومن بين هذه الفتاوى الدينية التي راجت في الريف الجزائري بسرعة فائقة، كما يشير الى ذلك السياق الروائي - : " ... ان الاستفادة من الأرض حرام. ذلك أن هذه الأرض مستولى عليها بالقوة وهي عند الله - شاء العبد أم أبى - ملك لأصحابها الأصليين. ثمرتها حرام، والاستفادة بها كفر. كما راجت دعاية قوية، تؤكد للجميع أن باقي مناطق البلاد لم تؤمم الأرض فيها ، ذلك أن أصحابها حملوا السلاح والتحقوا بالجبل ، وهم زاحفون للقضاء على السلطة الكافرة وعلى عملائها من الفقراء المستفيدين ... " (1) .

اننا تعمدنا نقل هذا النص بكل تفاصيله لنتبين من خلاله بعض الأساليب التي كان يلتجئ اليها الاقطاعيون لمحاربة الثورة الزراعية ومبدأ التأميم. ان الدعاية تعدّ عنصرا من أخطر عناصر الصراع الايديولوجي في الرواية. وسلاحا من أهم الأسلحة التي استعملتها الأستقراطية

---

1 - م. س. : ص: 35 ، 36

العقارية لنسف نظام الأرض الجديد من أساسه، مستغلين في ذلك العاطفة الدينية عند الفلاحين. وكان من تأثيرات الدعاية على الرأي العام الريفي أن الفلاحين قد " ترددوا كثيرا قبل أن يسجلوا أنفسهم في قوائم المستفيدين من الثورة الزراعية" (1)

ان رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " تدين الاقطاع الذي سلب الفلاح وجوده، سلبه ماضيه وهو يعمل جاهدا على سلب هذا الفلاح حاضره ومستقبله، وكل حقه المشروع في الاستفادة من نظام الأرض الجديد.

2 - البيروقراطية الادارية: تؤكد معطيات الرواية أن الاقطاعيين لم يكونوا وحدهم الطرف المؤيد للفكر اليميني الذي يحمله مصطفى، بل كانت هناك البيروقراطية الادارية تعمل بدورها على عرقلة مسيرة الثورة الزراعية، مستعملة في ذلك طرقها الخاصة، ومن بينها المماطلة في تسجيل الفلاحين في قوائم المستفيدين من الأراضي التي مسها التأميم. على نحو ما يظهر في الفقرة التالية :

" - عد مرة أخرى، الموظف المختص ليس هنا. "

- لا. أنت لا تستحق الاستفادة. فقد بلغنا أنك تملك عنزة.

- هناك مسجلون كثيرون قبلك، فعليك بالصبر الطويل. عد مرة أخرى.

- الأرض التي ستوزع لم تحدد بعد. أنت لم تقم بواجبك كما ينبغي ابان الثورة التحريرية، لذا فالباب مغلق دونك ودون أمثالك." (2)

كان هدف البيروقراطية الادارية - كما يشير الى ذلك الحدث الروائي -

---

1 - م. م. س: ص: 35

2 - م. ن. : ص: 36

هو عرقلة مسيرة الثورة الزراعية، وتشكيك الفلاحين المستفيدين في حقيقة مبادئها، حتى يبقى المجتمع على حال من الثبات والجمود، تسوده الأخلاقيات الاقطاعية القائمة على استغلال الانسان للانسان. ويرى الروائي أن لا غرابة في ذلك، " فمعظم الموظفين في البلديات والدوائر هم ملاكون عقاريون أو من منبت اقطاعي " (1). هذه هي أهم مميزات الاتجاه اليميني والعناصر المتحالفة معه- كما حددتها الرواية- . انها تختلف اختلافا مبدئيا وجوهريا من حيث الانتماء الطبقي والايديولوجي مع الاتجاه اليساري الذي تتبناه جميلة والفئات الأخرى المتحالفة معها.

ويتضح مما سبق أن موضوع الأرض يستمد جذوره وأبعاده في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " من الاختلاف الايديولوجي بين الاتجاهين المتعارضين - اليميني واليساري - ذلك أن كل طرف من أطراف الصراع كان يعمل على تكريس مبادئه والتمكين لاتجاهه. فالمتطوعون - كما يرى المؤلف المؤلف- وأنصارهم يحاولون جهدهم تكريس أسس ومبادئ الاشتراكية. ومنافسوهم يعملون على اجهاضها في المهد مستغلين في ذلك العاطفة الدينية، لأنها أقرب السبل للوصول الى قلوب الفلاحين لاستمالتهم.

وتنتهي الرواية- نهايتها المنتظرة- بانتصار جميلة وهي اشارة رامزة من المؤلف الى انتشار المد الاشتراكي الذي تمثله هذه الشخصية ويعني من وجهة أخرى تقهقر سيادة الفكر اليميني الذي يحمله مصطفى وصحبه. ولعل الباحث يلاحظ انحياز الروائي التلقائي الى البطلة جميلة بشكل كبير في الرواية، غير أن انحيازه هذا لم يكن - في رأينا - قد تحقق

1- م.م.س. : ص: 36

في مجال الصورة الفنية ووقعها . لقد وقع الروائي نتيجة لحماسته المفرطة للقضية التي يبحث عنها - في افتعال الأحداث ، وفي المبالغة والتهويل ، بحيث بدت الأحداث في كثير من السياقات غير مسوغة وغير منسجمة مع تطور الشخصيات وطبيعتها .

ثانيا : الهجرة من الريف الى المدينة :

اذا كان المجتمع الجزائري قد عرف ظاهرة الهجرة الريفية ، فان هذه الظاهرة لم تظفر بعناية الروائيين الجزائريين بها ، فلم يعالجوها في نتاجاتهم الابداعية الا عرضا ، ودون أن تشكل في أعمالهم ظاهرة بارزة أو محورا قائما بذاته ، على الرغم من أن النزوح الريفي يعدّ قضية اجتماعية خطيرة تنعكس آثارها السلبية على مجتمع القرية والمدينة على حد سواء . ولعل عدم اهتمام الروائيين الجزائريين[1] بهذا الموضوع يعود الى عدم استيعابهم بعمق الأبعاد الحقيقية لدلالة هذه الظاهرة .

ان رواية " الأكواخ تحترق " (*) - على صغر حجمها - تعدّ من الروايات الأولى التي تناولت موضوع النزوح الريفي . لقد حاولت تحليل هذه الظاهرة الاجتماعية بعمق . فألقت الضوء على بواعثها الحقيقية والمتمثلة أساسا في سوء توزيع الملكية العقارية وهيمنة الاقطاع ، وما استتبع ذلك من قهر وفقر وتخلف أثقل كاهل عمال الأرض . ان هذه الوضعية الفاسدة

1- لقد عنيت القصة الجزائرية القصيرة بظاهرة الهجرة الريفية عناية كبيرة على خلاف الرواية التي لم تتناولها الا عرضا .

(*) - محمد زتيلي : الأكواخ تحترق . ش . (و . ن . ت . الجزائر .

التي عاشتها الأرياف الجزائرية زمنا ليس بالقصير هي التي تقف وراء هجرة الفلاحين سواء الى المدن داخل الوطن أو خارجه.

ان خلاص البروليتاريا الفلاحية من ربقة الاستغلال لا يكمن - حسب هذه الرؤية - في الهجرة والنزوح خارج القرى، وانما يكمن في القيام بتوزيع عادل وفعال لوسائل الانتاج الزراعية. وأولى هذه الوسائل هي الأرض. وذلك لكي يمكن التحويل الجذري لظروف المعيشة والعمل للفلاحين.

ان الثورة الزراعية - في نظر الروائي - هي النظام الكفيل باعادة الاستقلال الفلاحين في الأرياف.

تدور أحداث رواية " الأكواخ تحترق " ببيئتين مختلفتين، هما الريف والمدينة، ويقوم بدور البطولة فيها شاب فلاح - مسعود - كان يعمل خماسا في أراضي الحاج عبد الله، الملاك العقاري الكبير في القرية. ويستميز هذا الفلاح بسمات ايجابية منها الذكاء المتقد والشجاعة النادرة والشعور بالمسؤولية، وبخاصة ازاء زوج أخيه فاطمة وأبنائها الخمسة الذين هاجر أبوهم الى فرنسا وانقطعت أخباره منذ سنوات، فوجد مسعود نفسه بدافع الواجب وبحكم القرابة مسؤولا عن اعالة هذه الأسرة.

كان هذا الفلاح يقضي نهاره - كغيره من الفلاحين في تلك القرية الفقيرة - بين العمل المضني في الأرض. وفي المساء يعود الى الكوخ الذي كان يأويه - وأسرة أخيه - مثقلا بمآسي الفقر والحرمان والعمل الشاق

الذي لا يجني منه سوى التعب والعناء . لقد ولدت هذه الوضعية المأساوية في نفس هذا الخماس حقدا طبقيا دفينا - كان ينمو مع الأيام - وكراهية لا ينطفئ أوارها للاقطاعي الذي كان يسعد على شقاء الفلاحين أصحاب الأرض الحقيقيين ، كما يظهر ذلك بشكل واضح من خلال حواره مع فاطمة . يقول مسعود :

" - الأرض ليست أرضه يا فاطمة ، أنها أرضي وأرض علاوة وحوسين والربعي وغيرهم ... أنسيت ؟! " (1)

ان الفلاح - كما تؤكد ذلك معطيات الرواية - كان واعيا كل الوعي ببواعث المأساة التي كانت تعاني القرية منها قاطبة . ان المتسبب الأول فيها هو الاقطاعي الحاج عبد الله الذي كان لا يرى في الفلاحين إلا خدماً ورقيقا ، لقد كان يغمطهم حقهم الشرعي ويستنزف طاقاتهم لصالحه . ولعل هذه الصفات الشائنة التي تميز شخصية الاقطاعي هي التي ولدت في نفس الفلاح مسعود كراهية وحقدا لهذا العنصر الاستغلالي . ويبلغ الصراع الطبقي أوجه ، والمجابهة حدتها بين مالك الأرض وبين الفلاح الذي تكون نهايته الطرد الأخير من العمل في الحقل ، كما يتضح ذلك من خلال تهديد الاقطاعي التالي :

" - ان وجدتك يا مسعود فوق أرضي قتلتك " (2)

والحقيقة أن الطرد من العمل في مثل هذه الظروف يعني انعدام أسباب الحياة في القرية بالنسبة للخماس ، وهو ما يؤكده مسعود عبر هذا المونولوج الداخلي : "مطرود أنا من الحقل وهذا يعني أنني مطرود من القرية." (3)

---

1 - المصدر: ص: 78 2- م. ن. : ص: 33 3 - م. ن. : ص: 33

ان الأرض في رواية " الأكواخ تحترق " ، " تمثل مصدر الحركة والعامل الحاسم في تحديد موقف البطل وسلوكه ، بل مصيره أيضا . ويبدو هذا المنطق مبررا ومعقولا، فالأرض مصدر الرزق والحياة في القرية، من يتعرض للأرض يتعرض لرزق الفلاح ." (1)

لقد اضطر مسعود الى الهجرة الى أي مكان الا الى فرنسا حتى لا يكرر مأساة أخيه ومأساة الكثيرين من أمثاله، فيتجه الى قسنطينة وهناك يتعلم حرفة الخياطة ويستقدم أسرة أخيه . من هذا المنظور فان العامل الأساسي والباعث الحقيقي لنزوح الفلاحين من قراهم ، هو العامل الاقتصادي وما يترتب عليه من ظروف معاشية وصحية متردية دفعت بكثيرين من عمال الأرض أن يهجروا . ان هجرة مسعود الى قسنطينة كانت اضطرارية ولم تكن ارادية، لقد جاءت نتيجة منطقية لهيمنة العلاقات الانتاجية الاقطاعية في الريف الجزائري . ولعل السؤال الذي يفرض نفسه على الباحث هو: هل كانت الهجرة من الريف الى المدينة الحل المناسب والنهائي لمشاكل الفلاح ؟

يؤكد السياق الروائي أن الهجرة الى المدينة لم تكن العلاج الناجع لمعضلات الفلاحين في الأرياف ، بل ان النزوح من القرية الى المدينة يعدّ في حقيقة الأمر رحلة جديدة لمأساة جديدة.

ان مسعودا - وهو النموذج الحي للفلاح المهاجر - لم يجد بمستقره الجديد بقسنطينة أسباب الاستقرار التي كانت تراود أحلامه، ولعل ذلك راجع

---

1 - عبد المحسن طه بدر: الروائي والأرض . ص: 128

الى عدة أسباب منهـــا :

1 ـ الشعور بالغربـــة:

ان المتتبع لحياة الفلاح في المدينة لا يجدها بأحسن حال من القريـة، لقد سافر مسعود الى المدينـة وهو يحمل في أعماقه قيم القريـــة الراسخة بمختلف صورها ، وما أحدث ذلك من وضعها وجها لوجه أمام عالم المدينـة وارتطام كل منهما بالأخرى ، وما ترتب عن ذلك من اضطراب نفسي عانى البطل من وطأته الشيء الكثير:

" وجد مسعود نفسه في مدينة أشعرته بالخوف والضياع منذ أول وهلة " (1)

" وأحس مسعود بأن خلا ما يصيب توازن هذا العالـــم " (2)

ان الشعور بالغربة يعود بالدرجة الأولى الى تباين القيم الحضاريـة التي يحملها الفلاح المهاجر في أعماقه ـ تلك القيم التي اكتسبها في الريف ـ مع المعطيات الحضارية الجديدة في المدينة. ان الغربة التي عانى الفلاح من وطأتها تعدّ نتيجة منطقيـة لظاهرة الهجرة من الريف الى المدينـــة.

2 ـ الاستغـــــلال :

اذا كان الفلاح مسعود قد هاجر من القرية هربا من استغلال الاقطاعي الحاج عبد الله، فانه قد وجد امتداده الطبيعي في المدينة ممثلا في شخص الحـاج الطاهر صاحب ورشة الخياطة، الذي كان بدوره يستنزف طاقات العمال بمن فيهم مسعود . ان مالك ورشة الخياطة لا يقل شراسة عـــن الاقطاعي ـ في نظر المؤلف ـ ، ذلك أن الحاج الطاهر لم يكتف بسلب عماله

---

1 ـ م . س . : ص: 44

2 ـ م . ن . : ص: 53

حقهم الشرعي في التمتع بفائض قيمة عملهم اليومي ، بل تعداه الى الاستحواذ على الحد الأدنى لأجرهم الحقيقي . ان هذا الواقع الجديد - في المدينة - لم يرض مسعود على الاطلاق . لقد واجه الفلاح المهاجر شبح الاستغلال في كلا العالمين : عالم القرية وعالم المدينة . وهو الشيء الذي يجعله دائم التوتر والاضطراب .

3 - اللاستقرار:

لعل هذه الأسرة المهاجرة من الريف لم تجد استقرارها المنشود في قسنطينة ، ذلك ان هذه العائلة المكونة من سبعة أفراد كانت تقطن غرفة واحدة بحي شعبي فقير لا تتوافر فيه أدنى الشروط الصحية ، وهذه احدى المشاكل الخطيرة التي هددت وجودها في المدينة .

والجدير بالذكر ان هذه المدينة قد عمقت مأساة هذه الأسرة النازحة . لقد سلبت منها ابنها كريما . ان كريما هو الابن الأكبر ، وهو أعز ما تملك فاطمة ، انه العروة الوثقى التي كانت تربطها بذكرى زوجها الذي أكلته الغربة في بلد المصنع الأوروبي . ان موت كريم في قسنطينة يعدّ رمزا للاستقرار ومحطة طبيعية لنزوح القرويين الى المدن .

ان الروائي قد اتخذ من شخصية كريم عدة أبعاد رمزية منها :

أ - ان كريما - الطفل الذي تحول الى ماسح أحذية في قسنطينة - يصبح في الرواية رمزا للانسحاق الطبقي ومعادلا موضوعيا لمعاناة البروليتاريا الفلاحية المهاجرة في المدينة والمتضررة من العلاقات الانتاجية الجائرة في الريف .

ب - كما أن موت هذه الشخصية الثانوية يغدو في نهاية الأمر رمز الخطورة

الموقف واشارة الى الحالة المأساوية التي آل اليها مصير عمال الأرض قبيل تطبيق نظام الأرض الجديد.

ان السياق الروائي يؤكد أن الظروف في القرية والمدينة متشابهة بالنسبة للفلاحين - الذين لا يملكون الا جهدهم العضلي - انهم في كلا العالمين يصطلون بنار الاستغلال والفقر. ان هذا الأمر المستفحل الخطورة يستوجب اعادة النظر في العلاقات الانتاجية السائدة في الريف. ويتطلب ايجاد حلول ناجعة وسريعة لظاهرة الهجرة التي هددت كيان الفلاحين وأثقلت كاهلهم سنين طويلة.

دلالة النهاية في الرواية:

في هذه الظروف المليئة بأحلام الرعب والهلع الذي خلفه موت كريم ، يلوح بصيص من الأمل كانت تترقبه أسرة مسعود، ويترقبه كل فلاح عاني من ليل الاستعمار واستغلاله الطويل . ويتمثل هذا الأمل في ظهور الثورة الزراعية. ان الهدف الأسمى لنظام الأرض الجديد - كما تؤكده معطيات الرواية - هو قلب الأوضاع الحالية للملكية لعقارية في الريف ، وتصفية الآثار الاستعمارية البالية والقضاء على الملكية العقارية الاقطاعية ،التي أدت نتائجها الى الهجرة الريفية وتفاقم الفوارق الاقتصادية والثقافية بين المدن والقرى . إن بظهور الثورة الزراعية تنتهي مأساة الأسرة المهاجرة ، حيث توزع الأراضي على الفلاحين ، فيستفيد مسعود وفاطمة زوج أخيه من نظام الأرض الجديد، ويحصلان على سكن جديد

تتوافر كل الشروط الصحية بقرية " بلغيمور" الاشتراكية، ويحرقان كوخهما القديم الذي يذكرهما بالماضي الأليم . ومن هنا يأخذ المؤلف عنوان روايته " الأكواخ تحترق " .

لقد حاول المؤلف - من خلال شخصية مسعود - أن يعكس لنا جانبا من جوانب حياة الفلاحين بعد الاستقلال وما كانوا يعانون منه من فقر وظلم مسلط عليهم من قبل الاقطاع . ان هذا البطل المقترح - مسعود - يعدّ في مثل هذا الموقف رمزا للواقع الريفي المتحول بمشاكله ونقائصه وميراثه وتطوره في نهاية المطاف .

وعلى الرغم من جودة المضمون وسلامة الفكرة المطروحة في رواية " الأكواخ تحترق " الا أن الرؤية الفنية فيها كان ينقصها العمق والشمولية والادراك الواعي لماهية الجنس الروائي وخصائصه الفنية، وهو ما سنشير اليه في الفصل الخاص بالبناء الفني من هذا البحث .

ثالثا : الثورة الزراعية وأثرها في المجتمع :

لا أحد يشك في أن ثمة علاقة سببية موجودة بين الرواية والحياة، وتجاوبا قائما بينهما، اذ ان الفن الروائي - بصفة عامة- يحوي صورة الواقع في صيرورته ونموه. ويبدو أن رواية " الشمس تشرق على الجميع" (*) لم تشذ عن هذا التصور، فهي تحاول جاهدة ابراز أثر الثورة الزراعية الايجابي على الفئات الاجتماعية الفقيرة التي هددها الحرمان وأرهقها تعب السنين الخوالي ، المثقلة بأحلام الرعب والاستغلال . ففي هذا النتاج الأدبي يحاول الروائي التأكيد على أن نظام الأرض الجديد يُعَدُّ الشمس التي أشرقت بنورها في المدن والأرياف ، فبددت ضباب الخصاصة والعوز عن الأسر المسحوقة طبقيا ، تلك التي وقعت ضحية للعلاقات الانتاجية المتهرئة القائمة على استغلال الانسان للانسان . وللتعبير عن هذا التحول الايجابي الذي بدأ يتجذر في المجتمع، اتخذ الروائي لذلك نموذجين لأسرتين فقيرتين هما :

1 - أسرة رضوان التومي .
2 - أسرة رحمة خلاف .

1- أسرة رضوان التومي :

يعد رضوان التومي شخصية رئيسية في الرواية ، وأحد أعمدتها الأساسية . تنتمي هذه الشخصية الى أسرة فقيرة ، بل مدقعة في الفقر، ذلك أن رضوان هو ابن شهيد، كان ينتظر أن تنال أسرته حقوقها ؛ وهو شاعر بالظلم الفادح الذي وقع على عائلته ، وبخاصة أخته جهيدة

(*) - اسماعيل غموقات : الشمس تشرق على الجميع. ش و ن ت . (د . ط) .

التي اضطرت - تحت وطأة الخصاصة والعوز - أن تعمل في بيوت أحد الأغنياء، عساها أن توفر لأخيها ظرفا مقبولا لمتابعة دراسته في الثانوية. وكانت الوضعية البئيسة هي - نفسها - التي جعلت البطل يبدو - على امتداد الحدث الروائي - كدر المزاج ينظر الى واقعه بمنظار سوداوي متجهم. ولعل غاية المؤلف من هذا كله، هو تبيان مقدار الوعي الطبقي الذي يتمتع به رضوان التومي، على نحو ما يظهر في الفقرة التالية:

" ... الفضل كل الفضل لأمك العجوز ولأختك ذات العشرين ربيعا، والتي تعمل بقوة أربعة رجال؛ ألا ما أشد نبلك يا أختاه، وما أقواك! لقد هجرت الدراسة بشجاعة نادرة وامتهنت أحقر المهن، من أجل أن نعيش. ولو لم يهضم حق الشهيد لما صرت الى ما صرت اليه؛ ولتحقق حلم الوالدة في كريمة تحمل القلم وتجلس على الكرسي، ولما حملتك قدماك الى خدمة البيوت. ليحفظك الله يا أنبل الشقيقات، لقد عملت من أجلنا الكثير الكثير... " (1)

من هذا المنطلق يأتي النموذج الاجتماعي المقهور، والذي يعاني من شتى ضروب الاستغلال والامتهان في مقدمة مرثيات المؤلف وشواغله. واختيار هذا النموذج منسجم مع اختيار الكاتب الفكري والسياسي ومتوافق مع نيته التعبيئية للرواية في حقل البناء الاجتماعي. وتعد أسرة رضوان التومي - في حقيقة الأمر - معادلا موضوعيا لكل الأسر الفقيرة، والتي كانت تمثل الأغلبية في المجتمع، وتحتل قاع السلم الاجتماعي فيه. ومن وجهة أخرى فان حرمان جهيدة من نعمة العلم

---

1 - م . س . : ص : 72

والتمتع بأدنى ضرورات الحياة هو نتيجة من هيمنة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية القائمة على أسس غير عادلة. ويشير السياق الروائي بطريقة مجازية الى أن تعميم مبادئ العدالة الاجتماعية هو الحل الأمثل الكفيل بازالة الفوارق الطبقية التي تعد من مخلفات الاستعمار الرأسمالي للجزائر، بمعنى أن الكاتب حاول - من خلال أزمة عائلة رضوان - طرح صورة من صور الواقع الذي عاشته الفئات الشعبية الفقيرة وعانت من مرارته أحقابا. وقد عبر الروائي عن بداية بزوغ فجر التغيير والتحول - الذي ما فتئ يطرأ على المجتمع الجزائري - عن طريق توافر فرص العمل لأغلبية المواطنين، حيث ان أم رضوان وأخته قد حصلتا على عمل منظم، حيث الفوائد أكثر، والضمانات الاجتماعية أوفر، وهو ما تشير اليه الأم بقولها:

" ذهبت اليوم الى مصنع السكر فحصلت على عمل لي ولشقيقتك أيضا " (1)

ولعل العمل في معمل السكر التابع للقطاع العام يعدّ في مثل هذا الموقف رمزا لبداية انفراج أزمة رضوان، وهو الشيء الذي ترك أثرا عميقا في حياة الأسرة، وصدى ايجابيا في نفس البطل، وأعطاه ثقة كبيرة بميلاد مستقبل مشرق مليء بالخصب والنماء، يقوم على أنقاض الماضي المشحون بالأحزان والمتناقضات الصارخة، وذلك ما نلمسه في هذه الفقرة: " ... غابت المخاوف في خضم النعمة المفاجئة، فغمرتك سعادة هائلة، وملأتك ثقة عجيبة في أن الدنيا لا بد مقبلة عليك على الرغم من كل شيء " (2). ثم يضيف رضوان قائلا: " وها هي أيام السعد تطل علينا بعد غياب طويل." (3) .....

1- م.م. س. : ص: 2 - م. ن. : ص: 46 3- م. ن. : ص: 49

ان المكاسب الاشتراكية - في نظر البطل - تعد النور الذي يبدد سحب الحزن التي غللت نفسه، ونفوس الكثيرين من أمثاله زمنا ليس بالقصير. لقد لجأ الروائي للتعبير عن التحول الايجابي الذي طرأ على حياة الأسرة في المأكولات المختلفة وفي أكل اللحم - بصفة أخص - الذي كان بالنسبة لها شيئا بعيد المنال. لقد سر رضوان لهذه الوضعية المستجدة، لدرجة أنه جرد من نفسه شخصية، وتمثل أباه الشهيد، وأخذ يتحدث معها في لهجة متفائلة: " ... لحم ! يا للمفاجأة السعيدة لحد الجنون. بعد عشر سنوات من الحرمان يفرجها الله مرة واحدة. وها نحن أولاء يا والدي، نأكل اللحم مثل الجميع. فلندع جميعا للثورة بالخلود وليرتح بالكم يا شهداءنا الأبرار، فكل شيء يسير وفق الخطة التي رسمتموها ابان الثورة التحريرية... " (1)

يحاول الروائي - انطلاقا من هذه الفقرة - ابراز جانب من جوانب التطور الايجابي الذي بدأ يطرأ على المجتمع لجزائري بعد الشروع في تطبيق الثورة الزراعية والصناعية وغيرها من المكاسب الاشتراكية الأخرى، تلك التي تهدف الى ارساء دعائم مجتمع جديد متماسك ومتين لا أثر فيه لمخلفات الماضي. وفي رأينا أن الروائي لم يتمكن من استثمار ذلك التغيير الثوري في البناء الاجتماعي برؤية عميقة وشاملة لها القدرة على رصد التحولات الايجابية بكل أبعادها - وان حاول - ؛ ذلك ان تعامل المبدع مع الواقع المستجد لم يكن يخلو من سطحية، كونه عبر عن ذلك

---

1 - م . م . س . : ص: 52

بأسلوب ذي نزعة خطابية وتقريرية ، وبعبارات جاهزة لم تضف الشيء الكثير الى تجربته الابداعية. أي أن المؤلف لم يتناول أبعاد هذه الانجازات والمكاسب وأثرها على الفئات المحرومة بصورة جلية تمس كل جوانب المجتمع ، لها من العمق ما يحمل المتلقي على الاقتناع بحقيقة أمر هذا التحول والولادة الجديدة للمجتمع .

2 - أسرة رحمة خلاف :

ان أسرة رحمة خلاف هي النموذج الثاني المقترح في رواية "الشمس تشرق على الجميع" . لقد وظفه الكاتب ليعبر من خلاله عن لحظة من لحظات الولادة الجديدة للمجتمع الجزائري الآخذ بأسباب التحول نحو الأفضل .

وتعدّ رحمة عنصرا أساسيا في هذا العمل الابداعي لا يقل دورها - من حيث الأهمية الفنية والموضوعية - عن دور رضوان التومي في الرواية . وتنتمي البطلة - وهي طالبة في الثانوية - الى أسرة فقيرة، حيث كانت تعيش وأباها عيشة ضنكة، ذلك أن أباها كان يمارس بطالة مقنعة، كونه كان لا يبيع الا الفول المطبوخ لتلامذة المدارس . والحقيقة أن (عملا) كهذا لا يسمن ولا يغني من جوع ، ولا يجني منه سوى التعب والارهاق . وفيما يبدو أن المؤلف سعى جاهدا كي يقدم للمتلقي صورة حية عن الحالة التي كانت تعيشها الفئات الشعبية المسحوقة قبل بزوغ فجر العدالة الاجتماعية .

والملاحظ أن البطلة - حسب معطيات الرواية - لم تجرد من وعيها الطبقي، لأنها كانت تدرك وبعمق أسباب الوضعية الاجتماعية المتهرئة التي أرهقت أباها زمنًا ليس بالقصير .

ان وعي رحمة ببواعث مأساة أسرتها يعدّ - في رأينا - المبرر الموضوعي الذي يحمل هذه الشخصية على الاقتناع بضرورة تكريس مبادئ الثورة الزراعية، تلك التي وجدت فيها رحمة الخلاص النهائي لأبيها وغيره من ربقة الخصاصة والعوز

وهو ما يستنتج من الحوار التالي الدائر بين البطلة وأبيها :

" - ألم يكن من الأفضل لو أنك انضممت الى المستفيدين بالثورة الزراعية يا أبي ؟ "

فقال بضيق :

" - لم يقل الله أن يأخذوا أراضي المؤمنين دون رضاهم . "

فهتفت بحماس :

" - لكنهم يأخذوها ليوزعوها على الفقراء أمثالك . ولم لا ؟ "

" - إن أي مؤمن حقيقي لا يقبل أن يرتكب جريمة كهذه . " (1)

انطلاقا من هذه المقطوعة الحوارية لم يكن الأب واعيا بحقيقة نظام الأرض الجديد، ولم يكن مدركا لأهدافه وغاياته . ولقد وقع نتيجة للجهل والتخلف - وهي من رواسب الماضي - تحت تأثير الدعاية التي ما فتئت تبثها الطبقة الاقطاعية في الأوساط الفلاحية غداة الشروع في تطبيق الثورة الزراعية . ولعلّ خير من يمثل هذه الطبقة في الرواية هو سي علي - الملاك العقاري الكبير - الذي كان يملك ما يزيد عن ثلاثمائة هكتار من الأراضي الزراعية الخصيبة . إن الاقطاعي كان هو حامي حمى العقيدة - في نظر أبي رحمة - ، " ومن يمثل الدين أحسن منه ، وقد حفظ القرآن الكريم كاملا، وعاود حفظه عشرين مرة " (2) . كان سي علي - ككل الاقطاعيين في الجزائر - يستغل جانب الدين في محاولة للحفاظ على مكاسبه الطبقية في المجتمع، لصد رياح التغيير التي ما فتئت تهدد مصالحه في المجتمع، التي كانت تقوم أساسا على استغلال الانسان للانسان ، واستنزاف طاقات عمال الأرض بشكل خاص .

---

1 - م.م.س . : ص : 88 ، 89

2 - م.م.س . : ص : 89

والجدير بالذكر أن البطلة - وهي نموذج المرأة المثقفة الواعية - كانت تحمل أباها مسؤولية موقفه السلبي من قانون الأرض الجديد، على نحو ما يظهر في قولها :

" - والمسؤولية رغم كل شيء تقع على والدك دون غيره، فلو أنه أخذ برأيك، لاستقامت الأمور ولما بقي للحرمان أثر في بيتكم. ولكنه ضرب بنصيحتك عرض الحائط، وأبى الا أن يرفض الانضمام الى المستفيدين بالثورة الزراعية. " (1)

والملاحظ أن الصورة التي رسمها المؤلف لأبي البطلة لا تظل ثابتة لا تتغير على امتداد الحدث الروائي، لأنه في الحقيقة لا يريد لها أن تبقى جامدة، وانما أراد لها أن تتطور، لأن تطورها يعني تقهقر سيادة الفكر الاقطاعي عن مواقعه التي كان يحتلها في المجتمع، ويعني من وجهة أخرى بداية تقدم المد الاشتركي في الجزائر، ذلك أننا نعلم من توالي أحداث الرواية أن الأب قد صحح موقفه من قضية الثورة الزراعية، تلك التي كان يرفضها حين كان واقعا تحت تأثير دعاية الاقطاعي - وقرر الانضمام - في نهاية المطاف - الى التعاونيات الفلاحية. ويكون أبو رحمة بذلك قد " حلّ مشاكل العمل الدائمة، وبعث في نفس ابنته أملا في المستقبل لا يحدّ. وقد كان لهذا الموقف الجديد لأبي رحمة أثره على علاقته مع صديقه القديم سي علي الاقطاعي الذي كان يعتبر قوله بمثابة القول الفصل في قضية الثورة الزراعية. لم يعد هذا الاقطاعي في نظر أبي رحمة الا " كلبا " يلغو ويستحق الضرب والبصق. " (2). غير أن ما يلاحظ

---

1 - م.م. س. : ص: 87،86

2 - محمد مصايف : الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام . ص: 134

على الروائي أنه لم يستند الى مبررات فنية وموضوعية كافية، من شأنها أن تحمل المتلقي على الاقتناع بحقيقة الموقف الجديد الذي أقدم أبو رحمة على اتخاذه تجاه قضية الثورة الزراعية، اللهم الا ما كان من حديث امام المسجد له، - وهو حديث غير مقنع في رأينا - :

" - لقد أكد لي (الحاج دحمان) بأن الاسلام لا يحرم هذا الشيء الذي يدعونه الثورة الزراعية. كما أكد لي أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه نادى في زمانه بشعار الأرض لمن يزرعها. والحق أني اقتنعت بكلامه تماما، فالأرض يجب أن تكون فعلا لمن يزرعها، للفقراء الذين لا يملكون من متاع الدنيا شيئا... " (1)

ان هذه النهاية المتفائلة التي انتهت اليها أحداث الرواية جاءت باهتة ضامرة، تفتقر - في رأينا - الى العمق في التحليل، والشمولية في التعبير. ولعل السبب في ذلك يعود الى عامل المصادفة والمفاجأة الذي حكم سير الأحداث، وهو الشيء الذي نتج عنه اضطراب ملحوظ على بنية الحدث.

ومهما يكن من أمر هذه الملاحظات التي أتينا على ذكرها في رواية " الشمس تشرق على الجميع " - والمتعلقة أساسا ببعض المآخذ الفنية، فانها لا تنقص من قيمة هذا العمل الأدبي الذي يعد انجازا هاما في صرح الرواية العربية في الجزائر.

---

1 - م . م . س . : ص : 132

البناء الفنّي في الرّواية

البنـاء الفنـي في الروايـة:

يعدّ الجانب الفني على قدر كبير من الأهمية في أي عمل روائي ، اذ لا بد لكل فنان روائي من الاستعانة بوسائل فنية لتحقيق غايته وتوصيل فكرته ، والتعبير عن مواقفه ازاء مختلف قضايا المجتمع الذي ارتكزت فيه تجاربه ، ذلك أنه على المبدع أن يختار الأدوات الفنية التي يراها كفيلة وقادرة على ايصال أفكاره ومضامينه الى القارئ الذي يعد عنصرا أساسيا في عملية الكتابة ، " وبه تكتمل صورة هذه الكتابة وتبلغ منتهاها ، سواء أكانت ابداعية أم نقدية ..." (1).

والحقيقة أن الرؤية الجمالية هي التي تقرر مصير العمل الفني بالنجاح أو الفشل ، بالسمو أو الوضاعة. فاذا أحكم الروائي بناء روايته ، استطاع الاستئثار باهتمام المتلقي، لأن الرواية في نظر القارئ العادي هي التي توفر له أكبر قدر من اللذة ، وترضي فضوله لمعرفة الأحداث التي ترويها . لكن ذوق القارئ الناقد أشد تعقيدا من كل ذلك . فانه الى جانب المتعة الجمالية التي تحدثها الرواية في نفسه يطلب من الرواية أن تكون زاخرة بالحياة ، وذلك بأن تقدم له صورة شاملة وعميقة عن هذه الحياة ، بحيث يكون فيها من الأصالة والدقة والعمق ما يجعلها تتسم بميسم الخلود والبقاء.(2) فالمهم في الرواية ليس الموضوع ، وانما الشكل كذلك .

---

1 ـ ينظر: محمد يوسف نجم: فن القصة. ص: 54 ، 55

2 ـ عبد الملك مرتاض: الثقافة العربية في الجزائر بين التأثير والتأثر. دار الحداثة. بيروت. 1981 م ـ ص: 5

وان الرؤية الصحيحة للأدب لهي التي ترى أن الشكل لا ينفصل عن المضمون أو المحتوى، وأنه لا يكتمل جمال الفن الأدبي ولا تؤدّى رسالته الاجتماعية " الا اذا تناسب الشكل والمحتوى تناسبا طرديا . فليس ثمة مقياس النجاح لعمل أدبي قائم على أهمية الموضوع وحده، بل يقوم على التناسب أو الوحدة الكاملة بين الشكل والمحتوى معا " (1) .

ولعلّ الباحث يلاحظ أن الروائيين الجزائريين قد اختلفت رؤاهم الجمالية وتباينت طرقهم الفنية في تناول موضوع (الأرض الحيوي). ويمكن أن يعزا ذلك الاختلاف الى تباين رؤى الكتاب الفكرية وخلفياتهم الثقافية، وانتماءاتهم الاجتماعية، وقدراتهم الابداعية، وهلمّ جرا ...

إن لكل واحد من الروائيين طريقته الفنية الخاصة به، والتي يهدف من ورائها الى تحقيق غايته المتمثلة أساسا في توصيل بنات أفكاره ومضامينه الى جمهور القراء . فما هي الأدوات الفنية التي اعتمدها هؤلاء الروائيون في ابداعاتهم؟ وهل بلغت درجة الاكتمال والوضوح والنضج واستطاعت أن تعبّر دون عائق عن مضامينهم؟ ذلك بعض ما سنحاول الوصول اليه في هذا الفصل بالذات .

1- ينظر عمار الطالب : الواقعية في الرواية العراقية . ص :95

طريقة تقديم الحدث في رواية " ريح الجنوب " :

لقد عمد عبد الحميد بن هدوقة الى اصطناع الأسلوب الملحمي في تقديم أحداث روايته ، أي أنه تبنى طريقة التسلسل الزمني المنطقي في البداية والوسط والنهاية . " ان هذه الطريقة تقليدية وبسيطة جدا ، فالكاتب يأخذ الحادثة الروائية من بداية تأزمها ويمضي بها فصلا بعد فصل حتى تنتهي الى نهايتها الطبيعية . وهذا الأسلوب لا يضيف أي جديد الى البناء الروائي المعروف ، بل ان هذه الطريقة غدت قديمة ومكرورة . "(1) فالأحداث والأشخاص جميعا يسيرون في خط مستقيم ذي بداية ونهاية واضحتين . ومما يلاحظ في هذا النتاج الأدبي وضوح صوت الكاتب أحيانا من خلال سطور الرواية ، بمعنى أن المؤلف كان يتدخل مباشرة في الحديث عن الشخصيات ويعلق على سلوكاتها دون أن يترك لها حرية التصرف لتعبر عن نفسها بحرية وتلقائية ، نحو ما يظهر في قوله :

" كانت نفيسة محنتها اذن قاسية تمتزج فيها الخيبة باليأس ، وكانت حيرتها مؤلمة ، فهي لأول مرة تجد نفسها وجها لوجه أمام ما كانت تقرأه حول المرأة العربية من مقالات وقصص تصورها الضحية الأولى في كل مراحل حياتها . " (٤) . " ... "ونحن - كما قلت - نستطيع أن نشعر بهذه المحنة ونتصور هذا اليأس الذي يكتنف نفيسة ، لكن بشرط واحد هو أن نؤمن بأن أنوثة المرأة ليست نقصا طبيعيا ، كما أن ذكورة الرجل ليست كمالا طبيعيا أيضا ... " (٥) . وفي رأيي فإن المؤلف في غنى عن هذه الشروحات والتوضيحات والتبريرات ، والتي من شأنها أن تؤثر

---

1 - جورج سالم : المغامرة الروائية . منشورات اتحاد الكتاب العرب . دمشق (د.ط.) سنة 1973 - ص : 71

2و3- الرواية : ص : 202 - 203

سلبا على ديناميكية وحيوية الأحداث . وكان بامكانه أن يجد الوسيلة الكافية والمناسبة أكثر لنقل تجربته الانسانية بحيوية وحرارة وبصورة تعمق تجربته في عالم الرواية ، دون اللجوء الى هذه الطريقة الهشة التي اعتمد فيها المؤلف على عبارات جاهزة ، فيها كثير من التقريرية والخطابية ، " اذن ... ونحن كما قلت نستطيع ... لكن بشرط واحد هو ... " - ان هذا الأسلوب لا يخدم السياق العام للأحداث بل انه يكاد يسقط في ربقة الرتابة والجمود ، " الا أن هناك ناحيتين استطاعتا أن تنقذ الرواية من الرتابة - التي قد تنحدر اليها أية رواية تسلك هذا الأسلوب - أولهما ريح الجنوب في هبوبها العنيف وقسوتها ، وتشكل هذه معادلا موضوعيا للأحداث الانسانية القاسية التي تعرضها الرواية ، وثانيهما نجاح المؤلف في لغة خاصة تنقل مشاعر الفتاة (نفيسة) وتصور عالمها الداخلي وعواطفها واضطرابها ، هي لغة شعرية ورقيقة "[1] لا أثر فيها للخطابة وخالية أيضا من أدوات التوكيد والاستدراك والشرط . ومما يلاحظ على الكاتب أنه اعتمد عنصر المصادفة في انهاء الأحداث . والحقيقة أن المصادفة تعدّ ظاهرة تشترك فيها رواية " ريح الجنوب " و " نهاية الأمس " . " فالمصادفة هي التي تسلط أفعى على نفيسة في الغابة ، وهي التي ترمي رابح الراعي في طريق نفيسة في نفس اللحظة التي تلتقيها الأفعى في رواية " ريح الجنوب " ، وهي التي تقود البشير الى القرية التي يجد فيها زوجته "[2]

---

1 - جورج سالم : المرجع السابق : ص : 41

2 - ابن حلي عبد الله : القصة في الشمال الافريقي : تونس - الجزائر - مراكش جامعة عين شمس . كلية الآداب . مصر . رسالة ماجستير (لما تطبع) ص : 214

السابقة رقية بعد غياب دام سنوات في " نهاية الأمس " . ولعل المؤلف لم يتمكن من تقديم أسباب مقنعة فنيا، من شأنها أن تحمل المتلقي على تقبل هذا التحول الجديد في مسار الأحداث، فليس هناك سبب وجيه يستطيع القارئ تقديمه لتسويغ عمل المؤلف في انهاء احداث رواية " ريح الجنوب " و " نهاية الأمس "، وهو الشيء الذي حمل الكاتب على اللجوء الى عامل المصادفة. " ولنذكر دائما أن الحوادث العضوية المفاجئة التي تعترض سبيل الحياة في القصة، لا بد أن تفسد هذه الحياة وتنأى بها عن طبيعة الحياة العادية في الواقع" (1) وتفقد الحدث الروائي خصائص هامة يجب أن تتوافر فيه، والمتمثلة أساسا في الوحدة والانسجام والترابط العضوي المتين، المبني على قانون السببية بين جميع أجزائه.

وعلى الرغم من المآخذ الفنية التي أتينا على ذكرها في هذا النتاج الأدبي - والتي قد يقع فيها كل عمل ريادي مثل رواية " ريح الجنوب " - فانها لا تنقص من قيمة هذه الرواية التي تمكنت من رصد ما كان يصطرع في رحم المجتمع الريفي من تناقضات وتحولات عبر منظور واقعي.

ان رواية " ريح الجنوب " تعدّ بحق انجازا أدبيا هاما أسهم بقسط وافر في ارساء دعائم الجنس الروائي في الأدب الجزائري المعاصر.

---

1 - محمود السمرة: في النقد الأدبي : ص: 18

الحـــــــوار:

ان الحوار ركن من أركان الأسلوب ، وعامل فعال في التعبير الفني في كل رواية ، اذ يستدل به على وعي الشخصية وتفردها ، ويساهم في تطوير الأحداث فضلا عن دوره في المساعدة على بعث الحرارة والحيوية في المواقف المتميزة ، بشكل يحقق معه تصورًا متكاملا لظواهر الواقع ، تصورا يعتمد على التنوع في الرؤية ، والشمول في آفاق التفكير.(1) . ولأهمية الحوار في العملية الابداعية يعدّه كثير من النقاد ضمن الطرائق الفنية التي يتوخاها الروائي في تحريك شخصياته ، اذ بالحوار تتصل هذه الشخصيات اتصالا وثيقا (2) . ويرى الناقد تشارلز مورجان أن الاستعمالات الأساسية للحوار هي تطوير القصة وتصوير الشخصية وخلق الجو أو الحالة (3) ان الروائي يوظف الحوار في تكوين الشخصية والتعبير عن آرائها اذا تحدثت معنا أو مع نفسها أو غيرها . والحوار الجيد والناجح يساعد على استحضار الحلقات المفقودة في الرواية .(4)

ولقد وفق عبد الحميد بن هدوقة في استعمال الحوار ، اذ كان لديه الوسيلة الفنية الدقيقة للتعبير عن أحاسيس الشخصيات ازاء مجريات الواقع ،

---

1 ـ باقر جواد الزجاجي : الرواية العراقية وقضية الريف : ص : 854

2 ـ محمد يوسف نجم: فن القصة : ص : 117 - 118

3 ـ ينظر عبد الفتاح مقلد: الحوار في القصة والمسرحية . مكتبة الشباب (د . ط .) . سنة : 1975 ـ ص : 13

4 ـ محمد زغلول سلام: دراسة في القصة العربية الحديثة . دار المعارف . مصر (د . ط .) سنة : 1973 ـ ص : 35

وتحولاته، على نحو ما يظهر في الحوار التالي الدائر بين الاقطاعي ومالك شيخ البلدية:

ـ قال ابن القاضي: "حياتنا كلها مرت في الخوف والحذر... قبل الاستقلال كنا نعيش تحت الظلم، فتعودنا حياة الظلم، وجاء الاستقلال فاذا بظلم الأمس يستمر وتزداد عليه الضرائب الجديدة."

ـ فتساءل مالك قائلا: "أي ظلم هذا الذي تعرضت له في عهد الاستقلال؟

ـ فأجاب ابن القاضي في مكر: "أنت أدرى مني. تقولون أنتم رجال الحكم: ان الأرض لمن يخدمها، ولكن هل فكرتم في أن الناس لا يحبون خدمة الأرض؟"

ـ فقال مالك بهدوء: "ان الناس لا يحبون خدمة أرض الغير. لا يحبون أن يبقوا عبيدا الى الأبد." (1)

بواسطة هذا الحوار جعلنا المؤلف نتحسس بعمق طبيعة الشخصيات ومواقفها المتفردة ازاء الأحداث المستجدة بالقرية، ذلك أن مالكا كان يقف موقف المدافع عن الفلاحين ويؤيد مشروع الاصلاح الزراعي، في حين كان الاقطاعي يناصب هذا المشروع العداء، لأنه يهدد مكاسبه الطبقية في المجتمع، ويتهم عمال الأرض بالكسل والتهاون؛ ويبدو أن المؤلف كان يهدف الى تعرية الواقع وكشفه عبر منظور انساني، فهو يرفض الاستغلال والجمود ويدعو لتأكيد دور الفلاح في حركة التطور التاريخي داخل الريف.

ان الحوار في رواية "ريح الجنوب" يتميز على العموم بالقدرة على التعبير عن احاسيس الشخصيات بالواقع المعاش في القرية، إذ إنه أسهم بقسط وافر في رسم الشخصيات الروائية وكشف عن طبيعة تكوينها بصورة

---

1 ـ الرواية: ص: 180 - 181 - 182

مقنعة، وكان سببا مباشرا من أسباب حيوية السرد في الرواية، ولعل ما يمكن التنويه به في رواية " ريح الجنوب " هو " سلامة لغة الكاتب واستقامة أسلوبه بوجه عام. فلغته متينة تتحاشى المبتذل، وتبتعد عن الحوشي، ولا تتسامح في المحافظة على القواعد اللغوية الا نادرا " (1)

ولئن كان الحوار في مجمله جادا وممتعا، الا أنه لم يخل من بعض المآخذ الفنية- وان كانت قليلة- ومنها أن الحوار لم يكن يأتي أحيانا وفق ما يحتمل وعي الشخصية وواقعها الحياتي، من نحو ما يظهر في الحوار الذي دار بين العجوز رحمة ورابح الراعي عندما سألها عن معنى الرسومات التي تزين جنبات الأواني :

- قالت العجوز: " انظر هذا الرسم هو السنة القاحلة. أرأيت انها سوف الزرع بلا سنابل. وهذا الشكل هو ريح التركة. أرأيت هذه الشمس المظلمة التي لها مخالب، هي المرض يا بنيّ، وهي الموت الذي خرب بيوتنا. " (2)

يلاحظ من خلال هذه المقطوعة الحوارية صوت المؤلف واضحا. فهو كان شديد الحرص على تمرير رأيه على لسان شخصية العجوز. ان الفكرة التي ينبني عليها الحوار قد تجاوزت مستوى وعي شخصية رحمة صانعة الفخار. ذلك ذلك أن العبارات والألفاظ التي كانت تنطق بها هذه المرأة الأمية، وطريقة تحليلها الرسومات التي كانت تزين جنبات الأواني لا يمكن أن تصدر عن مثيلاتها من العجائز في الحياة، وهو الشيء الذي أفقد هذا الحوار عنصر الصدق، فجاء مفتعلا يفتقر - في رأينا - الى الاقناع الفني والتبرير الموضوعي.

- محمد مصايف : دراسات في النقد والأدب. ص:

- الرواية : ص:

البناء الفني في رواية " نجمة الساحل " :

أ)- طريقة تقديم الحدث :

يقع زمن الحدث الروائي بين سنتي (1963 - 1970). والأرض تعدّ النواة التي نسج وبني حولها موضوع الرواية التي تدور أحداثها باحدى المزارع المسيرة ذاتيا في السنوات الأولى من الاستقلال .

يخرج المؤلف في هذه الرواية عن الشكل التقليدي ، أي عن السرد التقليدي القائم على التتابع الزمني المنطقي الى طريقة الرواية المعاصرة القائمة على اللاتسلسل الزمني للأحداث . فمن حاضر الفلاحين في المزرعة كان الزمن لا يتردّد في أن يتسرب الى ماضيهم- في الهجرة وما كانوا يعانونه من صنوف التعاسة والشقاء على يد أرباب العمل الأوروبيين - ثم ما يكاد الزمن يستقر في الماضي حتى يقفز الى المستقبل مصورا اهتمامات الفلاحين ومشاغلهم . ولعلّ هذه الطريقة تكون جيّدة وبناءة اذا كانت قدرة الروائي على التحكم في سير الأحداث قوية ومتينة ، وهو الشيء الذي لا نكاد نظفر به في رواية " نجمة الساحل " . ولعل السبب في ذلك يعود الى عامل المصادفة الذي كان يسير الأحداث دون سابق تمهيد . وقد بهتت العلاقة المنطقية وروابط النتائج بالمقدمات بينها حتى لا تكاد تظهر ، الأمر الذي أثر على ديناميكية هذه الأحداث ، بأن جعلها تسير ببطء وبشكل ملتو يبعث على البلبلة في ذهن المتلقي . على أن الباحث لا يعدم بعض المقاطع الجميلة

ـ في هذه الرواية ـ التي تتسم بالحركية والايقاع السريع والقدرة على التعبير عن واقع الفلاحين في المزرعة، واهتماماتهم المستقبلية على نحو ما يظهر في الفصل الخامس من الرواية مثلا. ومما يلاحظ في رواية " نجمة الساحل " أن المؤلف قد تجنب الانسياق وراء عرض جزئيات الأحداث عرضا ظاهريا باللجوء الى المونولوج الداخلي الذي استعمله بنجاح على العموم، وكذلك الحوار. على أن الحوار لم يكن دائما يدلّ على حقيقة الشخصيات أو يعبر عن مستواها الثقافي ووعيها الاجتماعي والسياسي بقدر ما يعبر عن أفكار الكاتب، على نحو ما يظهر في قول هذا الفلاح :

" ـ تسييرنا هو اشتراكيتنا ... وهي تقوم على " تسييرنا الذاتي" .. به نحارب البرجوازية ... "الموروثة" تعرفون : هي والاستعمار وجهان لفعل شنيع يحدثانه داخل المجتمع ... طبعا الاستعمار عرفتموه ... "

صمت قليلا ثم أضاف :

" ... ان البرجوازية الصغيرة حليفة الاتجاه الجديد في المعركة وليست عدوته." (1)

فواضح أن هذا الحوار لم يأت وفق ما يحتمله وعي الشخصية وواقعها الحياتي؛ الأمر الذي جعلها تفتقر الى الاقناع والصدق. ان هذا الفلاح مهما بلغت درجة الوعي لديه، لا يمكن أن يصل الى هذا المستوى

---

1 ـ رواية " نجمة الساحل " . ص : 47

من التعبير. لأن الظروف القاسية التي مرّ بها في الماضي حالت دون تعلمه. وفي رأينا أن من واجب الكاتب " أن يعي بشخصياته وأن يجعلها تصدر في أقوالها وأفعالها عن منطق الحياة التي أرادها لها المؤلف وأن تعيش واقعها وأفعالها بواقعيتها الظاهرة وواقعيتها الخفية أيضاً ... وألا تكون الشخصيات بوقا ينقل ما يلقي به اليها المؤلف من كلام، فيكون المتكلم هو المؤلف نفسه على لسان هذه الشخصيات الببغاوية " (1)

ب) دراسة الشخصية :

لعل أهم ما يلفت الانتباه في رواية " نجمة الساحل " هو غياب صورة البطل التقليدي الذي كان يستقطب أحداث الرواية ويفرزها. لقد حاول الروائي أن تكون البطولة جماعية لا تستأثر بها شخصية مركزية واحدة ولو يرى الفلاح حميد الفن كذلك، لما يتمتع به من خبرة نضالية طويلة يستميز بها عن بقية الفلاحين، الا أنه لا يعدّ الشخصية المحورية بل إنّه يدخل في علاقة جدلية مع الشخصيات الأخرى، على نحو ما يظهر في الفقرة التالية:

" - ابراهيم ... حميد الفن ... ابن سعيود ... الهادي ... ناس لا يمثلون فرديتهم أو طموحا شخصيا في مكان وزمان متحركين، فهم يرحلون عبر مثاكل جلّ فلاحي أرض هذا البلد ... يحملون في داخلهم ثقل القضية الكبرى

---

1 - محمد زغلول سلام: دراسات في القصة العربية الحديثة. ص: 31

... وهي مسألة الأرض وانتاجها ."

" هم ككل فلاح جزائري عاش حياة مشحونة بالفقر المدقع... وحرم من أرضه عشرات السنين ، فلا بد أن تكون الأرض ملكا للجميع، تماما مثل ما ان الهواء والشمس للجميع " (1)

لقد استهدف الروائي تركيز البطولة الجماعية في تطوير الأحداث ، أي أنه حاول تجاوز مفهوم البطل الفردي التقليدي بطرحه لكثافة فعل الجماعة وفاعليته . " وعبد العزيز بوشفيرات حتى وان لم يحقق في اتباع هذه الطريقة فانه لم يحقق نجاحا معتبرا ، لأنه لم يتمكن من السيطرة على أبطاله ، ولم يستطع بسبب ذلك أن يتحكم في سير الأحداث وتطورها ، وكان ذلك عاملا مباشرا في تشتيت جهده في متاهات متعددة" (2)، فهو لا يكاد يلمّ بحياة هذه الشخصية حتى يقفز للحديث عن الشخصية الأخرى ، وقد يساق وراء الحديث عن شخصية ثانوية دون مبرر، مثل حديثه عن شخصية (طبال) القرية ، اذ ان الروائي قد أطال الحديث عن هذه الشخصية- مثلا- دون أن يخدم ذلك السياق العام للرواية . والواقع أن شكل الرواية كان على العموم مذبذبا وغير قائم على منهجية واضحة . ولعل السبب في ذلك يعود الى اهتزاز العلاقة بين ذات الأديب وموضوعه ، بحيث اننا نلاحظ أن الروائي كان يستهويه المضمون فيركز عليه مهملا جانب الشكل فيسقط في التقريرية

---

1 - الرواية : ص : 9

2 - أحمد منور : المرجع السابق . ص : 89

والمباشرة (1)، وطورا يستهويه الشكل فيطلق العنان لخياله ليقدم مقاطع تتم بالايحاء والشفافية وطابع الشاعرية- وان كانت قليلة ولا تشكل ظاهرة مسيطرة في الرواية-.

ولا بد في الأخير من الاشارة الى ضعف أسلوب الروائي والأخطاء اللغوية الكثيرة (2) التي تخللت هذا العمل وأفقدته كثيرا من مزاياه.

---

1 - ينظر الرواية : ص: 9

2 - المصدر نفسه: ص: 38، 39، 43، 51، 67، 92، 98...

- البناء الفني في رواية " الـزلزال " :

لعلّ رواية " الزلزال " تقترب في كثير من الجوانب من القصة القصيرة، فالحدث في هذا النتاج الأدبي يمتاز بالايجاز والتركيز. ذلك أنّ المؤلف لا يتناول الا لحظة درامية من حياة بوالارواح، يسلط عليها الأضواء ولا يتعداها. كما أن الزمن هو بدوره مكثّف بحيث لا يتجاوز نصف اليوم من حياة البطل. أما من حيث الشخصيات فان المؤلف لا يكاد يتناول الا شخصية محورية واحدة تستقطب أحداث الرواية عبر لحظة وجيزة، وحتى وان وجدت بعض الشخصيات الثانوية فانها لا تدور الا في فلك الشخصية المحورية وتتفيّء ظلّها.

إن هذه العناصر التي ذكرنا، والتي تتوافر في رواية " الزلزال " هي من ركائز القصة القصيرة، عكس الرواية التي " يكون مداها - عادة - جماعة ما في مرحلة طويلة نسبيا " (1). لكن هذا لا ينفي أن عبد المجيد بوالارواح - باعتباره شخصية روائية - يمثل نموذجا اجتماعيا في مرحلة محددة تاريخيا.

---

1 - لعلّ أول الملامح التي تميز القصة القصيرة عن الرواية، هي أن القصة القصيرة تعبر عن موقف معين من حياة الشخصية، أو جانب من جوانب حياتها لا كلّها. بينما الرواية يكون التعبير فيها عن حياة الشخص كلها، أو جوانب متعددة من حياتها. أما من حيث الزمن في القصة القصيرة يكون مركزا وموجزا، أي أن القاص يتناول لحظة درامية من حياة الفرد فيعمقها ويسلط عليها الضوء، في حين أن الزمن في الرواية فيكون أطول وقد يستغرق أزمانا وأزمانا. مثل رواية " الحرب والسلم " لتولستوي، أو ثلاثية محمد ديب.

I ـ دراسة الشخصية:

يلاحظ في رواية " الزلزال " عنصر من فن السيرة، فهي تدير الأحداث حول شخصية استقطابية واحدة، فلا تكاد هذه الشخصية تفسح المجال لحياة الشخصيات الثانوية حتى تقطع منحى السيرة، ولا تتناول من حياتها الا ما يعين على رسمها، بمعنى أن حضور الشخصية الرئيسية يهيمن على باقي الشخصيات الثانوية في الرواية.

II ـ البناء الداخلي للشخصية:

لقد رسم المؤلف بطل روايته حادّ اللّمحات، وحاول أن يصوّر فيه ضياع الأرستقراطية العقارية التي فقدت الكثير من امتيازاتها وأحلامها الطبقية القديمة، والتي لم تعد تملك القدرة على التلاؤم مع وضع المجتمع الجديد في الجزائر. لذا ترى الروائي قد خلع على هذه الشخصية صفة الطيش والجنون والعجز عن مواجهة كل جديد مستحدث. إن بوالارواح هو تلك الشخصية المتشققة المتصدعة، المضطربة التي أفرغ فيها الروائي عن طريق الحشد والتجميع كل أنواع المتناقضات بشكل يدعو الى الاشمئزاز منها، لأنها تحمل فكرة البطل المضاد في الرواية. ومن هنا فقد ركّبت هذه الشخصية وبُنيت بناء مقصودا على نحو يضمر بناؤه تحطيمه حالَما ينتهي من صنعه، فاتخذ له أركانا واهية، وأعمدة هشّة لا تلبث أن تنهار. وهي طريقة لجأ اليها الروائي لكي يمهد لموضوعية وقوع الأحداث بشكل فني يقنع المتلقي بسلوكات الشخصية، وبحقيقة أمر التصرف الجنوني الذي

ستقدم عليه في نهاية المطاف ، لذلك نلاحظ أن المؤلّف أضفى عليها صفات تتمثل في الآتي :

أ) ـ كثرة الشرود الذهني :

يؤكد السياق الروائي أن بوالارواح كان شديد الشرود والذهول طيلة تحركه في قسنطينة. وهي اشارة وظفها المؤلف توحي بعجز البطل التام وقصوره على مواجهة الواقع المتغير في المدينة ، والسير في ركابه. كما أن شرود البطل يعدّ ـ في خقيقة الأمر ـ مؤشّرا على اغترابه في مجتمع الاستقلال . ولعلّ الباعث الحقيقي لهذه الظاهرة هو ذلك التغيّر والتحوّل الذي لحق المدينة ، فأصبح كلّ شيء فيها يبعث في نفسه الشعور بالاغتراب .

ب) ـ حدة حاسة الشم :

وهي صفة يتميز بها بوالارواح ، ويظهر ذلك من خلال حديثه التالي الى نفسه :

"... حاسة الشم تطغى على باقي الحواس في قسنطينة ، في كلّ خطوة ، وفي كلّ التفاتة ، وفي كل نفس ، تبرز رائحة متميزة ، صارخة ، الشخصية ، تقدم نفسها لأعصاب المرء وقلب المرء ... " (1)

ولعلّ تركيز الروائي على حدة حاسة الشم عند بطله لم يكن مصادفة ولا اعتباطا ، وانما لهدف السخرية والتهكم من هذا النموذج البشري الذي فقد القدرة على ادراك الأمور بالعقل ، فتحوّل الى حيوان يعتمد حاسة الشمّ في

---

1 ـ رواية الزلزال : ص: 9

التمييز بين الأشياء، لأن الشم يعد أدنى حاسة الحدس عند الانسان. وتقترن حاسة الشم بتلك الكلاب المسعورة التي تلاحق خطوط الرائحة الأثيرية، فهي تلاحق اللامرئي، وهي اشارة رمزية من المؤلف تؤكد عجز بوالارواح في الظفر بما يريد الحصول عليه - محاولة تسجيل الأرض على الأقارب - وبذا يصبح الشم صورة موحية للملاحقة اللانهائية التي تؤدي في نهاية المطاف الى الانهيار المحتم، وهذا لغياب محطة الوصول المرغوب فيه.

ج) - الخوف والهلع :

لعلّ السمة الغالبة على سلوك بوالارواح هي المناجاة والخوف والقلق وفقدان الصواب. ان زلزال الهزيمة ينزل ضربة بنفس البطل، كما يبدو من خلال هذه اللازمة التي كان يرددها مرارا وبكثرة:

" ... آه الدوار في رأسي، الارتجاج في قلبي، الوهن في ركبتي، آه أنا مريض، أنا مثقل الروح ... " (1)

ان شخصية البطل التي قدمها الروائي - دون شفقة - وهي على هذه الصورة، صورة التمزق والضياع وفقدان التوازن تردّد الآيات الكريمة الموحية بالرعب والهلع، وهي لا تعكس في الحقيقة سوى حالة الاقطاعي اللامستقرة كمثل ترديده للآية الكريمة التالية:

" ان زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى " (2)

---

1 - المصدر السابق : ص: 46، 47

2 - سورة الحج آية رقم 1، 2

فقد كانت هذه الآية الكريمة ـ أيضا ـ كثيرة الدوران على لسان بوالارواح بحيث شكلت ظاهرة مسيطرة، ومنها أخذت الرواية عنوانها.

إن ميل البطل الى التأويلات المتشائمة التي تبعث على الزلزال في كلّ شيء تقوم دليلا على نظرته السوداوية لهذا العالم الذي فقد موازينه وأس قيامه بالنسبة له، والذي لم يعد يملك الاستعداد الكافي للعيش في أحضانه والثبات في أرجائه. ولعلّ الباعث الحقيقي لذلك يعود بالدرجة الأولى إلى تغير علاقات القوى الاجتماعية، وبخاصة مع ظهور نظام الأرض الجديد، الذي وضع في مقدمة اهتماماته القضاء على الملكية الاقطاعية.

إن تكرار لفظة الزلزال أو ما يوحي بها في الرواية ـ بشكل لافت للانتباه ـ يدلّ على انهيار الشخصية الاقطاعية. فعلى مساحة الرواية الشاسعة المضطربة، ابتداء من وجود قسنطينة على صخرة مشقة، إلى الأزقة المهدّدة بالزوال من الداخل ومن الخارج لا تستطيع له دفعا. فالبطل تعذبه نفسه من الداخل وتدفعه إلى الانحدار، ويلهبه المجتمع ـ المدينة ـ من الخارج ويحيل حياته إلى جحيم مقيم، وهو عاجز عن التوفيق بين هذا وذاك. إنه مهزوم مدحور. تؤكد كل المعطيات المقدمة على نهايته الأكيدة المنتظرة.

لقد حاول المؤلف أن يقدّم لنا ـ من خلال بوالارواح ـ نموذجا للتمرد الفردي المحكوم عليه بالاحباط، لأنه يقاوم ـ متفردا ـ الحياة الجديدة الوافدة بالمدينة، والتي بدأت فيها أزمته تتعقد شيئا فشيئا، وانتهت بتدميره في نهاية الأمر.

ان الباحث يلاحظ أن العناية برسم الشخصية المحورية من الداخل فاقت الاهتمام برسمها من الخارج ، وهو أمر تفسره الرغبة في محاولة الاستبطان والتحليل النفسي للشخصية . من هذه الوجهة فان الرواية تكاد تكون رحلة عبر وجدان البطل ، وكل ما تبقى من لمسات ولمحات ومواقف وشخصيات ما هي الا عوامل مساعدة في تشكيل البناء الفني العام للرواية ، الذي يقف بوالارواح على قمته . ولذلك اعتمد الشكل الفني للرواية على التحليل النفسي . فواضح أن انفعالات الشخصية وهواجسها هي التي رسمت الخطوط الأساسية لشكل الرواية الفني بصفة عامة . إن بوالارواح شخصية نمطية جاهزة كانت تحمل جنونها في ثناياها ، ولعلّ قلقها من ازدياد السكان في المدينة وضجرها بالمتسولين ، وبالناس أجمعين ، وذكر الآيات الكريمة الموحية بالزلزال تقوم دليلا على انهيارها وحطامها ، لذلك كانت العناية برسمها من الداخل كبيرة .

ب) ـ بناء الشخصية الخارجي :

لقد سبقت الاشارة الى أن المؤلف قد أولى عناية خاصة بتحديد البعد الداخلي لشخصية البطل ، لكن هذا لا يعني البتة أن بناء البعد الخارجي لهذه الشخصية قد أهمل تماما ، وهو ما لم تثبته معطيات الرواية . ولعلنا لا نكون مخطئين حين نقول إن البعد الداخلي والخارجي للشخصية الاستقطابية كانا يسيران جنبا الى جنب ، وكانا يتبادلان التأثير والتأثر .

لقد اهتم الروائي برسم الملامح الخارجية الخاصة ببوالارواح ، فوصف القشرة الخارجية لهذه الشخصية ، وكأنه يلتقط لها صورة فوتوغرافية ، محاولا

بذلك تجسيم صورة الاقطاعي في مخيلة المتلقي، انها صورة قبيحة، سمجة، تشمئز منها النفس وتقشعر لها الفرائص. ولعل هذا المشهد يؤكد صحة القول :

" ... أسند بوالارواح ظهره الى جدار المسجد، وراح يحتضن بطنه المنتفخة بذراعيه، وهو يحاول إفتعال الحذاء، والعرق يتصبّب من وجهه، وعيناه الكبيرتان البارزتان تتسعان أكثر فأكثر، بينما شفتاه تتمتمان بتلاوة دعاء، وعضلات وجهه تتقلص وترتخي ... " ( )

نلاحظ في هذا الوصف كثيرا من الحقد والسخرية، وهو ينم عن رفض الروائي المطلق لهذه الشخصية التي تحمل فكرة البطل المضاد. والحقيقة أن السمات الخارجية لبطل رواية الزلزال هي سمات نمطية جاهزة. فالسمنة والترهل وانتفاخ الأوداج والبطن، وبروز العينين، وارتخاء الشفتين، وغيرها من السمات قد لا تصدق على عبد المجيد بو الارواح وحده بقدر ما تصدق على كل الشخصيات الروائية التي تمثل النموذج المستغل - بكسر العين - في المجتمع، سواء أكان هذا النموذج اقطاعيا، أم كان رأسماليا، أم غير ذلك.

ان الروائي يقسو على بطله إلى أبعد ما تكون القسوة، ويسخر منه أقصى ما تكون السخرية، حين يصوره وهو يجوب الشوارع - في محاولة البحث عمن يقسم عليهم الأرض - . فبوالارواح لا يمشي في الشوارع كما يمشي سائر الناس، بل انه يتدحرج كما تتدحرج البراميل المفرغة.

---

1 - المصدر السابق : ص: 19

ولعل هذه الصورة الوصفية تغنينا عن كل تعليق :

" ... تدافع بوالارواح يحرك قدميـن في خطوط متقاطعة ، وصدره وعجـزه في حركة لولبية ، ورأسه يبرسم تارة نصف دائـرة وأخرى دائـرة كاملة ، بينما ذاراعـاه تطوقان بطنه" ( ) ، " انحدر مع نهج أحمد هـلال متكورا ، متقاذفا ، متدحرجا ... " ( ).

فواضح أن المؤلف قد اشتط به القلم ووقع في الاسراف والتهويل وافتعال الأحداث . وقد كان بامكان الروائي ألا يقدم شخصية خارقة لا تتفق والواقع الانساني في شيء ، بل عليه أن يعني بشخصياته وأن يجعلها حيّة مألوفة ، " تتوازى مع الشخصيات في الحياة الواقعية" ( )، بحيث تكون مقنعة ولها مبرراتها الفنية .

ويلاحظ في رواية الزلزال أن المؤلف كان - في كثير من المواقف - يمزج بين الوصفين الداخلي والخارجي للشخصية ، محاولا بذلك اعطاء صورة واضحة لبطله المتداعي المرهق ، على نحو ما يظهر في الفقرة التالية :

" ... لم يعد بوالارواح يبصر أين يتجه ولا يدري سبب وجوده . الدوار يحرك كيانه والأرض من تحته . استند الى سور الشارع قبالة المدرسة واضعا يدا على جبهته ويدا على قلبه ، وراح يتنفس ببطء " ( )

---

1 - المصدر السابق : ص: 21

2 - المصدر السابق : ص: 123

3 - محمد زغلول سلام: دراسات في القصة العربية الحديثة . دار المعارف الاسكندرية . بدون طبعة ولا سنة الطبع . ص: 19

4 - المصدر السابق : ص:

وعلى الرغم من غلواء الروائي - في بعض الأحيان - في رسم معالم شخصية بوالارواح، الا أنه استطاع أن يقدم نموذجا حيًّا لبطل مهزوم مدحور، صور فيه انهيار الطبقة الاقطاعية التي دقت ساعة أفولها بحلول نظام الأرض الجديد .

دلالة الاسم في رواية الزلزال :

لعلّ الفنان الروائي في الغالب ، عندما يعطي لبطل روايته اسما ، فانما يحاول أن يكون هذا الاسم مطابقا للمسمى، بمعنى أن تكون هذه التسمية تحمل ايحاءات ودلالات ذات ارتباط وثيق بالمضمون الذي يراد التعبير عنه. ولعل رواية الزلزال لم تشذ عن هذه القاعدة، إذ إن اختيار بوالارواح اسما لبطل الرواية لم يكن من قبيل العبث أو المصادفة، وانما كان وطار يقصد من وراء هذه التسمية عدة أبعاد دلالية تخدم رؤيته الفكرية والجمالية وتسهم بقسط وافر في بلورة المعنى العام للرواية. ومن الأبعاد الدلالية لاسم بوالارواح في المنظور الشعبي : الشخص السفاح الدموي الذي زهق أرواحا كثيرة. وهي صفة ذميمة في المنظور الشعبي ، توحي بازدراء العامة لهذا الشخص. ولعل معطيات الرواية تؤكد أن عبد المجيد بوالارواح كان سفاكا يسفك الدماء حين قتل زوجة أخيه وزوجة أبيه الثالثة. (1) ، وحين كان يستنزف طاقات الفلاحين ويمتص عرقهم ويتركهم حطاما هشا في نهاية المطاف. ان البطل سليل أسرة اقطاعية كبيرة بنت مجدها

---

1 - المصدر السابق : ص: 178، 179

على رقاب الفلاحين الصغار وعمال الأرض. وانطلاقا من هذا المنظور يبدو أن المؤلف قد استوحى اسم الشخصية المحورية في رواية الزلزال. ومن الدلالات الشعبية لاسم بوالارواح : طويل العمر الذي لا يموت بسهولة ويسر، وهي تطلق على الكلب، لأن الكلب - في المعتقد الشعبي يملك سبعة أرواح، اذا زهقت واحدة فان الأخرى ستبقى، وتستمر الحياة بالنسبة اليه. كذلك الاقطاع ليس من السهل القضاء عليه في فترة قصيرة، لأنه يملك من القوة ما يؤهله للبقاء مدة أطول. ولعلّ اختيار الروائي لجسور قسطينة السبعة يؤكد ما ذهبنا اليه، فكأن كل جسر بمثابة روح تزهق للاقطاعي، وتكون آخر الأرواح بالنسبة له هي جسر الهواء، وهو الجسر السابع، أين يصاب البطل بالجنون؛ وما الجنون الا المعادل الموضوعي للموت. من هنا تخلص الى نتيجة مؤداها أن اختيار بوالارواح اسما للشخصية الاستقطابية في رواية الزلزال لم يكن من قبيل العبث، وانما وظفه المؤلف عن ادراك ووعي تام للتعبير عن أفكاره.

الشخصيات الثانوية :

لعل أهم ما تستميز به رواية الزلزال هي قلة الشخصيات الروائية، الأمر الذي جعلها - أي الرواية - تقترب من دائرة القصة القصيرة، ذلك أننا لا نكاد نجد الا شخصية واحدة تستقطب الأحداث وتفرزها، تلك هي شخصية عبد المجيد بوالارواح. ولئن وجدت بعض الشخصيات الثانوية انما خلقت - أساسا - لتوضح بعض الجوانب الخفية من حياة الشخصية

المحورية، وتسهم بقسط وافر في صنع مأساتها، بمعنى أن " تفاعل الشخصيات الثانوية مع الأحداث قائم على أساس بسيط لا تكشف به كثيرا عن الأعماق النفسية والنواحي الاجتماعية " ( ).

ومن الشخصيات الثانوية الهامة:

- بالباي : شخصية مسطحة لا دور لها في الرواية سوى أنها أثارت أشجان بوالارواح، وحركت فيه كوامن الشوق الى الماضي - زمن الاستعمار - وضاعفت مخاوفه، وأذكت في أعماقه حدة الاحساس بالزلزال وهو ما يستنتج من المحاورة التي دارت بين البطل وصديقه بالباي :

" - قسنطينة الحقيقة انتهت. أقول : زلزلت زلزالها. لم يبق من أهلها ما كان. أين قسنطينة بالباي وبالفقون وبن جلول وبن تشيكو وبن كرارة. زلزلت زلزالها، وحل محلها قسنطينة بوفنارة وبو الشعير وبولفول وبو طمين وبوكل الحيوانات. "

رد بوالارواح :

" - لكن زلزال هذه المرة كبير. كبير جدا. سيشمل الداخل والخارج. " (2)

يبدو أن المؤلف لم يقترح شخصية بالباي الا لتسهم في تدمير معالم الاقطاعي، وتذكره بدنو أجله الذي غدا وشيكا. ولعل ذلك يظهر من خلال تبرم بوالارواح من الوضعية المتردية التي آل اليها بالباي - أحد أعيان الماضي : "... بالباي الكبير. صديق الآغوات والباش آغوات والعلماء والحكام والنواب، وصل الى هذا المصير " (3) المؤلم.

1- محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث. دار العودة بيروت. (ب ط). ص: 56

2 - المصدر السابق : ص: 28

3- المصدر السابق : ص: 30

ـ نينـــــو: شخصية ثانوية وظفها الروائي لتوضح بعض الجوانب الخفية من حياة بوالارواح ، وتسهم بدورها في تدميره. فنينو الذي كانت لـــه مكانة مرموقة زمن الفرنسيين ـ كان رجل أعمال يشار اليه بالبنان ـ(1) قد دالت دولته وتفاقم وضعه ، ولم يكن بأحسن حالا من بالباي ، ذلك أنه غدا دلالا يجوب الشوارع والساحات ، علّه يبيع شيئا ليس ذي بال يسد به رمقه. لقد زاد نينو نار بوالارواح تأجّجا ، وبخاصة عندما أخبره بـــأن صهره ـ الذي كان يود بوالارواح أن يسجل على اسمه بعضا من أرضـــه ـ قد استشهد.(2) . ان معطيات الرواية تشير الى أن أبناء الأرستقراطية العقارية بدأوا يتقهقرون الواحد تلو الآخر ، لأن السّند الذي كان يحمي ظهورهم ـ وهو الاستعمار ـ قد تهشم ، لذا لم يبق للاقطاعي بوالارواح الا انتظار مصيره الأليم الذي غدا وشيكا ، وبخاصة مع ظهور نظام الأرض الجديد الذي وضع في مقدمة اهتماماته القضاء على مخلفات الماضي ، باعادة النظر في نمط العلاقات الانتاجية في الريف.

ان الشخصيات الثانوية ـ على قلتها ـ ساعدت على اذكاء حدة التأزم النفسي عند البطل ، وكشفت النقاب عن جوانب خفية من حياته الماضية. وفي رأينا أن الروائي قد استخدم الشخصيات الثانوية استخداما نأى بها عن هامشية العمل الفني ، ووظفها لخدمة المضمون ، وهو المساهمة في تدمير شخصية بوالارواح ، رجل الاقطاع في رواية الزلـــزال.

---

1 ـ المصـــدر الســـابق : ص: 89

2 ـ المصـــدر الســـابق : ص: 95

المونولوج الداخلي :

يعدّ المونولوج الداخلي من طرائق السرد الحديثة في الرواية. ولعلّ الغاية منه هو " ادخال القارئ مباشرة في الحياة الداخلية للشخصية بدون أي تدخل من جانب الكاتب ، عن طريق الشرح والتعليق ... والتعبير عن أخص الأفكار التي تكمن في أقرب موضع من اللاشعور." (1) .

لقد سبقت الاشارة الى أن رواية الزلزال تكاد تنفرد بنموذج واحد هو الاقطاعي ، بحيث جاءت أحداثها معبرة عن وجدانه الباطن وتجربته العاجزة. كما أن البناء الروائي اتخذ من وجدانه السقيم ايقاعا متتابعا في اتجاه واحد، اما بالعودة الى الماضي عن طريق الذكريات ، أو الحاضر والمستقبل، مواكبا حركة الأحداث ونموها . وقد تحكم هذا البناء في الشكل ، فبدت الرواية وكأنها وثيقة نفسية جسدت نبضات الاقطاعي بوالارواح ، وبينت أحاسيسه الداخلية. لذا اختار الروائي المونولوج الداخلي - باعتباره - طريقة فنية مُثلَى لاستبطان عالم البطل الداخلي وكشف ما يعتور في أغوار نفسه السحيقة من صراعات وأزمات وأفكار.

ان الحوار الداخلي يمثل ظاهرة مسيطرة في رواية الزلزال ، بحيث يكاد يشكل أكثر من 70 ٪ من أحداثها . ويمكن للباحث أن يجد لهذه الظاهرة تفسيرا منطقيا ، هو أن الاقطاعي كان في صراع مرير مع المجتمع ، في المدينة ، ولم يجد أي سند فيها يحميه ويخفف بعضا مما هو فيه ، وهو الأمر الذي اضطره الى الاتكفاء على الذات ، وهذا من شأنه أن يفسح

---

1 - روني ويليك : أوستن وارين : نظرية الأدب . ترجمة محي الدين صبحي . م . ع - د . ن . بيروت - سنة 1981 ط 2 - ص : 235

المجال أمام الذكريات والتداعيات وأحاديث النفس ، بحيث طغت على الأحداث الأخرى ، بمعنى أن انفصام بوالارواح عن المجتمع حدا به الى الالتفات الى ذاته ، مما جعله يحادث نفسه أكثر مما يحادث الآخرين .

من هذه الزاوية يكون الروائي قد فضل طريقة المونولوج الداخلي هادفا من ورائها لعملية الكشف الأساسية عن موقف بوالارواح الرافض لقانون الأرض الجديد ، وحقده على الفلاحين ، على نحو ما يظهر في حديث البطل التالي الى نفسه :

" ... يجب أن أخرج الليلة من قسنطينة . أبيت في القرية لأصفي صباح غد الحسابات مع الخماسة وأطردهم . أطردهم عن بكرة أبيهم . ينبغي من الآن فصاعدا أن لا أخدم أرضي الا بالآلات وبالمأجورين الوقتيين . فمن يدري مع هؤلاء اللصوص ؟ " (1)

فغاية المؤلف اذن من وراء هذه الطريقة ، هي دراسة الشخصية الانسانية وعرضها على الملأ برسم قطاع داخلي لحياتها الملأى أحلام الرعب والضياع والاستقرار . ان الباعث الجوهري لاضطراب بوالارواح وهوسه يعود - بالدرجة الأولى - الى الخوف من ضياع الأرض التي يستمد منها مبررات البقاء والوجود . يقول عبر هذا المونولوج الداخلي :

" ... الملاعين ، رجال السلطة لا يريدون أرضنا ، انما يريدون أرواحنا . يريدون أن نقع في الهلع . انهم يتصرفون مدفوعين برغبات كل هؤلاء الأشرار من الفقراء ، مدفوعين بلؤم العالم الذي انبثقوا منه . أنا وقعت في فخهم . بدأت

---

1 - المصدر السابق : ص :

أحس بكلكلهم قبل أن ينزل على صدري ." ( ) .

وصفوة القول ان الروائي قد وظف طريقة الحوار الداخلي ليعبر بواسطتها عن مكونات الشخصية المحورية واهتماماتها الداخلية، ودواعي الاحباطات النفسية التي قادتها في نهاية المطاف الى محاولة الانتحار ثم الجنون .

الحوار:

على الرغم من الأهمية الكبيرة التي يكتسيها الحوار في بناء الرواية الفني، الا أن الباحث يلاحظ قلّة استعمال هذا العنصر في رواية الزلزال بالقياس الى المونولوج الداخلي الذي يشكل ظاهرة مسيطرة فيها . ولعل ندرة الحوار لم يأت اعتباطا ولا مصادفة، وانما لضرورة فنية وموضوعية اقتضتها رؤية الكاتب الايديولوجية . ولقد سبقت الاشارة الى أن علاقة الاقطاعي بالمجتمع غدت علاقة تنافر وتضاد، مما جعل عنصر الحوار يتقهقر فاسحا المجال أمام المونولوجات الداخلية والتداعيات، لتعبر بصدق عن هموم هذه الشخصية وهواجسها . والحوار - على قلته - ساعد على اظهار بعض الجوانب الخفية من حياة بوالارواح ، ورفع الحجب عن احساساته المختلفة، ومواقفه الراهنة ازاء الاصلاح الزراعي . كما أن الحوار قد أبان لنا عن هوية الشخصية وانتمائها الطبقي. وهو ما توضحه المقطوعة الحوارية بين بوالارواح وبالباي :

"... جئت تقسم الأرض على أبنائك . المسألة سهلة على ما يبدو."

"- ورثتي ! ليس لي أبناء مخ الأسف . المسألة ليست بالسهولة التي تظن ."

---

1 - المصدر السابق : ص: 161

ـ كيـــف ٠

"ـ علـــي أولا أن أعثـر على أقارب ، فلم أر أحدا منهم منذ الحرب تقريبـــا ، بل قبل بكثيـر ٠ ولست أدري هل ما زال منهم من هو على قيد الحياة أم لا !

وعلي ثانيا أن أقنعهم بضرورة مساعدتي على تنفيذ المشـروع ٠ وعلـــي ثالثا ، وهذا هام جدا ، أن أنفـذ المشـروع في أسرع وقت ممكـن ٠ فحســب الأخبـار المتسـربة أن المسألة عاجلة ، وسيعلن عنهـا عما قريـب ٠ "

"ـ يكفـي أن تجد قريبـا أو اثنيـن ٠"

"ـ المسألة أعقد بعض الشيء ٠ انها مرتبطـة بكمية الأرض ٠ عندي ما يزيـد عـــن ثلاثـــة آلاف هكتـــار ٠"

"ـ اهـــاه ٠"

"ـ شيء ورثتـه ، وشيء اشتريته ، أو تنازل لي عنه بعض الورثـة ٠"

"ـ تأخرت كثيـرا يا الشيـخ بوالارواح ٠" (1)

بواسطـة هذا الحوار جعلنـا المؤلف نستدل على وعـي الشخصية المحوريـة بخطورة الموقف وعرض وجهـة نظرها المتميـزة ازاء قانـون الأرض الجـديـد ٠ فهـو يرفضـه رفضـا مبدئيا ٠ بلـه ، ويعمل على اجهاضـه في المهـد عن طريـــق التحايل والمراوغـة ٠

وتستميز رواية الزلزال ـ على العموم ـ بالبساطة في اختيار الألفاظ ٠ ولعـل هذه البساطة اللفظية في السرد قد أفادت المؤلف في احتواء عنصر الحـــوار بتلقائية مقنعـة ٠ ولقد استفاد الروائي من الحوار الدائر بين الشخصيـات

---

1 ـ المصـدر السـابق : ص : 32

الثانوية ليعبر من خلاله عن بعد من أبعاد أزمة الاقطاعي :

" ـ مشروع الاصلاح الزراعي سيعرض على النقاش عما قريب . "

" ـ هكذا . "

" ـ عما قريب جدا . علمت ذلك من الاجتماع الأخير بالعاصمة . هذه السنة يشرع في العملية . " (1)

وقد شعر بوالارواح بالذعر والهلع وهو يسمع هذا الحوار الدائر بين الرجلين ، وكأنه هو المقصود به أساسا .

والحوار بصفة عامة جاء بالفصحى ، وقد يعثر الباحث على بعض التعابير العامية في الحوار ، بل قل باللغة المبسطة التي تقف وسطا بين رصانة الفصحى ومرونة العامية . وقد كان أسلوب الروائي ـ عموما ـ جميلا متماسكا استطاع التعبير به عن أفكاره بوضوح . لكن هناك مأخذا لا يسع الباحث الا أن يشير اليه ، ولعله يتمثل في تلك النزعة التقريرية والخطابية ، والوعظية التي لونت أسلوبه ـ أحيانا ـ في صياغة الحوار ، على نحو ما جاء في الفقرة التالية :

" ـ اذا لم تحصل المراجعة الدقيقة على ضوء المعطيات العلمية وبروح ثورية لا تعرف التردد أو المساومة ، فسيكون الانهيار . " (2)

" ـ معقول ، لكن أتظن أن الرجعية الحقيقية عندما تكون في الحكم أو حتى قريبة منه تحجم على سفك الدماء؟ لا . الحدة الطبقية ينبغي أن تكون . وليس هناك طبقة تحكم بدون استعمال الدم . " (3)

لعل مثل هذا الحوار يفتقر الى الايحاء والشفافية وطابع الساحرية التي

---

1 ـ المصدر السابق : ص: 207 2 ـ المصدر السابق : ص: 180

3 ـ المصدر السابق : ص: 206.

تعطي الفكرة المراد التعبير عنها ـ صورتها الجمالية التي تنأى بها عن مستوى الأحاديث اليومية المعجوجة، ذلك أن الفن الروائي " ليس تسجيلا أمينا للواقع ولا محاكاة تامة للطبيعة، بل انه عملية انتخاب واختيار من هذا الواقع، تتم بطريقة فنية، لها سماتها وخصائصها التي تختلف تمام الاختلاف عما نقابله ونألفه في حياتنا اليومية ومشاهداتنا العادية." (1)

دراسة الزمن في رواية الزلزال :

يعدّ الزمن من العناصر الأساسية التي تساهم في بناء الرواية، لأنّه "ضابط الفعل، وبه يتم، وعلى نبضاته يسجل الحدث الروائي وقائعه" (2) ولأهميته في رواية الزلزال فانه يكاد يمثل شخصية بأبعادها وتأثيرها على الرواية. ويلاحظ أن الزمن في هذا النتاج الأدبي يمتاز بالتكثيف والايجاز. ويمكننا أن نميز بين ثلاث مستويات له :

أ)ـ المستوى الأول : وهو زمن وقوع الحدث الروائي. انه لا يتجاوز نصف اليوم من حياة الشخصية المحورية، أي أن هذا المستوى يحمل طابع التركيز والايجاز. وكأني بالروائي لم يختر من حياة بوالارواح الا هذه اللحظة بالذات، والتي يمكن أن نسميها بلحظة الاحتضار. أي أن وطارا لم يأت ببطله الى قسنطينة الا ليدمره ويعلن غن نهايته الدرامية فيها.

1ـ ينظر. عمار الطالب: الاتجاه الواقعي في الرواية العراقية : دار العودة ـ بيروت ـ 1981 ـ ط 1 ـ ص: 63

2ـ ينظر د. محمد زغلول سلام: دراسة في القصة العربية الجديثة. دار المعارف مصر . ص: 13

ب)_ المستوى الثانى : وهو ما نطلق عليه تجاوزا الزمن الميت أي المنتهي. وهو يضم جانبا كبيرا من حياة بوالارواح الماضية ويمتد عبر سنوات عديدة ، يصور أسرة آل بوالارواح الاقطاعية. نتعرف اليه عن طريق المونولوجات الداخلية والتداعيات وأسلوب الارتداد والحوار وغيرها.

ج)_ المستوى الثالث :وهو الزمن السيكولوجي. ففيه تتداخل الأزمنة وتتقاطع _ الحاضر والماضي والمستقبل _ وهو خاضع في الأساس الى حالة البطل النفسية ، يتلون بتلون مزاجه.

لقد خرج وطار في رواية الزلزال عن الشكل التقليدي للرواية ، أي أنه لم يلتزم طريقة السرد المباشر القائم على التسلسل الزمني المعروف ، وانما اتخذ اللاتسلسل الزمني وسيلة لتقديم الحدث الروائي. بمعنى أن الأحداث في رواية الزلزال كانت تتحرك في حيز معلوم هو الحاضر ، ولكنها كانت تعود في بعض الأطوار الى الوراء . فتحت ستار الحاضر الذي وضع اطارا للرواية كان الزمن لا يتردد في أن يتسرب الى الماضي البعيد طورا والقريب طورا آخر ، فيصفه وينتقل الى المستقبل ، فينتزع منه بعض الأحداث ليضعها في حيز الحاضر وفقا لما يتطلبه البناء الدرامي في الرواية. والحقيقة أن اللاتسلسل الزمني ساعد على اظهار بعض الجوانب الخفية من حياة الاقطاعي سواء المتعلقة بالماضي أو بالحاضر والمستقبل. اذ يلاحظ أن البطل كان شديد الارتباط بالماضي ، ذلك أنه كان يلجأ الى استحضار بعض المواقف من حياته الماضية ، عساه أن يواجه بها صعوبات الحاضر الملحة التي أقضّت مضجعه فكانت الوسيلة التقنية المعتمدة

في ذلك هي أسلوب الارتداد. فعن طريقه نتعرف الى ماضي الشخصية ومواقفها ازاء معطيات الحاضر في المدينة. ولعل هذا المونولوج يستطيع أن يوضح ما ذهبنا اليه :

" لا الحق . الحق . المدينة انقلبت رأسا على عقب من الفرنسيين كانت هادئة. هادئة بشكل ملفت للنظر. تدبّ الحياة فيها مع مطلع النهار رويدا رويدا ، وتزدهر بين العاشرة ومنتصف النهار، ثم تخفت فجأة بين العاشرة ومنتصف النهار حتى الساعة الثالثة، لتستأنف تصاعدها .... حتى تشتد بين الخامسة والتاسعة عندما يغادر التلاميذ المدارس والثانويات. وتتألق الأنوار وتنطلق العطور من الغادات الأوروبيات والاسرائيليات اللائي يملأن الشوارع كالحوريات بهجة وحبورا . تغير كل شيء، صدق ابن خلدون" (1)

يلاحظ أن التقاطع في الزمن الماضي والحاضر ساعد على ابراز حالة بو الارواح المأساوية المتدهورة، وكشف بجلاء عن حنينه الى الماضي الذي كان يكفل له الأرض والسيادة، والنفوذ في ظل الاستعمار. ان استحضار بوالارواح ذكرى الزمن الآفل انما يمثل في هذا الموقف هروبه الوهمي من جحيم الحاضر الذي غدا رمزا للعدم، أي ضياع الأرض . أما الماضي فهو الواحة الوارفة الظلال في صحراء حياته الحاضرة المؤلمة، يلجأ اليها بوالارواح كلما تأزمت حالته النفسية. ولعل أبرز ما تستميز به رواية الزلزال على صعيد الأدوات الفنية هو " التمكن بمهارة من لعبة الزمن . فليس فيها ذلك الزمن التقليدي - كما أسلفت - بل ان الحدث يسير عبر عدة أزمنة متداخلة ومتشابكة دون أن يختل البناء الروائي أو يضطرب ." (2)

---

1 - المصدر السابق : ص: 12

2 - أحمد عطية: البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة. ص: 155

لقد ساهمت الدياكرونولوجية في بناء درامية الحدث ونأت بالرواية ـ في كثير من المواقف ـ عن الرتابة والجمود التي كادت أن تتسبب فيها كثرة المشاهد الوصفية في رواية الزلزال ، على نحو ما جاء في الفقرة التالية:

" ... الحمام في الأقصى . حلاق في حانوته ، وآخر على المنضدة عند بابه . الاثنان يعملان بانهماك ولامبالاة ."

" ثلاث مقاهي تعمل في تعايش سلمي وكأنها مقهى واحد ، حتى أن المقاعد والمناضد مختلطة . هنا في الوسط شخصان يحملان جبنا بيضاء ويحتسيان قهوة معا ." (1)

لعل مثل هذا الوصف الحرفي للواقع يثقل كاهل الرواية ، ويبعث في نفس المتلقي الملل . ذلك أن العمل الروائي ـ في حقيقة الأمر ـ ليس تقليدا " للعالم الواقع ولا نسخة أمينة من الأشياء ، وانما هي رؤية روحية تعيد خلق الواقع من جديد بغناء أكثر أو تخلق واقعا جديدا أعمق من الواقع الحرفي المباشر وأعظم اثراء . " (2)

ان الباحث يلاحظ أن ايقاع الزمن لم يكن يسير على وتيرة واحدة وتيبة في رواية الزلزال ، وانما كان يتحرك حركة مضطربة متوترة تمليها حالة الاقطاعي القلقة المتداعية . ويمكن القول ان البطل كان في صراع مع الزمن ، بل ان الزمن يعدّ المحرك الأساسي لمشاعره . ولعل هذه العبارات تستطيع تأكيد ذلك:

"ـ جئت أسبقهم . أقسم في الورق الأرض على الورثاء حتى اذا جاؤوا لانتزاعها

---

1 ـ المصدر السابق : ص: 77

2 ـ ينظر د. عمر الطالب : الاتجاه الواقعي في الرواية العراقية . ص: 67

لم يجدوا الشيء الكثير... "

"ـ لكنك جئت متأخرا يا سي بوالارواح . " (1)

"ـ آه ، يجب التعجيل . " (2)

"ـ الوقت ضيق ولا فائدة من تضييع ما تبقى منه . " (3)

"ـ لا أضيع الوقت في التجوال في هذه المدينة المرعبة . " (4)

فهذه العبارات وغيرها كثير في الرواية ، تنمّ عن احساس الاقطاعي الحادّ بالزمن . ان غريزة حب المحافظة على الذات ـ بقاء الأرض ـ هي التي جعلت بوالارواح يحس بوطأة الزمن " كيف لا ، والمرء يتألم عندما يشعر بالفناء يدبّ في كيانه . " (5). لقد شعر الاقطاعي بتيار الفناء يجرفه نحو حتفه كلما فشل في الحصول على من يقسم عليهم الأرض . "ان المرء يشعر بالزمن ، بقدر عدد المشاريع وقيمتها" (6)، لذلك يلاحظ أن ايقاع الزمن يزداد سرعة ووطأته تشتد على بوالارواح كلما أحس بفشل في تنفيذ المشروع الذي من أجله جاء الى قسنطينة ، والمتمثل أساسا في محاولة النجاة من قبضة نظام الأرض الجديد . ويبلغ الخوف مداه ، والحزن أوجه ، واليأس منتهاه ، ويصاب بوالارواح بالجنون ، " شعر ببصره يزوغ ويمغه ، وبالزمن

---

1 ـ المصدر السابق : ص: 31

2 ـ المصدر السابق : ص: 57

3 ـ المصدر السابق : ص: 103

4 ـ المصدر السابق : ص: 49

5 ـ ينظر . سمير الحاج شاهين : لحظة الايديولوجيا دراسة الزمن في أدب القرن العشرين . م . ع . د . ن ـ بيروت ـ 1980 ـ ص: 5

6 ـ غاستون باشلار : جدلية الزمن . ترجمة خليل أحمد خليل . د . م . ج . الجزائر سنة: 1982 (ب ط) ـ ص: 64

ينقلب رأسا على عقب ." (1) . " شعر بالذعر ... وهو ينادي بأعلى صوته: سكان قسنطينة. الزلزال . الزلزال . يا آل بوالارواح الزلزال الزلزال . " (2)

ان الزلزال هنا يعني توقف حركة الزمن بالنسبة للاقطاع . انه تغير في علاقات القوى الاجتماعية. أما بالنسبة لعمال الأرض فهو يعني ميلاد زمن جديد ملي" بالخصب والنماء والاشراق ، زمن خال من الممارسات الاقطاعية القائمة على الاستغلال والاستنزاف . أما الجنون فهو رمز لعجز بوالارواح التام عن تحقيق الذات ، أي بقاء الأرض واستمرار النفوذ الاقطاعي. لم يكن الزمن حيادي القيمة اذن في رواية الزلزال ، بل يعدّ من العناصر الأساسية التي أسهمت بقسط وافر في بناء الرواية. ويبدو أن حركة الزمن كان لها الأثر الكبير على نظام الفصول من حيث الطول والقصر تبعا لنفسية بوالارواح المتأزمة، المتصارعة مع نظام الزمن الحاضر- زمن نظام الأرض الجديد - . ومن هنا نفهم أن تقسيم الرواية الى فصول سبعة لم يكن من قبيل المصادفة أو العبث ، وانما أملته حالة الاقطاعي الجوانية وتموجاته الداخلية. بمعنى أن أزمته كانت تزداد حدة من فصل لآخر لدرجة أن الفصول الثلاثة الأخيرة جاءت لاهثة، متسرعة ، نحس من خلالها بأنفاس بوالارواح وهي تحترق .

ان رواية الزلزال تعد رحلة عبر وجدان الاقطاعي، مما جعل عجلة الزمن تدور وفقا لايقاع حياته الداخلية، وهو ما استوجب على الروائي استخدام اللاتسلسل

---

1 - المصدر السابق : ص: 75

2 - المصدر السابق : ص: 209

الزمني أداة فنية ناجحة تضفي الأصالة والصدق الفني على عمله هذا، والذي يعدّ بحق فاتحة عهد جديد في تطور الرواية العربية في الجزائر.

دلالة المكان في رواية الزلزال:

لا أحد ينكر أهمية المكان في بناء الرواية. كيف لا، وهو الجزء المكمل للحدث. انه ـ المكان ـ أرضية الفعل وخلفيته (1)، والمجال الحيوي الذي تتحرك فيه الشخصيات وتتصارع. ويعدّ الكان " ... العمود الفقري الذي يربط بين أجزاء الرواية ببعضها البعض " (2). لقد أدى هذا العنصر دورا بالغ الأهمية في تطوير الحدث. ولأهمية المكان في رواية الزلزال فانه يكاد يمثل شخصية بأبعادها وتأثيرها على السياق الروائي العام، كما أنه أسهم بقسط وافر في صنع مأساة البطل. ولعل التغيير الذي لحق وجه قسنطينة ـ منذ الاستقلال الى غاية ظهور قانون الاصلاح الزراعي ـ كان له أبعد الأثر في اذكاء حدّة التأزم النفسي لدى بوالارواح الذي شعر ـ ولأول وهلة في المدينة ـ بالاغتراب والوحدة والانزواء، على نحو ما يظهر في قوله:

" ـ المدينة أشبه ما تكون بباخرة في محيط عظيم توحي بكل خطوة بالشعور بالاغتراب والانقطاع عن العالم " (3)

---

1 ـ أحمد كمال زكي: دراسات في النقد الأدبي. دار الأندلس. بيروت ـ ط2 1986 ص: 42 43

2 ـ غالب هلسا وآخرون: الرواية العربية واقع وآفاق. دار ابن رشد للطباعة والنشر. ط ـ 1981 ـ ص: 210

3 ـ المصدر السابق: ص: 42

ثم يضيف :

" ... فلا أضيع الوقت في التجوال في هذه المدينة المرعبة" (١)

فهذا المونولوج الداخلي يوضح بجلاء نفسية الاقطاعي الجوانية البرمة من المدينة وأجوائها الموحية بالرهبة والخوف من المستقبل الغامض ، هذا المستقبل الذي زادته رهبة ، تلك الأحاديث المتعلقة بنظام الأرض الجديد. ومن هنا نلاحظ أن الخط الدرامي في الرواية قد ارتبط بالخلفية الاجتماعية للمدينة ، وبتفاصيلها الدقيقة وحياتها اليومية الدائبة. ولعل الروائي كان قاسيا على بطله الى أبعد ما تكون القسوة ، فقد جعله يصارع المجتمع متفردا وحيدا ، وكأن المؤلف بهذا يؤدي الى افتتاحية خط معين كان له أثر كبير في الرواية؛ خط الصراع بين الشخصية الناقمة على المجتمع ، وتحديات هذا المجتمع ، والمتمثلة في العقبات الموضوعة في طريق كل من حاول أن يتخطى قوانينه مثل بوالارواح . ولعل هذا هو سبب مأساته ، وباعث سقوطه في النهاية. ان الضغط الاجتماعي من الخارج والضغط النفسي من الداخل قد تفاعلا معا ، ولم يبق له " بوالارواح " الا أن يستجيب للضغطين اللذين أديا به الى فقدان التوازن وعدم القدرة على تقبل المعطيات الجديدة في المدينة. ومن هنا كان الشكل العام للرواية يتشكل حسب الصراع القائم بين الاقطاعي وبين بيئة قسنطينة بنوعيها الطارئ والثابت.

ويلاحظ أن الروائي قد استغل كل العناصر الأساسية في المدينة ، من مقاهي ومباني وجسور وشوارع لتسهم كلها في صنع مأساة بوالارواح ،

---

١ ـ المصدر السابق : ص: 49

وتقوده في الأخير الى المصير المحتوم، ألا وهو الجنون .

أ) ـ دلالة المقهى :

تتخذ المقهى عدة أبعاد جمالية في رواية الزلزال من حيث الدلالة، فهي جزء من تركيبة المدينة، توحي بعدم الاستقرار والاقامة المؤقتة للبطل، كما تغدو ـ المقهى ـ رمزا للمتغير وشاهدا على نمط الحياة القديم الآفل، على نحو ما يظهر في الفقرة التالية:

" ... قصد بوالارواح المقهى. تمالك على أول مقعد صادفه. جال ببصره من الداخل والخارج . المقاعد والمناضد من الحديد، مطلية حديثا . الجدران نقية مطلية حديثا أيضا . الاكسبريس الاطالية خلقت الوجاق حتى هنا ... " (1)

لعل الباحث يلاحظ تأكيد الرواية الملح على العناصر المادية الموحية بالحداثة والتجدد بشكل لافت للانتباه، مما حملنا على القول ان المقهى لا تتخذ قيمة محايدة في هذا النتاج الأدبي، بل انها ترمز الى المتغير الحامل في أحشائه بذور التجديد والتطور والحاوي لزمن التحول بحكم هذه الولادة الجديدة للمكان، وهو الأمر الذي أثار هوس الاقطاعي وأربكه.

ان هذا الوجه الجديد الذي ظهرت به المقهى قد أوحى للبطل بأن العالم مقبل على عهد جديد لا أثر فيه لمخلفات الماضي، على نحو ما يستنتج من قوله: " لا حول ولا قوة الا بالله ... لم يبق من الحياة القديمة الا الآثار. هدموا عالما وأقاموا آخر. داسوا فوق عنق قسنطينة،

---

1 ـ المصدر السابق : ص: 162

وراحوا يضغطون ، وهاهم يضغطون أكثر فوق صخرتها ." (١) .
لقد بدت المقهى شاهدا على مأساة بوالارواح الذاتية ، وباتت بالنسبة له مصدر ازعاج وقلق ، لا مكان للراحة . كما أن الروائي قد اهتم برسم الظلال التي تؤكد غربة الشخصية الاستقطابية من خلال حضور المقهى: " ... ليس هناك جالس غيري سوى صاحب المقهى . صاحب المقهى كهل تخطى الخمسين . " (٢) . ولعل هذا الاحساس المأساوي الذي غمر بوالارواح في المقهى يشير الى أن الفكر الاقطاعي في الجزائر بات يعيش خريف عمره ، حين فقد مبررات الوجود وعناصر البقاء بظهور نظام الأرض الجديد الذي وضع في مقدمة اهتماماته القضاء على الاقطاع والأشكال الأخرى المتحالفة معه .

ب) ـ دلالة الشارع :

يعدّ الشارع جزءا من تركيبة المدينة ، حيث أسهم مساهمة كبيرة في توضيح المسار الذهني للرواية ، وساعد على رسم المنحى الايديولوجي فيها ، بحيث مكّن المتلقي من معرفة انتماء البطل الطبقي وكشف أغوار نفسه الرافضة لمبادئ العدالة الاجتماعية التي ما فتئت تتجذر في المجتمع الجزائري الحديث ، على نحو ما يظهر في الفقرة التالية :
" انحدر بوالارواح قليلا . وجد نفسه في شارع يوغوسلافيا ، وتساءل : كيف أتاحت لهم عبقريتهم الاهتداء الى تقسيم الشارع بهذا الشكل . نصفه

---

١ ـ المصدر السابق : ص : 39
٢ ـ المصدر السابق : ص : 102

لشهيد بطل ، ونصفه لبلد شيوعي . في العاصمة أيضا هناك شارع مقسم بين زيروت يوسف وشي غفارة . في السابق كنا نعتبر هذه المسائل شكلية ، أما وقد بدأوا يكشرون عن أنياب الذئاب فتجب المحاسبة ." (1)

لقد أصبح الشارع قدرا يمسك بالشخصية المحورية ، ولا يدع لها مجالا لحرية التحرك ، أي أنه يحاصرها ويحد من حركتها . كما يغدو الشارع مبعث ذكرى ومصدر حسرة بالنسبة لهذه الشخصية ، حتى يثير أشجانها ويحرك فيها كوامن الشوق الى الماضي الذي ولّى : " ... هذا شارع فرنسا سابقا ، يبتدئ حيث ينتهي شارع "كراما" حيث ثانوية " أومال " . هنا كان الحب والغرام والحبور يشع من عيون الغادات الأوروبيات والاسرائيليات . هنا ما كانت تنقطع روائح عطر الياسمين وعطر حلم الزهب وعطر اللبان ... " (2)

كان الشارع صعبا ، شرسا - على امتداد الحدث الروائي - . انه يوحي بتقدم مستمر وبمخاض جديد سوف يولد ما هو أهلا للتغيير ، الأمر الذي أقض على الاقطاعي مضجعه وحمله على التشبث بذكرى الشارع القديم في محاولة يائسة لتجاوز اغترابه بالهروب من الواقع الراهن عن طريق الذكرى . وقد يغدو الشارع وصفا لحالة تمر بها الشخصية الرئيسية على نحو ما نرى في الفقرة التالية :

" ما أن أنهى بوالارواح آخر درجة ، واقتحم شارع 19 ماي حتى اشتدت الحرارة عليه . أحس بالمادة السائلة تذوب أكثر في نفسه ، وتملؤها

---

1 - المصدر السابق : ص : 44

2 - المصدر السابق : ص : 35

بالثقل وبالدكانة. صدره ثقيل ممتلئ . رأسه مضغوط موهن . اضطر الى التوقف والاستناد بيده ومرفقيه وظهره الى الجدار. " (١) يستنتج من كل ما سبق أن جزئيات الشارع قد وظفت توظيفا محكما، بحيث أسهمت في تصعيد الموقف الدرامي للحدث العام، وعملت على اذكاء حدة التأزم النفسي لدى البطل ، ونمت الحزن المتخثر في ذاته. من هذه الزاوية يدخل الشارع في رواية الزلزال ضمن المبررات الموضوعية والفنية التي تقنع المتلقي بأمر التصرف الجنوني الذي أقدمت عليه الشخصية الاستقطابية في نهاية المطاف ، والتي فقدت الذات بضياع الأرض .

ج) ـ شكل المدينة المعماري :

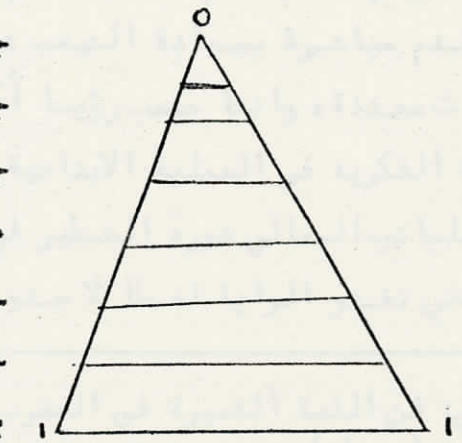
يلاحظ أن المؤلف كان شديد الحرص على ابراز التفاعل القائم بين حياة البطل الجوانية وبين بيئة قسنطينة التي اعتور وجهها التغيير. من هنا تبدأ مهارته في الاستفادة من ظروف البيئة القسنطينية ، وهي تلقي الضوء على ما يعتمل في نفس بوالارواح من اضطراب ونعر. ولقد استغل المؤلف شكل المدينة في تصعيد أزمة البطل النفسية لارغامه في نهاية الرواية على الجنون . لقد وظفت لهذه المهمة جسور قسنطينة الستة مضافا اليها جسرا آخر متخيلا، اذ يلاحظ أن حالة بوالارواح كانت تزداد سوءا وتدهورا كلما انتقل من جسر الى آخر حتى يصل الى جسر الهواء ـ وهو المتخيل ـ فيصاب بالجنون ، لأنه لم

---

١ ـ المصدر السابق : ص: 27

يعثر على أحد من أقاربه الذين كان يعول عليهم في تنفيذ مشروعه والمتمثل أساسا في محاولة التملص من قبضة التأميم الذي استهدف أراضيه الزراعية. قلنا ان المؤلف قد استغل جسور المدينة في تطوير الموقف الدرامي للحدث، أي أنه كان يطور بطله مع تطور الحدث بحيث ان كل محطة - أي كل جسر - تعقب محطة أخرى، لابد أن تأتي بعنصر جديد وبتأثير جديد الى وضع أكثر تأزما. ويبلغ السيل الزبى، ويصاب بوالارواح بالجنون في آخر محطة، وهي جسر الهواء بعد أن فقد كل أمل في الحصول على من يقسم عليهم الأرض. وفي رأينا أن الروائي قد وظف جزئيات الشكل المعماري للمدينة للتعبير عن رؤيته الفكرية باحكام يدلّ على ادراك واع بماهية الفن الروائي ووظيفته الاجتماعية الهامة، ولعلّ هذا الشكل يوضح لنا ذلك:

ضياع الأرض = الجنون



هذا الشكل يشير الى أن آمال بوالارواح في الحصول على من يسجل عليهم الأرض كانت تتقلص كلما انتقل من جسر الى آخر، الى أن تصل آماله درجة الصفر في جسر الهواء، فيصاب بالجنون.

البناء الفني في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي" :

لا أحد يستطيع أن يجهل أو يتجاهل أهمية الرؤية أو المنظور الفكري في أية كتابة فنية، ذلك بأن المنظور يعدّ أساسيا في تشكيل العملية الابداعية وتركيب محتواها الداخلي ورسم معالمها الخارجية " وتوفر هذا المنظورهو الذي يكفل للكتابة في أي نوع من أنواعها، بل وللتعبير الفني عامة، قاعدة في الوجود وأرضية تمتد فيها الأغراس الفنية والفكرية. وبانعدام هذا المنظور يصبح المحتوى هزيلا، خفيق القيمة، خاليا من رصيد الفهم للحياة والواقع. " (1)

ان العملية الابداعية بدون المنظور الفكري تصبح كلاما لا طائل تحته، كما أن الأدوات الفنية - مهما سمت منزلتها وارتفعت قيمتها - لا تخلق وحدها أدبا جادا وهادفا، " فالايديولوجيا أو معتقد الفنان الروائي يمكن مقارنتها بالضوء الكاشف الذي يضيء قطعة من الفن تتجلى روعتها. وموقف الروائي من العالم موقف ملتزم بقضايا الانسان المعاصر فينحاز لقوى التقدم مباشرة بسيادة الشعب، لكن لا حسب قوالب ومبادئ قد صيغت في كلمات محددة، وانما حسب رؤيا أكمل وأرحب وأعمق ..." (2) ولئن كانت الرؤية الفكرية في العملية الابداعية بالغة الأهمية - والرواية بوجه خاص - فان للجانب الجمالي دوره الخطير في انجاح هذه العملية. وفي غياب العنصر الفني تغدو الواية لغطا لا جدوى فيه ز ويصبح الروائي

---

1 - أحمد المديني: فن القصة القصيرة في المغرب. دار العودة. بيروت (ب ط) - ص: 324

2 - سهير القلماوي: مختصر محاضرات حول نظرية الرواية. القاهرة 173 ص: 33

كاتب مقالة سياسية واجتماعية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ينتمي الى عالم الأدب ولا الى حظيرة الفن . " ان الاشتراط الحاد لتضخيم دور القيمة الفكرية في نجاح العمل الفني لا يمكن أن يؤخذ على معناه المطلق فثمة أسس فنية معروفة لا يمكن اغفالها في نجاح أية تجربة فنية أو خلودها ." (1) ، ذلك بأن الآراء السياسية والايديولوجية لا تستطيع " مهما كان شأنها ، أو الوعي الاجتماعي بها ، أن تعادل الموهبة الفنية فتقوم مقامها وتوجد أدبا رفيعا . ولا يكفي الاحساس بقسوة المجتمع ولا الاهتمام بآلام الناس ومشاكلهم لخلق أدب روائي جيد ... " (2)، والا لاستطاع كل الناس ـ على اختلاف مشاربهم ـ أن يكتبوا أدبا . " ان معلولية الأدب للحياة لا تتمثل في موضوعه أو في مضمونه فحسب ، بل في شكله كذلك ." (3)

لعلّ الغرض من وراء عرضنا لهذه الآراء السريعة هو تبيان أهمية الرؤية الفكرية في نجاح العمل الفني وسبل تحقيق ذلك . ان العمل الروائي لا يكتب له النجاح والخلود، وتخطي الحدود الاقليمية الضيقة الى آفاق انسانية أرحب وأوسع، الا اذا توافر فيه عنصر الالتحام بين ذات الأديب وموضوعه ، وتحقق له الانسجام التام والالتحام الكامل بين شكله ومضمونه، وهو الشيء الذي لا نكاد نظفر به في رواية " العشق والموت في الزمن

---

1 ـ باقر جواد الزجاجي: الرواية العراقية وقضية الريف . ص : 115

2 ـ عمار الطالب : الاتجاه الواقعي في الرواية العراقية . ص : 96

3 ـ ن . خوري: تجربة البحث عن أفق . م . أ . ف ـ بيروت 1974 ص : 47

الحراشي "، حيث ان الجانب الفكري يطغى عليها بشكل مكثف ، وكأنني بالمؤلف قد سخر الحدث الروائي برمته للتعبير عنه.

والحقيقة أن سيطرة المنحى الذهني في الرواية كان على حساب الجانب الفني، الأمر الذي أضر برؤية الكاتب بحيث أصبحت أحادية الجانب، أي أنها غدت مجرد رؤية ايديولوجية - صراع بين اليسار واليمين - بهتت على ضوئها الحياة الأخرى في القرية، بوصفها الحيز المكاني الذي تدور فيه وحوله الأحداث. بمعنى أن وطارا لم يصور القرية بكل زواياها المادية والمعنوية بطريقة فنية مقنعة، بل انه جعل من القرية مجرد أداة للتبشير بفكرة ايديولوجية تشغل اهتمامه بالدرجة الأولى . ولعل ذلك ما يفسره قوله:

" ... اذا لم تنته هذه المرحلة - يقصد المرحلة التي أسهمت في افراز أحداث الرواية - فهذه ليست مسؤوليتي ، وانما مسؤولية الرفاق الجزائريين والمسؤولية الأممية." (١)

طريقة تقديم الحدث:

لقد اعتمد الكاتب في تقديم أحداث رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي" على قليل من السرد وكثير من تداعي الخواطر وصراع الأفكار.

---

١ - مجلة الطريق : عدد 3/4 . آب - أغسطس 1981 . السنة الأربعون - بيروت . ص: 197

كما أنه اعتمد طريقة الوثائق ، أي تقديم الحدث بواسطة المذكرات وبخاصة في الجزء المتعلق بسرد جانب من سيرة شباح المكي (*) وعلى الرغم من تعدد طرائق السرد المتبعة في هذه الرواية ، الا أن الظاهرة المسيطرة فيها هي التقريرية والمباشرة . ولعل هذه الطريقة تعد من العوامل الموضوعية التي أفقدت أحداث الرواية حركيتها وديناميكيتها ، كما أنها أفقدتها عنصر التشويق الذي يعدّ - في رأينا - من العناصر الأساسية في أي عمل روائي ينشد صاحبه النجاح . لأن عنصر التشويق يشد انتباه القارئ ويستميله ويحمله على تتبع الأحداث بشغف كبير .

لعل العمل الروائي في " العشق والموت في الزمن الحراشي " لم يخضع لمفهوم الانتقاء في الفن ، بمعنى أن الروائي كان يطرح مضامينه بطرق جافة تفتقر الى الاختيار بحيث كانت تقترب في كثير من المواقف من أساليب الريبورتاجات المعهودة في الصحف السيارة ، على نحو ما يظهر في السياق التالي : "... البرجوازية الصغيرة تتخوف منه ، والرجعية تعمل على ضربه ، وأنصاره يحاولون ألا يندفعوا فيه ويجعلوه معركة مصيرية منشغلين عن المعارك المصيرية بالفعل ، بالنسبة اليهم ، وبالنسبة للثورة . مهمتنا العاجلة تتمثل في تحقيق الشرعية للتطوع ، وفي خلق قيادات طلائعية تضمن له الاستمرارية والفاعلية والصفة النضالية ، هذا كله

---

* - المصدر : من ص : 180 الى ص : 188 (شخصية شباح شخصية يسارية الاتجاه في الرواية .)

يحتم علينا التحلي بالروح الوحدوية، ويعدم احراج أنصارنا ... لن يتسنى لنا ذلك بيسر، بل بمشقة ومعاناة، باعادة النظر في خطتنا مرات عديدة في اليوم الواحد ... " (1)

والحقيقة أن مثل هذا الطرح الجاف والنقل الحرفي لجزئيات الأحداث قد أدى بالرواية - في كثير من الأحيان - الى الانزلاق الى مستوى المقال السياسي والفكري العادم الحرارة الفنية. ويبدو أن السياسة والايديولوجية قد استولت بمباشرتها الفجة على جزء كبير من الرواية، وهو ما سبب للبناء الروائي تهاويا ملحوظا لا تشفع له قيمة الطروحات السياسية والفكرية، لأنها عاجزة عن ايجاد معادلها وشكلها الفني. كما أن النقل الحرفي لمعطيات الواقع بدون انتقاء أو تعديل أو تحويل يعد آفة خطيرة في الرواية. وفي رأينا أن الروائي الجاد يختار من واقعه الأحداث ذات الدلالات الاجتماعية الهامة والمعبرة ثم "يغوص في أعماقها ليكشف لنا عن السر الكامن وراءها" (2) ، ويعيد خلقها من جديد في قالب فني يجعل القارئ يقتنع بحقيقة ما يكتب الروائي من خلال شخصياته الرواية وحركاتهم العادية وصراعاتهم الانسانية في سياق تنامي الحدث وتشابك نسيجه الروائي. ومما يلاحظ أن المؤلف كان يتدخل - غير ما مرة - أثناء تقديم الأحداث شارحا ومعللا بعض المواقف وكأني به يشك في قدرة شخصياته على توصيل مراميه الايديولوجية الى

---

1 - م. س. ص: 71

2 - محمود السمرة: في النقد الأدبي. ص: 112

المتلقي ، على نحو ما يظهر في الفقـــرة التاليـــة:

" يقـول براهما : ـ تعرفين جيدا ياجميلـة المقـولة الماركسية: " ليس ادراك الناس هو الذي يعيـن معيشتهم ، بل العكس من ذلك معيشتهـــــم الاجتماعية هي التي تعين على ادراكهم . ومع تغيير الأساس الاقتصادي ينفتح عهـد الثـورة ويحـدث الانقـلاب " (1)

ولعله قد بات من المعـروف أن الروائي الناجح هو الذي يقلل من تدخلـــه وتطفلـه أثناء تقديم أحداث الرواية ، اذ يجب أن يمتلك القدرة الفنيـــة الكافية لطرح موضوعه وأفكاره ليتسنى للقارئ أن يستنبط المغـزى الحقيقي الذي من أجلـه أُنشـئ هذا العمل الأدبي أو ذاك ، " لأن أرفع شـكل من السرد هو الذي يبدو فيه الروائي أكثر غيـــابـا " (2) ، أو كما يقـول فلوبيـر: " على الفنان أن يـكون في عملـه كالاله في خلقـه ، خفيا لا تدركه الأبصار ، وقادرا على كل شيء ، وليكن أثـره واضحا فـي كل مكان ، ولكن يجب ألا يكـون منظـورا " (3)

دراســـة الشخصيـــة:

تعـد الشخصية الروائية من أهم العناصر الأساسية في العمـــل الروائي الناجح ، ان لم نقل أهمها على الاطلاق . انها " أساس الرواية

---

1 ـ المصدر السابق : ص: 145

2 ـ هاليرين : نظرية الرواية . ترجمة محي الدين صبحب . منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي . دمشق 1981 . (ب ط) . ص: 98

3 ـ ابراهيم السعافين : تطور الرواية العربية في بلاد الشام . دار الرشيد للنشـر . العراق 1980 . ص: 362

وأن الشكل الروائي قد خلق للتعبير عن الشخصية." (1) والمعروف أن هناك جملة من الاعتبارات الفنية تتدخل بشكل مباشر في عملية خلق الشخصية الروائية، ومنها القدرة اللازمة على الحركة الواعية داخل العمل الروائي، بحيث تؤدي وظائفها الفنية، التي من أجلها خلقت. وكذلك القدرة على الاقناع الفني والتعبير الجيد عن المغزى الفعلي الذي ينشده صانعها دون عائق، وبشكل لا غموض فيه ولا التواء ولا التباس، بعيدا عن سلطة الروائي، أي على الشخصيات أن تتحرك حركتها المشروطة بظروفها الموضوعية، وألا تغدو مجرد أبواق وبيادق تعبر عن رأي الروائي بشكل مكشوف وسافر ينسيه عمله الفني. اذ يجب على الروائي أن " ينحي نفسه جانبا ليتيح للشخصية أن تعبّر عن نفسها، وتكشف عن جوهرها بأحاديثها وتصرفاتها الخاصة." (2) بحيث تغدو هذه الشخصيات مقنعة ولها مبرراتها الفنية والموضوعية. ويستطيع الدارس أن يلاحظ افتقار شخصيات " العشق والموت في الزمن الحراشي " الي هذه الميزات التي ذكرنا، وهي الأصالة والعمق، والسبب يعود في رأينا الى القيود المفروضة عليها من لدن صانعها الذي لم يفسح المجال الكافي للتعبير عن مواقفها بحرية وتلقائية، أي أنها لا تتصرف وفق الظروف الموضوعية التي تحيط بها، وانما تسلك

---

1 - باقر جواد الزجاجي : م. س. ص: 141

2 - محمد يوسف نجم : فن القصة. ص: 98

وفق ما يدور في فكر المؤلف ـ لا غير ـ . وهو ما أفقدها ـ في كثير من الأحيان ـ القدرة على الاقناع الفني والتبرير الموضوعي للمواقف التي تتخذها هذه الشخصيات ازاء معطيات الأحداث المحيطة بها . ومما يلاحظ على هذه الشخصيات انها لا تمثل الا اتجاها واحدا أو صفة واحدة طوال رحلة الرواية ـ خلا شخصية اللاز ـ ذلك أن الروائي يقدمها للقراء وقد اكتمل نموها منذ الوهلة الأولى ـ أي أنها جاهزة ـ (١). وتنقسم شخصيات رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " الى معسكرين متقابلين :

ـ معسكر أصحاب العقلية الجديدة الداعية الى حياة جديدة مبنية على أسس اشتراكية يتساوى فيها الجميع في الحقوق والواجبات .

ـ ومعسكر أصحاب الحياة القديمة ، دعاة الدعوة الى الماضي في وجه نمط الحياة الوافد . ويمثل هذا المعسكر ـ في نظر المؤلف ـ عناصر الاتجاه اليميني الذي يهدف أصحابه الى تكريس الأخلاقيات الاقطاعية البائدة ، والقائمة على استغلال الانسان للانسان .

---

١ ـ الشخصية الجاهزة ـ كما يعرفها عز الدين اسماعيل ـ هي : " تظهر في القصة ـ حين تظهر ـ فون أن يحدث في تكوينها أي تغييرز وانما يحدث التغيير في علاقتها بالشخصيات الأخرى فحسب . أما تصرفاتها فلها دائما طابع واحد . (ينظر بهذا الصدد : عز الدين اسماعيل : الأدب وفنونه . دار الفكر العربي . بيروت . ط ٤ ـ سنة 1968 ـ ص : 192

أنواع الشخصيات في الرواية:

أ) ـ شخصية اليساري : تمثل جميلة ،الطالبة الجامعية المتطوعة، الاتجاه الماركسي اللينيني في الرواية . ولقد حملها وطار ملامح ومواقف وطنية وأخرى أممية في مستوى الصراع الذي كان يتنامى من خلال هذه الشخصية وردود أفعالها التي انعكست على الشخصيات الروائية الأخرى. ان جميلة ، بتلك المواصفات والمواقف ، لا بد أن تؤثر سلبا أو ايجابا في كل من حولها حسب كل طرف من قضية الصراع ، وهي الثورة الزراعية. فمعسكر الخصوم ظل يلاحقها ، محاولا القضاء عليها ووأد أفكارها في المهد قبل أن تستفحل خطورتها . ومعسكر الحلفاء يدعمها ويدافع عنها . ومما يلاحظ أن الروائي قد أحاط هذه الشخصية ـ جميلة ـ بهالة من القدسية والاجلال ، استحالت من جرائها الى كائن يتصف بالكمال المطلق ، قد لا يوجد له نظير في هذا العالم. وهو ما دفع بنا الى القول بأن هذه الشخصية المقترحة ، انما هي شخصية خارقة لا تمثل الواقع الانساني في شيء . شخصية مصطنعة لا تعيش الا في ذهن صانعها وأنها تفتقر الى كثير من الأصالة والصدق الفني .

ب) ـ النموذج اليميني : لعل خير من يمثل هذا الاتجاه هو مصطفى، العنصر المناقض جوهريا لجميلة . لذا ترى الروائي قد تحامل عليه تحاملا لا يخلو من اسراف ، حيث رسمه رسما كاريكاتوريا ساخرا ينم عن رفضه المطلق والمبدئي لهذا النموذج . ان ما يستميز به مصطفى ـ في نظر الروائي ـ القبح والذمامة والشذوذ والعوج . انه سفاح شبه أبله،

وهلم جرا ...، لدرجة يخاله القارئ جنّاً ، أو بالأحرى شخصية من الشخصيات التي حدثتنا عنها الخرافة الشعبية ، التي تحمل - أي الشخصية - في أعماقها معدن الشر ، وتعمل على تكريسه . وفي رأينا أن الروائي بالغ الى حد الشطط في تشويه صورة مصطفى ، البطل المضاد في الرواية ، أو النموذج اليميني .

ملاحظة :

ذلك كان دأب الروائي عندما يصف شخصياته ، المبالغة والاسراف في تحديد ملامحها الأساسية . فان كانت هذه الشخصيات تمثل اتجاهه الفكري والايديولوجي ، فهي ملائكة أخيار ، تمثل الخير المطلق ، مثل شخصية جميلة التي تناولناها في النموذج اليساري ، وان كانت تخالف مذهبه العقائدي ، فهي شياطين أشرار لا خير فيها على الاطلاق ، مثل نموذج " علي الحوات " في رواية " الحوات والقصر " ، و " الحاج كيان " في رواية " عرس وبغل " وعبد المجيد بوالارواح في رواية " الزلزال " ، ومصطفى في " العشق والموت في الزمن الحراشي " . والحقيقة أن هذا التصنيف القسري المبالغ فيه أحيانا يجرد الشخصية الروائية من خصائصها الانسانية ، بحيث تغدو خارقة ولا تتفق والواقع الانساني في شيء . ان الواقع الفني يفرض على الروائي أن يكون متزنا في تقديم شخصياته ، " فالشخصية القصصية يجب ألا تكون خارقة تتحدى الواقع أو تنكمش عنه ، بل يجب أن تكون مزيجا من الخير والشر كالشخصيات التي نراها في حياتنا اليومية ، أو نتكشفها في ذواتنا " (1)

---

1 - محمد يوسف نجم : م . س . : ص : 107

ج) ـ نموذج اليساري المتطرف :

ان خير من يمثل هذا الاتجاه ثريا ، الطالبة الجامعية المتطوعة لصالح الثورة الزراعية ، ولعل اختيار اسم ثريا لم يكن اعتباطا ولا مصادفة ، وانما وظفه وطار ليرمز من خلاله الى عدم واقعية مطالب هذه الشخصية . ان اسم ثريا مشتق من اسم نجم بعيد كل البعد عن الأرض . كذلك كانت مرامي وأهداف ثريا ـ الشخصية الروائية ـ مثالية ، بعيدة عن أرض الواقع ، مستحيلة التحقيق . ولعل هذا المونولوج الداخلي يؤكد صحة ذلك :

" ... أستطيع في كلية العلوم أن أخترع صباغا ، يستطيع من يطلي به جسمه أن يختفي عن جميع الأعين ، حتى عن أعين تلك الآلات الالكترونية الدقيقة . أضع قائمة مطولة في معاقل قوى الظلام ، في جميع معاقلها التي لا تطال والتي يستحيل بلوغها . أقتحمها واحدة واحدة . أصفي الحسابات مع القوة اليمينية . أضع حدّاً لكل من لا يؤمن بالثورة الزراعية ... تشي غفارة لم يكن يؤمن بالثورات السلمية . عندما يتعلق الأمر بقضاء طبقة على أخرى فلا بد من العنف . لا بد من الدم ، من التطهير بالدم . ستكون هناك بؤرة ثورية تتكون مني وحدي . سأحرر الانسانية في هذا الجزء من العالم ... " (١) .

ويتضح من خلال هذا السياق أن ثريا كانت تتمنى نواة نضالية ، وتتعجل الخطوات الثورية . ويلاحظ من هذا المنظور أن المؤلف لم يكن يتعاطف

---

١ ـ م . س . : ص : 77

مع هذا النموذج اليساري المتطرف ، ويعدّ سلوكاته شاذة لا يمكن لها إلا أن تلتقي مع أهداف القوة اليمينية في نهاية المطاف ، دون أن يدري صاحبها بذلك . لذا وصف الروائي شخصية ثريا وصفا كاريكاتوريا ساخرا ينم عن رفضه المطلق لهذا النموذج اليساري المتطرف :

" ... ثريا ضاربة في السمرة ، نحيلة ، لكنها قوية العضلات . وجهها طويل وأنفها دقيق ، شفتاها تبدوان في جميع الحالات مفتوحتين ، ذلك أن باطنها لا يختفي اطلاقا . انها عكس جميلة تماما . جميلة تفتن ، تذيب المرء ، تخدره . أما ثريا فترعبه ، تذكره في كل لحظة بأن السماء ستسقط على رأسه . "( ) .

ويلاحظ الدارس أن وطارا قد أحسن صنع هذه الشخصية وأجاد بناءها سواء أكان ذلك من الداخل أم من الخارج ، بشكل استطاعت معه هذه الشخصية أن تعبر ، دون عائق وبصورة مقنعة ، عن النموذج اليساري المتطرف .

الشخصية ذات الملامح الأسطورية :

يلاحظ أن المؤلف يدخل كشخصية من الشخصيات الروائية ، فقد كان يرمز لنفسه ببراهما أحيانا ، وبوطار أحيانا أخرى . انه العراف المطلع على أسرار المستقبل ، كما يؤكد ذلك السياق الروائي . لقد تنبأ بانتصار جميلة . " انك يا جميلة منتصرة . " (ا) . ويعني تنبؤ براهما هذا ، أن الاتجاه الذي تمثله البطلة هو المنتصر ، وهو الذي سيسود في نهاية المطاف ، على الرغم من الظروف القاسية التي تحيط به .

ا - م . س . : ص : 103

كما أن الروائي قد أدى دور الفيلسوف المدرك لدقائق الأمور، والموجه الحقيقي والفعلي لمسيرة العمل الثوري الذي كان يقوم به الطلبة المتطوعون لصالح الثورة الزراعية وأنصارهم. ولعل ذلك يستنتج من خلال تـ المحاورات والنصائح والارشادات التي كانت كثيرة السريان على لسانه. يقول براهما لأحد محاوريه:

" عندما ينام براهما ينام العالم. وتستيقظ الدنيا مادام براهما مستيقظا " (1) .

تبين هذه المقولة الدور الطلائعي المنوط بالكاتب ، الواعي بأسرار رسالته الانسانية، والمدرك لوظيفته الاجتماعية الخطيرة، والتي يمكن أن تضعه في مصاف بناة المجتمع الحقيقيين اذا أتقن أداءها، أما اذا تقاعس وتخلف عن الركب، فان ذلك سينعكس سلبا على المجتمع وتغدو مسيرته عرجاء، محفوفة بالمخاطر.

الشخصية ذات الأبعاد الرمزية:

ان الدارس يلاحظ حضور اللاز بشكل مكثف في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " . ولقد حاول الكاتب تحقيق الواقع الفني في هذه الرواية بواسطة ترميز اللاز، لذا حمل هذه الشخصية عدة اشارات رامزة منها: "أن اللاز هو الشعب الجزائري " (2) برمته، " في غيبوبته وسلبيته وعدم مبادرته في الأحداث السياسية، نظرا لعدم وجود

---

1 - م. س. : ص: 34

2 - م. س. : ص: 919

حوافز حقيقية قبل الثورة الزراعية، بحيث تحول الى شبه كائن مقدس عند جماهير الفلاحين في الريف، وتحول عند جميلة الى شبه معشوق وهمي وتحول الى نكرة عند المؤلف، حين قال: "ان هذا اللاز غير موجود" (1) كما أن اللاز يرمز الى الشعب الجزائري الذي كان "مضطهدا، ممنوعا من ممارسته حرية التعبير والشروط الديمقراطية" (2) في زمن الاستعمار. ان استيقاظ اللاز من غيبوبته في نهاية الرواية تعني يقظة هذا الشعب من سباته العميق. وان دفاعه عن جميله من أخطار مصطفى انما يعني - في نظر المؤلف - تمسكه بالمكاسب الاشتراكية المحققة في أعقاب تطبيق قانون نظام الأرض الجديد. ومن الأبعاد الدلالية الرمزية لشخصية اللاز أن "اللاز هو العدد المفرد في أوراق اللعب، انه المنتصر دوما في هذه اللعبة" (3)، كذلك اللاز الشخصية - كما تؤكد ذلك معطيات الرواية - انه - البطل - المنتصر في نهاية المطاف. وعلى الرغم من الأبعاد الرمزية التي حملها الروائي لشخصية اللاز، الا أنها كانت تأتي في بعض الأحيان مكشوفة ومفتعلة لا تتناسب والسياق الروائي العام للأحداث.

---

1 - مجلة الطريق: ع 3/4 . آب - أغسطس 1991 ص: 196

2 - المرجع نفسه: ص: 196

3 - ينظر: أحمد محمد عطية: البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة. وزارة الثقافة والارشاد القومي . دمشق . 1977 - ص: 250

الحوار والمونولـــوج الداخلـــــي :

لعل أهم ما يستميز به أسلوب الروائي في صياغة الحوار هو الجفـــاف والحرفية، بمعنى أن لغته كانت تفتقر الى الشفافية والايحاء وطـــابـــع السحرية، وهو ما سبب للحوار - بصفة عامة - سقوطا ملحوظا في التقريريـــة والمباشرة والخطابية. وفي رأينا أنه يجب أن تكون لغة الروائي فيها مـــن الايحائية والشفافية ما يجعلها تقترب من لغة الشعر. ويعتقد فلوبيـــر أن الرواية مثل الشعر، يجب أن تستعمل تراكيب ملائمة لمواقف فنية معينة (١) ومن آفة الحوار لدى المؤلف في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي" - أيضا - الاسراف في الاطناب العادم للحرارة الفنية. ولعل هذه المقطوعة الحـــوارية تكفينـــا دليلا علـــى ما نقـــول :

" - ليس المهم أن نغرق في الحركية، محاولين البرهنة على أننا أكثـــر الفئات الاجتماعية ثورية، واقتناعا بالثورة الزراعية. انما وقبل كل شيء أن نضمن التجنيد الواسع لكل أنصار الثـــورة الـــزراعيـــة."

" - علينا أن نعمل في واجهتين في الوقت الواحد. واجهة أمامية تقـــود، وواجهة خلفية تدفع. وعلينا بين هذين المتناقضين أن نجد الخطة الصحيحة"

" - رفاقنا. بعض رفاقنا لا يقدرون حق القدر موازين القوى وقد غرقوا بسبب ذلك، إما في اليسارية الطفيلية، واما في التعنت الدوغمائي. وقد يقـــع البعض الآخر في المستقبل القريب في الانتهازية اليسارية؛ الانتهازيـــة الشريفة كما يقول لنين، والتي هي أخطر الانتهازيـــات. " (٢)

---

١ - هاليرين جـــون : م . م . س . : ص : 18

٢ - م . م . س : ص : 71 ، 72

اننا تعمدنا نقل هذا النص بكل تفاصيله الدقيقة لنتبين من خلاله طابع الخطابية والحرفية والوعظية التي ميزت أسلوب الروائي في صياغة الحوار، وهي ظاهرة عامة في الرواية. والحقيقة أنه يجب على الروائي - حين يعبر عن أفكاره - أن " ينتقي لها خير الأساليب المعبرة، ويترك كل العبارات الزائدة التي لا قيمة لها، لأن محاولة نقل الأفكار بصورتها في الحياة الواقعية لا تعطي المتعة المرجوة منها " (١)، وتفقد النص الأدبي أهم خاصية يجب أن تتوافر فيه، وهي الشفافية والايحاء الذي يصل بالخوافي الذهنية والنفسية التي تحملها الألفاظ والعبارات والتراكيب الى أعلى مراتب الجمال، فيجعل لها شكلا هو الشكل الذي يرضي المتلقي ويمتعه. وعلى الرغم من الطابع التقريري الذي ميز الحوار في " العشق والموت في الزمن الحراشي "، الا أن الباحث يعثر أحيانا على بعض المقاطع الحوارية التي تمتاز بالتركيز والدقة والعمق في التعبير عن هموم عمال الأرض، ومعاناتهم في البدايات الأولى لتكوين نظام التعاونيات.

المونولوج الداخلي :

ان ما سبق أن قلناه عن الحوار قد يصدق تمام الصدق عن المونولوج الداخلي، ذلك ان المونولوج الداخلي في هذا النتاج الأدبي يستميز بالطول المفرط العادم القدرة الفنية على التصوير والتعبير الدقيق عن سلوكات الشخصية ومواقفها ازاء مجريات الأحداث. ولعل الدارس يلحظ أن الحوار الداخلي كان يستغرق صفحات طوال دون انقطاع، بحيث كانت تضيع

---

١ - ينظر: طه عبد الفتاح مقلد: الحوار في القصة والمسرحية. مكتبة الشباب. مصر 1975 (ب ط) - ص: 17

في زحمته المعاني المراد التعبير عنها . ومن أمثلة ذلك حديث جميلة الى نفسها ، وقد كان يتجاوز في بعض الأحيان أربع صفحات (١) . لقد شكل هذا العنصر - المونولوج الداخلي - في كثير من المواقف تضخما سرطانيا كاد أن يفتك بالرواية ، بحيث يمكن استئصاله دون أن يؤثر ذلك على السياق العام للحدث .

وخلاصة القول ان الشكل الفني لرواية " العشق والموت في الزمن الحراشي" كان يعاني من أزمة كبيرة واضحة ، أي أن الرواية لم تتمكن من السيطرة على جوانب الموضوع - الثورة الزراعية - واستيعابه بشكل فني متكامل . ولعل السبب في ذلك يعود الى اضطراب الرؤية الابداعية لدى الروائي ، أي أنها كانت مشوشة ينقصها الوضوح . والحقيقة أن ما نعنيه بالوضوح أمرا مغايرا تمام المغايرة للسطحية . فنحن نعلم ان رؤية الفنان كلما كانت واضحة عميقة ، كلما كان عالمه خصبا ومتشابكا ، أما اذا كانت أدواته الفنية عاجزة عن توصيل ما يريده الينا ، فسنصبح في موقف العاجز عن تفهم عالمه ورؤيته على الاطلاق .

---

١ - م . س ، ص : ١٨٩ ، ١٩٤

البناء الفني في رواية (الأكواخ تحترق) :

ـ طريقة تقديم الحدث :

اعتمدت رواية " الأكواخ تحترق " في تقديم الحدث على طريقة السرد المباشر. فقد ظهر تتابع الأحداث حسب التسلسل الزمني التاريخي، والتتابع الزمني المنطقي . ففي البداية يضعنا المؤلف أمام واقع الفلاح وما كان يعانيه من فقر وظلم واستغلال مسلط عليه من قبل الاقطاع في القرية. ثم تأخذ الأحداث سيرها الطبيعي من هذا الموقف ، وتتطور من خلال شخصية مسعود ـ الشاب الذي كان يعاني الفقر والبطالة المقنعة ـ وقد اضطر نتيجة وعيه بالظلم المسلط عليه أن يدخل في صراع مع صاحب الأرض فتكون نهايته الطرد من العمل في الحقل . ثم تأخذ الأحداث في التأزم حين يجبر البطل علي الهجرة من القرية الى المدينة طالبا الخبز والكرامة الانسانية ، ويستقر المقام به في قسنطينة ، وفيها يتعلم حرفة الخياطة، ويستقدم أسرة أخيه هناك. ويلاحظ أن المؤلف كان ينقل الحدث عبر الأسلوب السردي المباشر، ولعل غايته من وراء هذه الطريقة هي تصوير الواقع بكل جزئياته في كلا العالمين : القرية والمدينة. وهو المجال الذي كان يترك فيه الفلاح المهاجر. " والواقع أن الكاتب صور ـ من حيث الرقعة المكانية ـ خلفية روائية كاملة ، وصور بطريقة متناهية أحيانا جوانب من حياة القرية والمدينة من خلال تتبعه لحياة البطل ." (١). وفي المدينة تبلغ الأحداث قمة تأزمها عندما يموت كريم على أثر حادث سيارة

---

١ ـ ينظر: أحمد منور: قراءات في القصة الجزائرية القصيرة. ش. و. ن. ت الجزائر 1981 ـ ص: 68

ويحول بموته حياة الأسرة المهاجرة الى جحيم مقيم. وفي خضم هذه الظروف الملأى بأحلام الرعب تسير الأحداث نحو نهايتها في الخاتمة، مع ظهور قانون الثورة الزراعية. فيعود مسعود وفاطمة زوج أخيه الى القرية ثانية، حيث يستفيدان من الاصلاح الزراعي ويحصلان على سكن في قرية " بلغيمور" الاشتراكية. ولعل المؤلف كان بامكانه أن يحقق نجاحا معتبرا في التعبير عن التحول الذي لحق عالم الأرض والفلاح، لولا استخدامه سلطة أكثر مما ينبغي أثناء تقديم أحداث الرواية، اذ يلاحظ أن المؤلف كان يتدخل بشكل مباشر في الحديث عن الشخصية من الخارج ويعلق على تصرفاتها دون مبرر في أحيان كثيرة، كما أنه كان يدخل بعض التفصيلات الزائدة التي لا تخدم الحدث العام بقدر ما تثقل كاهل الرواية، وتؤثر على السير الطبيعي للأحداث، على نحو مايظهر في الفقرة التالية على سبيل المثال لا الحصر:

" ـ انه مسعود على أية حال يشعر بنوع من الراحة، لأنه استطاع أن يحتل مقعدا أماميا. ولولا أن السائق يتوقف لأتفه الأسباب ما تأخر وقت الوصول الى هذه الساعة. وطلبت عجوز أخرى من السائق التوقف معلنة رغبة ابنها في قضاء حاجته. من الاقلاع والراكبون بين متقيء ومغمى عليه، وبين من يطلب بالحاح توقيف الحافلة كي يبول ... " (١)

فهذه التفصيلات الزائدة التي أدخلها المؤلف لا تخدم الحدث العام، بل تعوق سير الأحداث الطبيعي. لأن الفن الروائي ـ كما سبق القيل ـ هو

---

١ ـ رواية (الأكواخ تحترق) : ص: 43، 44

اختيار دقيق وانتقاء واع من الواقع الذي ارتكزت فيه تجارب المبدع ، بمعنى " أن الكاتب الواقعي الجاد يميز بين ما هو جوهري ثمين، مما هو عرضي غث ، ويفرز بأصابعه جزئيات الواقع ليعرف الهش من الصلب ، وينتقي العناصر الجوهرية التي تصلح أساسا لرسم الواقع ." (1)،ولربما كانت من عيوب الرواية نهايتها . ولئن كانت نهاية الأحداث سعيدة وجيدة من حيث المضمون ، الا انها لم تستوف شروط النجاح من حيث الجانب الفني ، كونها جاءت لاهثة ومتسرعة تفتقر الى الترابط العضوي مع الأحداث . " ففي الصفحات الأخيرة نلاحظ استعجال الكاتب في دفع الأحداث دفعا متعسفا ، مستعينا بالسرد التقريري للوصول الى غايته" (2)، على نحو ما يظهر في الفقرة التالية: "سنتان مرتا ، وفاطمة ومسعود يخرجان عند الفجر ويعودان عند المساء. لا يشعران بالذل ولا بالخوف ولكنهما يواجهان المشاكل بالارادة والحزم كغيرهما من الفلاحين المستفيدين من الثورة الزراعية. انتخبت فاطمة رئيسة للتعاونية التي تنتمي اليها ، أما مسعود فقد انتخب في مكتب الولاية لاتحاد الفلاحين " (3). لقد كان لهذه الخاتمة اللاهثة التي انتهت اليها الأحداث ، والاسلوب التقريري ذو النزعة الوعظية التي قدمت به ، وقعها السيء على تسلسل الأحداث والمواقف وترابطها ، وكانت عاملا مباشرا في تفكيك الحدث ، وأفقدته الوحدة والتماسك . والحقيقة أن للنهاية أهمية بالغة ، " لأنها ليست مجرد ختام لأحداث الرواية ، بل

---

1 ـ ينظر: صلاح فضل : منهج الواقعية في الابداع الأدبي . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . ص: 221

2 ـ أحمد منور: المرجع السابق . ص: 74

3 ـ المصدر السابق : ص: 85

هي التنوير النهائي ، واللمسة الأخيرة التي تكسب الكشف عن الشخصيات كماله ونهايته" (١).

دراسة الشخصية:

أ) ـ الشخصية الرئيسية: تدور أحداث رواية " الأكواخ تحترق " حول شخصية استقطابية واحدة ، هي شخصية مسعود. فقد استأثرت هذه الشخصية بالأحداث وبتعاقبها وبتطورها . ولقد عمل الروائي قصارى جهده ليرسم هذه الشخصية ، ومنحها القدرة على التعبير ، واضفاء صفة الحيوية عليها لتنطلق في تصوير الأحداث وافرازها ، فحملها صفات وميول وطبائع وخصائص فنية ليجعلها مقنعة ، لها مبرراتها الفنية والموضوعية.

ومنها الاسم : ان اسم مسعود يحمل دلالات رامزة منها السعادة والاشراقة المستقبلية المتفائلة. ان مسعودا ـ الشخصية ـ يحمل على جبينه أفق التحول . فهو رمز لمستقبل الفلاحين السعيد ، المنتظر. لذا نرى الروائي قد أفرغ كُلّ طاقاته في رسم هذه الشخصية من الداخل والخارج ، واستطاع أن يعطيها وجودا حقيقيا وأبعادا نفسية متميزة من خلال الوقائع والأحداث. وبين لنا الروائي ما يستميز به البطل من ذكاء فطري يؤهله الى ادراك وضعية الاستغلال التي يعيشها هو وزملاؤه الفلاحون في القرية ، والعمال في الورشة ـ في المدينة ـ. ويلاحظ أن الروايات الجزائرية التي تناولت موضوع الأرض جعلت الفلاح شخصية ثانوية تعيش على هامش الأحداث في مجتمع الرواية ـ ولا تفرزها ، أي انها تتلقى الفعل من الخارج ولا تقوم

---

١ ـ ينظر: عمار الطالب : م . س : ص : 25

برد الفعل . في حين ان الشخصية الفلاح ـ مسعود ـ في رواية " الأكواخ تحترق " هي التي تؤدي الأدوار الرئيسية في الرواية . فهي تعيش ظروفها وتتأثر بها . فهي نامية متطورة تفعل الأحداث وتتفاعل معها ، تتلقى الفعل وتقوم برد الفعل . وفي رأينا ، لو أن الروائي قلل من تدخلاته أثناء تقديم الأحداث ، وفسح المجال لهذه الشخصية لتعبر عن نفسها بتلقائية وحرية أكثر ، لاستطاعت أن تكون من النماذج الجيدة التي تمكنت من التعبير بصدق عن عالم الأرض والفلاح في الريف الجزائري .

ب) ـ الشخصيات الثانوية:

تعد الشخصيات الثانوية من العناصر الأساسية في بناء الرواية فهي تعمل على تطوير الأحداث وتنميتها ، كما أنها تكشف عن بعض الجوانب الخفية من حياة الشخصية المحورية ، وتساعد المتلقي على ادراك أبعاد الرواية واستيعاب مضامينها بشكل سوي . ومن الشخصيات الثانوية في الرواية:

ـ فاطمة: تعد فاطمة شخصية ثانوية ، وهي تتميز بالاخلاص لزوجها الذي غامر صوب البحر ولم يعد . فهي تبدو على امتداد الرواية صابرة على بلاء الجوع والفقر ، ومسؤولية الأولاد . فهي بذلك تمثل معاناة المرأة الريفية التي اصطلت بنار الهجرة . وعلى الرغم من الأهمية التي تكتسيها شخصية فاطمة في الرواية ، الا أن المؤلف لم يحسن رسمها ، فبدت عاجزة عن التعبير عن نفسها المثقلة بالهموم . فلا يكاد القارئ يسمع صوتا غير أصوات خفيفة لا توحي العبارات التي تنطق بها على تمثلها وادراكها بصورة جيدة .

ـ شخصية الاقطاعي : يعد الحاج عبد الله ـ الذي يملك أجود الأراضي وأعمها نفعا في القرية ـ القطب المناقض لشخصية مسعود في الرواية والجدير بالملاحظة أن المؤلف لم يحسن صنع هذه الشخصية ، بحيث اقتصر في رسمها على بعض الصفات الجاهزة ، على نحو ما يظهر في الفقرة التالية :

" ـ ... تطلع مسعود الى المكان ، فأبصر سيارة بيضاء فخمة واقفة عند جانب الطريق . وعلى بعد منها يقف الحاج عبد الله ببرنوسه الأسود الفخم ، وعمامته الحريرية المزركشة ، وحوله تجمهر الخماسون ."

" رآهم مسعود مقبلين في اتجاهه . الحاج عبد الله في المقدمة لا يقوى على المشي بسبب بطنه البارزة التي تنبئ الرائي بنعم الرب التي أنعم بها عليه . وخلفه يزحف الخماسون يلتمسون ... عطفه وحبه ورضاه " (1)

لعل هذه الشخصية لم تنل عناية كافية من الرسم ، وبشكل خاص من الداخل . فلم يحسن المؤلف الافادة من تحليل الشخصية والربط بين صفاتها وأفعالها .

وفي الرواية شخصيات ثانوية أخرى ، مثل شخصية الحاج الطاهر ، صاحب الورشة . والشيخ علاوة ، وعليوة الشواي ، وحوسين ، والرباعي وغيرهم . ان هذه الشخصيات تبدو أشبه بالأشباح الهزيلة ، باهتة الألوان لا يعالجها المؤلف بالتحليل ، ولا يحاول أن يرسمها نابضة بالحياة ، متفاعلة مع الحوادث ، " ولو أعطى القاص عناية للشخصيات الثانوية

---

1 ـ م . س . : ص : 31

... مثل فاطمة وصاحب الأرض وصاحب الورشة، لكان عمله من أنجح الأعمال الأدبية... بسبب جودة الموضوع وخصوبته." (١)

الحـــــــوار:

كان للحوار في رواية " الأكواخ تحترق " أثره الكبير في بناء الأحداث وفي تطوير المواقف. ولقد استطاع المؤلف اظهار خصائص الشخصيـــــة المتفردة ومواقفها المستميزة عبر الحوار، والحوار الداخلـــــي. على أن الحوار لم يكن يعبر دوما عن حقيقة شخصية الفلاح مسعود، أي أنه - الحوار - لم يكن يأتي وفق ما يحتمل وعيه وواقعة الحياتي (٢)، مثـــل حديثه عن الاستغلال وعن الاشتراكية، وهو حديث غير مقنع فنيـــا، لأنه لا يستند الى أية خلفية سياسية، ولا الى أي احتكاك بوسط نقابـــي أو تنظيم عمالي، الا ما يتمتع به مسعود من الذكاء والفطرة السليمة" (٣) ولعل الباحث يلاحظ أن بعض المقاطع الحوارية كانت مقحمة اقحامـــا، ولم تخدم السياق الروائي للأحـــداث. (٤)

---

١ - أحمد منصور: م. س. : ص: 74

2 - م. س. : ص: 33، 73، 74، 87

3 - أحمد منصور: م. س. : ص: 70

4 - م. س. : ص: 63، 64، 65

الخاتمـــــــــة :

لم يعرف الأدب العربي في الجزائر خلال مسيرته الطويلة الروايـــــة الفنية الا في بداية سنوات السبعين وما بعدها . والملاحظ أن موضـــوع الأرض قد فرض نفسه على الروائيين ، واستطاع أن يخلق عددا وفيرا من الروايات الخاصة به ركزت جلّها على عالم الريف ، نتيجة لخبرة كتابهـا بالبيئة الريفية النابعة من انحدارهم الفلاحي، فضلا عن اطلاعهم علـــى مختلف التيارات الفكرية والمذاهب الفنية ، فظهرت أعمالهم تحمل سمـــات الرواية الفنيـة وخصائصها الفكريـة .

ومن خلال دراستي لهذه الروايات ومعايشتي لها توصلت الى جملـة مـــن الاستنتاجات :

1ـ ان الرواية العربية في الجزائر تمكنت من تصوير مجمل العلاقـــات الاقتصادية في الريف وتطورها ، ثم انعكاسها على الواقع الاجتماعي فيـه . واستطاعت أن تبصر بالواقع الريفي وتعي بما كان يصطرع في رحمه من عوامل دفع وتكوين .

2ـ ان عناية الرواية بالواقع القروي في الجزائر لم تأت اعتباطـــا ولا مصادفة ، وانما تعود الى عوامل أساسية تمكنت من المبدعين فعبروا عنها كل من منظوره الخاص ، وأهمهـا :

أ)ـ دور الفلاحين التاريخي في الحركة النضالية .

ب)ـ الاصلاح الزراعي الذي استهدف تطوير عالم الريف الذي دمرته آلـة الحرب الاستعماريـــة .

ج)ـ انتماء الروائيين الجزائريين الى أصول فلاحية في النشأة الأولى .

3 ـ إن الاتجاه الواقعي قد سيطر على النتاج الروائي الجزائري الذي تناول الأرض بخاصة، مما يؤكد أن الأدباء قد أدركوا الجدلية القائمة بين الأدب والحياة، وأنهم تمكنوا من تحديد وظيفة الفن الروائي الهادفة الى خدمة المجتمع والسير به قدما نحو الأفضل.

4 ـ لقد كانت الأرض في منظور الروائيين الجزائريين وسيلة انتاج جماعية، وليست ملكا خاصا بشخص أو جماعة ما، وهو الشيء الذي يفسر موقفهم الرافض للملكية الاقطاعية القائمة على استغلال الانسان للانسان.

5 ـ والملاحظ أن عناصر التغيير والتحول التي كانت تصطرع في رحم المجتمع الريفي ـ كما صورتها الرواية ـ لم تكن تنبع من عالم الريف نفسه، وانما كانت تأتي دوما من الخارج ـ من المدينة ـ وكأن مجتمع الروايات يشير بطريقة مجازية الى أن تطور القرية مرهون بالاتصال بالمدينة؛ وأن إزالة الفوارق بين المدن والأرياف كفيلة باخراج الفلاحين من حالة الغبن والتخلف التي ذاقوا مرارتها أحقابا.

6 ـ ولعلّ الملاحظة السالفة الذكر تؤول بنا الى ملاحظة أخرى وهي :

ـ انه على الرغم من عناية الروائيين الفائقة بموضوع الأرض، الا انهم لم يسندوا أدوارا أساسية من حيث بناء الشخصيات الروائية الى الفلاح في رواياتهم، بل على العكس من ذلك فإن شخصية الفلاح كانت في الغالب الأعم لا تؤدي الا أدوارا ثانوية في هذه الروايات، وكأنها شخصية سلبية تعيش على هامش الأحداث لا دور لها سوى أنها تتلقى الفعل ولا تقوم بردّ الفعل.

والحقيقة أن الفلاح الجزائري لم يكن - في كل الظروف والأحوال - يعيش خارج حلبة الصراع القائم في المجتمع ، ففي حالة الحرب - كما هو معروف - قدم ملاحم بطولية رائعة لا تنكر، وفي حالة السلم لم يألُ جهدا في بناء المجتمع والسير به قدما نحو الغد المشرق .

7 - وقد لاحظنا وجود اختلاف واضح بين الروايات الجزائرية من حيث بناؤها الفني، فثمة أعمال روائية استطاعت أن تنقل الينا موضوع الأرض بحيوية وحرارة ورؤية فنية واضحة تشهد على قدرة مبدعيها وعمق تجربتهم في عالم الكتابة الابداعية، وفي المقابل نجد بعض النتاجات الروائية الأخرى التي لم تسلم من بعض المزالق الفنية، ومنها : المبالغة التي لا يوجد لها مسوغ في السياق الروائي العام، وافتعال بعض الأحداث في الانتقال من موقف الى آخر، كما أننا نجد بعض النصوص الروائية قد حفلت باستطرادات طويلة، لا تضيف شيئا ذا بال الى تجارب كتابها الفنية، بل انها تثقل على المتلقي وتكاد تضعه في متاهات لا مبرر لها؛ أو بتعبير آخر فان بعض الروايات جاءت تفتقر الى القدرة على الاحاطة بجوانب الموضوع المعالج - وهو الأرض - والسيطرة عليه، وهو الشيء الذي يدل على عدم اكتمال الرؤية الفنية لدى مبدعيها . ولعل ما يشفع لبعض الروايات الضعيفة فنيا، هو أن كتابها لم يتمكنوا بعد من الولوج عمقا الى عالم المغامرة الروائية، وأنهم في الطريق اليه .

وأنا اذ أقدم هذا البحث لا أزعم أنني بلغت فيه حدّ الكمال ، فذلك ديدن لا يناله أحد من الناس . هذا وانني لأرجو مخلصا أن تكون هذه الدراسة لبنة صالحة في أدبنا العربي الجزائري المعاصر .

والله ولي التوفيق

المصادر والمراجع

ثانيا المراجع :

ـ اديب بامية عايدة : تطور الادب القصصي في الجزائر (1925 ـ 1967)
د .م.ج . الجزائر 1982

ـ البريس م.ر. : تاريخ الرواية الحديثة
ترجمة جورج سالم. عويدات.ط1 بيروت ـ 1967

ـ اوڤيا نيكوف ،م . سمير نوفا : موجز تاريخ النظريات الجمالية
ترجمة باسم القا . دار الفارابي .ط2 بيروت 1979

ـ ايسلاربيت : سوسيولوجيا الادب
ترجمة امال عرموني . عويدات . ط1 بيروت 1978

ـ باشلار غاستون: جدلية الزمن
ترجمة خليل احمد خليل .د .م.ج . الجزائر 1982

ـ بدر عبد المحسن : الروائي و الارض
الهيئة المصرية العامة. القاهرة 1971

ـ ابو مطر احمد : الرواية في الادب الفلسطيني(1950 ـ 1975)
م.ع.د.ن. ط 1 ـ بيروت 1982

ـ بهلول حسن : القطاع التقليدي و التناقضات الهيكلية في الزراعة
بالجزائر. ش.و.ن.ت . الجزائر 1981

ـ جغلول عبد القادر : تاريخ الجزائر الحديث . ترجمه فيصل عباس
دار الخركه ـ ط 1 ـ بيروت 1981

ـ جواد الطاهر علي : مقدمة في النقد الادبي
م.ع.د.ن. ـ ط 1 ـ بيروت 1979

ـ الجواهري محمد واخرون : دراسات في علم الاجتماع الريفي و الحضري
دار الكتاب للتوزيع . القاهرة ـ ط3ـ1979

ـ خوري اليامس : تجربة البحث عن افق : مقدمة لدراسة الرواية
العربية . مركز الابحاث الفلسطينية . بيروت 1974

ـ الركيبي عبد الله :أ- تطور النثر الجزائري الحديث
الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس 1978
ب - القصة الجزائرية القصيرة
د.ع.ك. ليبيا ـ تونس ـ ط 2 1977

- عطية احمد محمد : البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة
منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق 1977

- علوش سعيد : الرواية والايديولوجيا في المغرب العربي (1960 ـ 1975)
دار الكلمة للنشر ـ بيروت .

- فضل صلاح : منهج الواقعية في الابداع الادبي
الهيئة المصرية العامة للكتاب 1978

- فيشر ارنيست : الاشتراكية والفن . ترجمة اسعد سليم .
دار العلم للملايين ـ بيروت 1973

- القلماوي سهير : مختصر حول نظرية الرواية
معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة 1973

- قنانش محمد : الحركة الاستقلالية في الجزائر (1919 ـ 1939)
ش.و.ن.ت. الجزائر 1982

- ليبوك بيرسي : صنعة الرواية . ترجمة عبد القادر جواد .
دار الرشيد للنشر ـ بغداد 1980

- مرتاض عبد الملك أ: - فنون النثر الادبي في الجزائر (1931 ـ 1954)
ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر 1983

ب ـ نهضة الادب الجزائري المعاصر
ش.و.ن.ت. الجزائر ـ ط 2 ـ 1982

جـ ـ الثقافة العربية في الجزائر بين التأثر والتأثير
دار الحداثة ـ بيروت ـ ط 1 ـ 1982

- مصايف محمد : أ ـ دراسات في النقد والادب ش.و.ن.ت. الجزائر 1981 .

ب ـ الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام .
الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس ـ 1983 .

جـ ـ النقد الادبي الحديث في المغرب العربي .
ش.و.ن.ت. الجزائر 1979 .

- منور احمد : قراءات في القصة الجزائرية
ش.و.ن.ت. الجزائر 1981

ـ ريدبكر هوريست : الانعكاس والفعل :ديالكتيك الواقعية في الابداع الفني: ترجمة فواد مرعي. دار الفارابي. بيروت 1977

ـ الزجاجي باقر جواد : الرواية العراقية وقضية الريف. دار الرشيد للنشر . بغداد 1980

ـ زراقا ميشال : الرواية والمجتمع . ترجمة جمال شحيد م. الاداب الاجنبية .ع 3 ـ دمشق 1978

ـ زغلول سلام محمد : دراسات في القصة العربية الحديثة دار المعارف بالاسكندرية . (د . ت .)

ـ زكي احمد كمال : دراسات في النقد الادبي دار الاندلس ـ بيروت 1980

ـ السعافين ابراهيم : تطور الرواية العربية في بلاد الشام(1870 ـ 1967) دار الرشيد للنشر ـ بغداد 1980

ـ سعد الله ابو القاسم : الحركات الوطنية الجزائرية (1900 ـ 1930 ج 2 ش.و.ن.ت. الجزائر 1983

محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث ش.و.ن.ت. الجزائر ـ ط 2 ـ 1982

سلمان نور : الادب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط 1 يناير 1981

المنيرة محمود : في النقد الادبي. الدار المتحدة للنشر . بيروت . ط 1 . 1974

ـ شاهين سمير الحاج : لحظة الابدية : دراسة في الزمن في ادب القرن العشرين الموسوعة العربية ـ ط 1 ـ 1980

ـ الطالب عمار : الاتجاه الواقعي في الرواية العراقية دار العودة ـ بيروت ـ ط 1 ـ 1971

ـ عباس عبد الجبار : في النقد القصصي دار الرشيد للنشر ـ بغداد 1980

ـ عزيز ماضي شكري : انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية م.ع.د.ن. ـ بيروت ـ ط 1 ـ 1982

ـ ناصـــر محمـــــد : الصحف العربيـه الجزائريـة (1847 ـ 1939)
ش.و.ن.ت. الجزائـــــر 1980

ـ النساج سيد حامـد : ادب التحدي السياسي في المغرب العربـــي
دار الراي ـ بيروت (د.ت).

ـ هاليرين جـــون : نظريـه الروايـة . ترجمة محي الدين صبحـي
منشورات وزارة الثقافه والارشاد القومي ـ دمشق 1981

ـ هـــلال غنيمـــي : النقـد الادبـــي الحديـــث
دار العـــودة ـ بـــيروت ـ 1973

هاسـا غالـب واخـرون : الروايـه العربيـة : واقـع و افـــاق
دار ابن رشـد ـ بـيروت ـ ط 1 ـ 1981

ـ ويليك روني ،استن وارين: نظريـة الادب . ترجمـه محي الدين صبحـي
الموسسـة العربيـه للدراسات و النشر ـ بيروت ـ ط 2ـ
1981.

ثالثـــا : رسائـــل جامعيـــة مخطوطـــة : (لما تطبـــع)

ـ ابن حلـي عبد اللـه : القصة في الشمال الافريقي تونس، الجزائر، مراكش

ـ رسالـة ماجستـــير : جامعة عين شمس كلية الاداب بمصر 1976

ـ جزورلـي عبد الحفيـظ : صورة الجزائري في القصه العربيه الجزائريـــه (1962 ـ 1976)

جامعة القاهرة كلية الاداب 1982 (رسالة ماجستير)

ـ علاف محمد زهـــير : الشخصية في روايـات بن هدوقـــة . دبلوم الدراسات المعمقة بجامعة وهران معهد اللغه والادب العربي . 1981 ـ 1982

ـ واسيني الاعـــرج : اتجاهات الرواية العربية الحديثة في الجزائر . رسالة لنيل شهادة الماجستير . جامعـــة دمشق 1981 ـ 1982

رابعـــا : الدوريـــــات

ـ افـــاق عربيـــــة :

عـدد : 8 السنه : 5 بغداد ـ العراق ـ ابريـــل 1980

ـ الاقـــــلام :

عـدد : 1 العراق ـ سنـه : 1976

ـ امـــــال :

عـدد : 52/51 السنه : 10 وزارة الاعلام و الثقافه ـ الجزائر 1980

عـدد : 40 السنـه : 9 " " " " " " 1978

ـ الثقافـــــه :

عـدد : 71 السنة : 12 وزارة الاعلام و الثقافة ـ الجزائر ـ سبتمبر اكتوبـر 1982

ـ الشعب الاسبوعـــي :

عـدد : 18 الجزائر 1975

ـ الشهـــاب :

قسنطينـــة ـ ينايـــر 1934

قسنطينـــة ـ فبرايـــر 1930

ـ الطريـــــق :

عـدد : 43 السنة : 40 بيروت ـ لبنان ـ آب ـ اغسطس 1981 .

- مقدمة
- تمهيد 18 - 1

الفصل الاول : بواعث الاهتمام بالارض 40 -19

- دور الفلاحين التاريخي 37 -23
- الثورة الزراعية 41 -38
- انتماء الروائيين الى اصول فلاحية في النشأة الاولى 43-42

الفصل الثاني : الرواية وواقع الارض 93-44

- صورة القرية 54-44
- الارض محور الصراع 61-55

ابعاد الارض بالنسبة الشخصيات 67-62

الارض في رواية لجمة الساحل 71-68

الارض في رواية نهاية الامس 93-72

الفصل الثالث: مظاهر الفكر الاقطاعي في الرواية 126-94

الفصل الرابع الثورة الزراعية في الرواية 164-127

الارض من منظور ايديولوجي،
الهجرة من الريف الى المدينة
الثورة الزراعية واثرها في المجتمع

الفصل الخامس : النباد الفني في الرواية . 232-165

خاتمة. 236-233

المصادر والمراجع. 244-137